THE BOOK WAS DRENCHED



﴿ اشترك في نقلها الى اللغة العربية ﴾

اسعد داغر
المحرر بجريدة الاهرام

و

محب الدين الخطيب
منشىء مجلة الزهراء

القاهرة

١٣٤١

﴿ طبعت بنفقة ﴾

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيهما : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين * وصلى الله على سيّدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلّم

وبعدُ فانّ ألمانيا هي المملكةُ التي تفرّدتْ بتفوّقها الصناعيّ والعسكريّ في أوربا ، وكانت لها المكانةُ الاولى في العلم والعمل ، كما كان لعاهلها - صاحب هذه المذكّرات - المقامُ الأعلى في تكوينها بالشكل الذي أراد أن تظهر به للعالم بين سنتي ١٩١٤ و١٩١٨. ولما كان مركزه السامي قد خوّله الوقوفَ على دخائل السياسة في أدوارها المختلفة ، فان مذكراته هذه - مهما حاول أن يتخذها ذريعة للدفاع عن نفسه - قد كشفت القناع عن كثير من الخفايا في شئون الشرق والغرب

وقد كتب غليوم الثاني هذه المذكرات باللغة الانكليزية لتنشر في أمريكا سنة ١٩٢٢ (١٣٤١) وبالالمانية لتنشر عقب ذلك في ألمانيا ، وقد نقلتها جرائد العالم من هذين المصدرين . وفي الشهر الذي بدأت المذكراتُ تنشر فيه أطلعتُ عليها أنا وصديقي السيد أسعد داغر في الصحف الفرنسوية نقلا عن الأصل الانكليزي ، وفي الصحف التركية نقلا عن الاصل الالماني : فباشر هو نقلها عن الافرنسية ، وأخذت أنا في ترجمتها عن التركية . والذي دعانا الى ذلك أن الصحف الفرنسوية أهملت بعض ما أثبتته الصحف التركية مما يخالف مصلحة الفرنسويين ، بينما الصحف التركية أسقطت بعض ما احتفظت به الصحف الفرنسوية مما لا يوافق هوى الترك . وبمعارضة الترجمتين والمقارنة بينهما أخرجنا هذه المذكرات لقراء العربية كاملة بقدر الاستطاعة . والله نِعْمَ العون ؟

محب الدين الخطيب

مقدمة

« لقد حكمت علينا المحكمة الابتدائيه بسطوة مدافع الحلفاء ، وبسعاية نورثكليف . وليست (كتبي) الا دفاعاً مرفوعاً الى محكمة الاستئناف التي هي الرأي العام الانساني الهادىء »

غليوم الثاني

ذلك ما قاله إمبراطورُ ألمانيا السابق ، للكاتب الالماني فون فرك ـ وهما يتمشّيان في ظلال أشجار السنديان بحديقة قصر دورن ـ فاذاع هذا الكاتب كلمةَ مؤلّفٍ هذه المذكرات في خلال مقال عنها وعنه نشرتْه مجلةُ « التاريخ الجاري Current-History »

واذا قال غليوم الثاني « كتبي » فانما يعني ثلاثة كتب :

١ ـ هذه المذكرات ، وعنوانها الحقيقي « حوادث وأشخاص »

٢ ـ كتاب « المناضد التاريخية » وهو بقلمه أيضاً

٣ ـ كتاب الكولونيل نيمَن المنشور بعنوان « أحاديث ونزهات وديّة مع الامبراطور »

إنّ إمبراطور ألمانيا السابق يصرف جميع وقته بالكتابة والبحث ، منذ انزوى في منفاهُ الحاضر. ومما قاله للكاتب فرك في هذا المعنى :

« انى اقرأ في كل يوم أمهات الصحف الصادرة في الممالك التي كانت عدوة لنا في الحرب الكونية، وأطّلعُ ـ مع هذا ـ على كل ما ينشر في موضوع « مسئولية الحرب الكونية » من الكتب والرسائل. ومنذ نزلتُ بلادَ هولاندة لايمضي عليّ يومٌ إلا بتمحيص مايقع عليه نظري من الموادّ المتعلقة بهذا الموضوع، وأتولى بنفسي تصنيفها وترتيبها والمقارنة فيما بينها، باستمرار وانتظام »

والظاهر أن هذه المذكرات ـ التى سماها غليوم الثاني: حوادث وأشخاص ـ هي من أهمّ ما عُني به؛ وهو يقول في وصفها:

« إنها أشبه بتقرير موجّه الى الرأي العام لدَحْض أكاذيب الحرب. وقد أردتُ بها أن تكون بيانًا لذيذاً للحكايات التاريخية التى كانت تكون جافةً لولا ما حلّيتها به من الذكريات المختلفة، والنكات الشخصية

« ولم ألجأ فيها الى زُخْرُف القول، والمخادعة في الاحتجاج والاستدلال، بل التزمتُ فيها الحقيقةَ ببساطتها وبكل صراحة. والذى جعلته نُصْبَ عينى في كتابتها هو سردُ الحوادثِ كما وقعتْ، غيرَ ناظرٍ إلى مايترتّب عليها من انتقادي أو انتقاد الذين ساعدوني في حكم ألمانيا. وأي فائدةٍ لى من الطعن في مساعديَّ ومستشاريَّ، وأنا الذي كنت آخذ على نفسي مسئولية الاعمال التي ألقى القانونُ عِبْئها على عاتقي، وان كان في هذه الاعمال ماهو من ثمرات آراء مستشاريَّ لامن نتائج تفكيري وارادتي. ان كل فكرة أو خطة كنتُ أُجيزها تقع مسئوليتها عليَّ وان لم توافق رأيي الخاص

« ان التاريخ السياسي لعهد حكمي لاسبيل الى تدوينه تدويناً علمياً الاّ بعد اندمال جروح الحرب الكونية التي لاتزال مئُوفة [1] رغم كل ماعقدوه من

---

(١) مأوفة: مصابة بآفة

معـاهدات ، والاّ بعد أن تتغير الحـالة العقلية الحاضرة المتولدة عن الحرب الـكونية ، والاّ بعـد أن تُفتح خزائن المستنـدات الموصدة الأبواب عند جميع الامم

« ان ألمانيا قد فتحت دفاترها للعالم ، وأما الحلفاء فان مانشرته حـكومة السوفيت من مستنداتهم ليس الاّ نزْراً ، وآنفضح نزْر آخر منها بزلات بعض ساسة الحلفاء أنفسهم ، وماسوى ذلك وهو الاكثر لايزال سراً مكتوماً . وانّ كثيراً منه سيستعصي على كاتب التاريخ الاستفـادة منه في التحقيق ، وأيّ شيء يمـكن استخراجه من بقايا يوميات أو مذكرات سفولسكي وسازونوف وكليمنسو وپوانكاريه ودلـكاسّيه وادوارد غراي واسكويث ولويد جورج وويلسُن ، وأي اعتراف يمكن أن تأخذه من خطهم لتكشف ببواطنه عما سلف من الظواهر

« قد تـكون مذكراتي ـ حوادث وأشخاص ـ ظهرتْ قبل الأوان ، ولـكني فضلتُ عدم الانتظار ، مُوثراً مصلحة قومي على مصلحتي ؛ فجاءتْ هذه المذكرات سيفاً من الحق مسلولاً في وجه أكاذيب فرساي »



حوادث وأشخاص

الفصل الاول

﴿ بسمرك ﴾

صلتي ببسمرك وأنا أمير — وزارة الخارجية مدة بسمرك — الاستعمار والاسطول،
سياسة بسمرك مع روسيا وانكلترا — مؤتمر برلين — رحلتي الاولى الى روسيا
مهمتي في برست ليتوفسك - سياسة بسمرك مع روسيا - وفاة والدي - الرجال
الذين استعنت بهم بعد تتويجي — سياحتي الاولى في عهد امبراطوريتي
بسمرك وتركيا — الاحزاب السياسية — سلطة بسمرك — اعتصاب
مناجم الفحم — معارضة بسمرك — المؤتمر الاجتماعي العام
انقطاع صلتي ببسمرك — سياسة بسمرك الاجتماعية المنبعة
قانون حماية العمال — تنكب الانكليز عن الانظمة
الالمانية — مساعدة البحرية التجارية

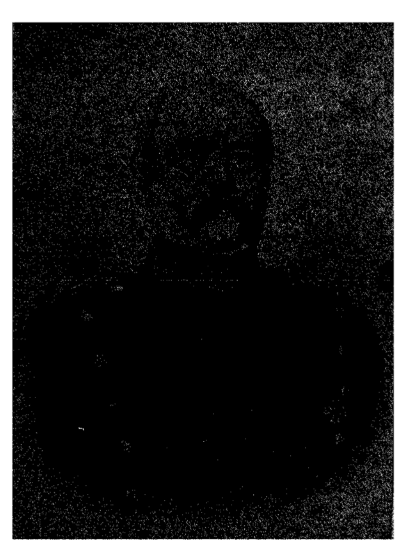
صلتي ببسمرك وأنا أمير

ان عظمة (بسمرك) السياسية . وخدماته الجليلة لمملكة بروسيا وللدولة الالمانية كلها ، لمن الامور التاريخية التي لها من الاهمية والمكانة مالا يجرأ معه أحد من الناس أياً كان على ان يرتاب فيها

ولهذا فان ما قيل عني من أنني أبيت الاعتراف بتفوق بسمرك وعبقريته يجب أن يحمل على محمل الروايات الكاذبة . والحقيقة التي لامراء فيها هي انني اكرمت الرجل كل الاكرام ، وانزلته منزلة الالوهية ، بما حففته به من مظاهر الاعتبار والاحترام . وهل كان في امكاني ان افعل غير هذا ، وانا الذي ترعرعت وشببت في جيل يصح أن يطلق عليه اسم جيل عبادة بسمرك ؟

لقد أوجد هذا الرجل الامبراطورية الالمانية ، وكان الساعد الايمن لجدي ، وكنا نعده اكبر رجال السياسة في عصره ، ونفاخر العالم بأنه الماني كان بسمرك في هيكل نفسي الاله الذي أعبده . غير ان الملوك كسائر

البشر من لحم ودم ، فهم مثلهم يتأثرون بمعاملة الناس . ولهذا فان بسمرك قد حطم بيده تمثاله الروحي الذي كنت أعبده ، بما أصلاني من نيران المعاكسة والمقاومة . ومع هـذا فان اعتباري له ، وتقديري لعلو كعبه في السياسة ، لم يتأثرا بذلك ولم يتزعزعا

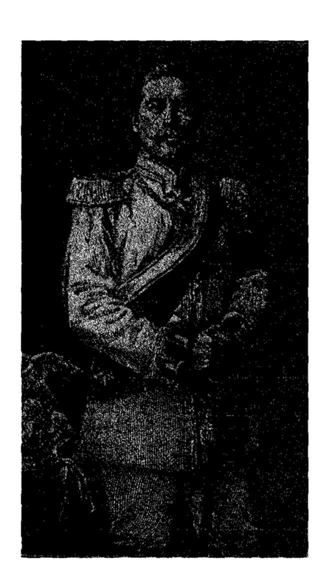


برنس أوتو بسمرك : ١٨١٥ — ١٨٩٨

لما كنت أمير بروسيا طالما كنت أقول في نفسي : « عسى الله ان يطيل حياة المستشار (بسمرك) لاني سوف اكون مطمئناً الى مؤازرته اذا قمت باعباء الملك »

ولكن احترامي له لم يكن ليوجب عليّ ـ بعد صيرورتي امبراطوراً ـ ان اوافق على مشروعاته السياسية التي كنت واثقاً بعدم صوابها . ومن هذه المشروعات التي كنت أرى خطأها (مؤتمر برلين) الذي انعقد سنة ١٨٧٨

٣



«غليوم الثاني — وهو أمير بروسيا»

ثم جاء قانون حماية العمل ، فأسفت كل الاسف لنشوب خلاف بيننا عليه ، ولكني لم أجد سبيلا الى ملافاته لان الواجب كان يقضي علي اذ ذاك بان أسلك سبيل التوفيق . سواء في السياسة الداخلية أو في السياسية الخارجية ؛ وهي السبيل التي وقع عليها اختياري ، وقد منعني اختياري لها ان اناصب الحزب الاشتراكي الديمقراطي العداء الذي كان ينصح به البرنس بسمرك . لكن هذا الاختلاف في الرأي على مسائل سياسية لم يضعف اعجابي بالرجل ، وظل بسمرك في نظري خالق الامبراطورية الالمانية . وهل كان عليه ان يفعل أكثر من هذا ليستحق شكر الوطن ويكون قبلة بنيه ؟

ان عمله العظيم ـ الذي أوجد وحدة الامبراطورية ـ كان منقوشاً على صفحات ذاكرتي ، وكانت تتحطم عنده كل الدسائس والمساعي التي كان خصومه يحاربونه بها في الخفاء . ولم تضعف ثقتي به ، على ما كان يقال فيه من

انه حاكم بلاط « هوهنزولرن » ، وعلى ما كان معروفاً عنه من انه يسعى لجعل السيطرة السياسية وراثية في أسرته ، بدليل انه كان يأسف كل الاسف لانصراف ابنه « بل » عن السياسة وعدم اهتمامه بها ، ويفكر بوضع الحكم من بعده في يد « هربرت » ابنه الآخر

والسبب فيما وقع بيني وبين بسمرك من الخلافات المؤلمة يرجع الى انني



غليوم الاول مؤسس الاتحاد الالماني : ١٧٩٧ — ١٨٨٨

صعدت الى العرش بعد جدي ، فكأنني سبقت الزمن ووثبت من فوق جيل . ولا يخفى ما في مثل هذا الموقف من صعوبة ، لاني وجدتني وسط رجال ابيضت نواصيهم وعلا مقامهم ، فكانوا أقرب الى الماضي منهم الى الحاضر ، وكان ثقل الشيخوخة يعوقهم عن التدرج الى مستوى المستقبل

كنت في بادئ الامر مرتاحا الى وصولي للعرش بعد جدي . وكان الناس يقولون ان ارتقائي ذروة الملك في شرخ الشباب نعمة احسد عليها

ولكن سرعان ما علمت ان ارتياحي كان في غير محله . وان الناس كانوا على ضلال في اعتقادهم بسعادتي ، بعد ان خبرت مشقة العمل مع رجل سياسي كبسمرك بلغ من العمر عتيا ، ومن العظمة والمجد مكانا قصيا

والذين طالعوا (مذكرات بسمرك) يعلمون حق العلم اني على صواب فيما أقول ، فقد اعترف المستشار نفسه بتلك المشقة في معرض كلامه عن « المستشار الشيخ والامبراطور الفتى » . ولما أطلعه « بالين » على مشروع ميناء همبورغ شعر بأن الايام قد تبدلت ، وان البلاد دخلت في جيل جديد يفوته ادراك حقائقه ، فأخذ يقول ويردّد هذه العبارة : « هذا عالم جديد ! هذا عالم جديد ! »

وهكذا كان شعوره وقوله أيضاً يوم زاره الاميرال « فون تيربتز » ـ وكانت الايام قد أثقلت كاهله ـ ليحمله على تأييده في مشروع بناء الاسطول

أما انا فقد شعرت نفسي بالارتياح لما عهد اليَّ البرنس بسمرك سنة١٨٨٦ بمهمة دقيقة جداً في « برست ليتوفسك » ، ثم لما اتصل بي انه قال عني : « ان هذا الرجل سيكون يوما ما مستشار نفسه » ، يعني انه سيكون لي من الخبرة والدهاء ما يجعلني في غنى عن سواي . وهذا يدل على ان البرنس كان يحسبني شيئاً

في وزارة الخارجية

في النصف الاول من سنة ١٨٨٠ عينت ـ باقتراح البرنس بسمرك ـ

في وزارة الخارجية التي كان يديرها الكونت هربرت بسمرك (ابن البرنس بسمرك). وقبل أن أباشر عملي وصف لي البرنس بسمرك الاشخاص الذين سأتعرف بهم في (ويلهمستراس) وصفاً موجزاً. ولما ذكر لي اسم فون (هولستين) وهو من أهمّ الرجال الذين يعملون معه شعرت من أقوال البرنس بالتلميح الى ضرورة الاحتراس من هذا الرجل. وأعطوني مكتباً خاصاً بي في الوزارة ، وسلموني مجموعة مستندات تتعلق باتفاقيتنا مع النمسا ، وكيفية حصول هذه الاتفاقية وغير ذلك. وصرت أواصل زيارة البرنس بسمرك وابنه الكونت في منزلها المرة بعد المرة ..فلما وثقا بي صارا يتجاهران امامي بالكلام عن (هولستين) ، وكانا يخافانه كثيراً ، ويعترفان بنشاطه العظيم ، ويصفانه بالغرور ، فضلا عن كونه رجلاً خطراً. وكان البرنس بسمرك يقول « ان له عيني ضبع ». وكانت هذه الوزارة في يد الكونت هربرت خاضعة للنظام الذي وضعه لها. وقد وجدته فظاً في معاملته الموظفين الذين تحت اشرافه ، بل اني دهشت لمبالغته في فظاظته. وكان رجال الوزارة يرتعدون خوفا كلما دعا الكونت أحدهم الى مكتبه أو كلما أشار اليه بالانصراف ، حتى اننا كنا نضحك كثيراً مما نراه من مظاهر خوفهم وارتعاشهم

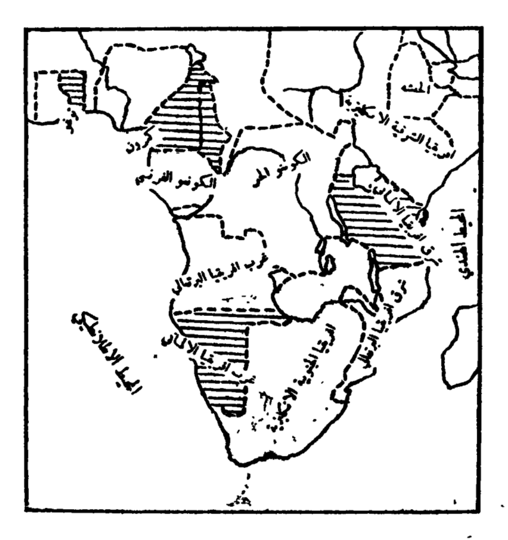
كان (بسمرك) يضع خطة السياسة الخارجية وحده بعد المداولة مع الكونت هربرت. وكان الكونت واسطة نقل أوامر البرنس الى مرءوسيه فيضعها كتابة بشكل مذكرات. وعلى هذه الصورة كانت وزارة الخارجية مكتباً تابعاً للمستشار لايتم فيها عمل الا بامره واشارته. والحقيقة هي ان هذه الوزارة لم تهذب ولم تخرج رجالا ذوي قيمة شخصية وافكار خاصة مستقلة ، خلافاً لما كان يجري في اركان حرب الجنرال « مولتكي » حيث كان الضباط الجدد يتثقفون ويتلقون تعليما يؤهلهم لتكوين افكار خاصة مستقلة ، مع الاحتفاظ بالمبادئ القويمة التي شهد الاختبار بصحتها وبالتقاليد القديمة العزيزة

لم يكن في وزارة الخارجية الا آلات تتحرك لتنفيذ ارادة معلومة ، ولم تكن هذه الآلات تفسها تدار بصورة تدع الواحدة منها تتصل بجاراتها وتطلع على كل دقائق المسألة التي كانت تقوم ببحث قسم منها ، فكان التضامن في العمل الواحد أمراً مستحيلا

كان البرنس بسمرك في وزارة الخارجية كصخرة من الغرانيت قائمة وسط المروج اذا زحزحتها لم تعثر تحتها الا على الديدان والجذوع المتشعبة

الاستعمار والاسطول

وكنت قد وفقت الى الحصول على ثقة البرنس فصار يكثر من الكلام معي . ولما فتح باب أول عملية استعمارية في افريقية طلب الي ان أطلعه على



خريطة مستعمرات الالمان في أفريقية

ما كان لهذه العملية من التأثير في جمهور الامة وفي الدوائر البحرية . فوصفت له الابتهاج الذي قابل به الشعب طريق الاستعمار الجديد المفتوح امامه ، فكان جواب البرنس : ان الضجة التي احدثتها العملية اكبر من العملية نفسها

وسنحت لي فرص كثيرة بعد ذلك لمحادثة البرنس في المسألة الاستعمارية فعلمت منه انه عازم عزماً اكيداً على استعمال المستعمرات كأداة مفاوضة ومساومة بدلا من استثمارها لخير البلاد والاستفادة مما فيها من المواد الخام . فرأيت من الواجب عليّ أن الفت نظر البرنس الى ان جماعة التجار وأصحاب الاموال قد نشطوا لترقية المستعمرات وانهم يعتمدون على الاساطيل لشد أزرهم ، وأبنت له ان الوقت قد حان للاهتمام بانشاء اسطول لنا حتى لاتكون املاكنا فيما وراء البحر معرضة للضياع ، وقلت : ان البرنس قد رفع العلم الالماني في بلاد بعيدة ، ووراء هذا العلم شعب كبير ، فيجب أن يكون وراء هذا الشعب اسطول . ولكن بسمرك لم يصغ الى كلامي ، وكان في كل مرة يجيبني بهذه العبارة التي كان يرتاح الى ترديدها : « اذا حدّث الانكليز أنفسهم بالنزول في أرضنا فاني آمر رجالي بالقبض عليهم » . وكان يرى ان الدفاع عن المستعمرات الالمانية يكون في ألمانيا

وما كان يهم البرنس بسمرك ان يعلم ان فكرة امكان نزول الانكليز في الاراضي الالمانية كانت مما لا يطيقه الشعب الالماني (وفي ذلك الوقت كانت جزيرة « هليغولند » انكليزية) وما كان يريد ان يفهم حاجتنا الى اسطول قوي بل والى جزيرة « هليغولند » نفسها لنجعل نزول الانكليز في أرضنا أمراً مستحيلاً

وكان هم بسمرك السياسي محصوراً في القارة الاوربية فكانت انكلترا على نوع ما خارجة عن حدود همومه اليومية ، لاسيما وان صلاته مع سالسبوري كانت حسنة منذ اليوم الذي حيي فيه هذا السياسي الانكليزي المحالفة الثنائية (ألمانيا ـ النمسا) أو بالأحرى المحالفة الثلاثية (ألمانيا ـ النمسا ـ ايطاليا) حال عقدها

وكان البرنس يميل الى العمل بالاتفاق مع روسيا وانكلترا وايطاليا ورومانيا ، وكان يراقب باهتمام كبير علاقات هذه الدول بعضها ببعض وعلاقاتها مع المانيا ، وقد أظهر في ذلك من الدهاء والحنكة شيئاً كثيراً ، حتى ان الامبراطور غليوم الاكبر شهد له ذات يوم شهادة لا تدع زيادة



الامبراطور غليوم الاول

لمستزيد اذ دخل عليه رئيس مكتبه الجنرال « فون ألبديل » ووجده في حالة تهيج عصبي شديد ـ على أثر خطاب ألقاه بسمرك ـ فخاف الجنرال ان تقضي ثورة الغضب على حياة الامبراطور فقال له : اذا كانت ارادة البرنس مخالفة لارادة مولاه فما على مولاه الا أن يبعده . فقال الامبراطور انهُ على مايشعر به من الاعجاب ببسمرك ، ورغم اعترافه بجميله ، قد فكر فعلا بالانفصال عنه لانِ مواقفه الاستبدادية أصبحت لا تطاق في بعض الاحيان ، ولكنه يرى

أنه والبلاد بحاجة الى بسمرك . ومما قاله الامبراطور : ان البرنس بسمرك هو المشعبذ الوحيد الذي يلعب دائماً بخمس اكر ، اثنتان منها في الهواء . وأنا لا أستطيع اللعب بكل هذه الاكر مع أني امبراطور

ولم يفهم البرنس ان استيلاءه على مستعمرات في افريقية كان يوجب عليه ان يرسل نظره الى ما هو أبعد من القارة الاوربية ، وان يسير في معاملاته مع انكلترا على خطة سياسية واسعة . وكانت سياسته الخارجية مقصورة على دول اوربا ، فلم تنل المستعمرات ولا الاسطول ولا انكلترا قسطاً من اهتمامه ، كما انه كان قليل الخبرة في السياسة العالمية العامة . وعلى هذه الصورة كانت وزارة الخارجية الالمانية تجهل كل شيء من العقلية الانكليزية والروح الانكليزية ، بل ان هذه الروح كانت كتاباً مقفلاً لا يطلع عليه رجال السياسة فيها . فلا عجب مع هذا ان يفوت البرنس بسمرك ان الانكليز كانوا يرمون الى بسط سيطرتهم على العالم

سياسة بسمرك مع روسيا وانكلترا

قال لي البرنس يوماً ان غايته القصوى هي منع روسيا وانكلترا من الوصول الى اتفاق فيما بينهما . فسمحت لنفسي بأن أقول له ان هذه الفرصة قد سنحت لنا في الماضي وانا لو استفدنا منها لجعلنا ذلك الاتفاق مستحيلا لمدة طويلة . وماكان علينا الا أن ندع الروس يقتربون من الاستانة [1] سنة ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ . فانهم لو فعلوا ذلك لاسرع الاسطول الانكليزي الى الاستانة للدفاع عنها ولكن ذلك سبباً كافياً لنشوب الحرب بين الفريقين .

(1) ان في هذا الاعتراف عبرة وذكرى لكل شرقي . فان غليوم الثاني يلوم بسمرك في هذا الموقف ، ويعد من غلطاته عدم تمكين الروس من الاستيلاء على الاستانة . وسيرى القارىء في الصفحة ١٧ و ١٨ ان المانيا عرضت على روسيا الاستانة والدردنيل . ومن هذا يدرك القارىء ان الاوربيين على اختلافهم لا ينظرون الا الى منافعهم ، وما الشرق في نظرهم غير سلعة يساومون بها أو يساومون غيرها . وستظل الحال كذلك في كل قطر لا يبرهن على انه ليس بسلعة

ولكننا عوضاً عن ذلك أجبرنا الروس على قبول معاهدة « ايا ستفانوس » واضطررناهم للتقهقر بعد ان كانت جيوشهم وصلت الى أبواب العاصمة العثمانية عقب معارك هائلة وحرب ضروس

وكانت نتيجة سلوكنا هذا انها جرّت روح الحقد علينا في الجيش الروسي وسوف لا تخمد جذوة هذا الحقد قبل زمن طويل . وقد علمت ذلك من الضباط البروسيين الذين خدموا في صفوف الروس في الحرب الروسية التركية وأولهم الكونت « بفايف »

ثم ظهرت الرغبة في تعديل هذه المعاهدة وابدالها بمعاهدة برلين . وهذا ما زاد في اظهارنا امام الروس اعداء « لمصالحهم المشروعة ! في الشرق » . وقد أرجأ هذا العمل الخلاف الذي كان يتوقعه البرنس بين انكلترا وروسيا الى المستقبل البعيد

مؤتمر برلين

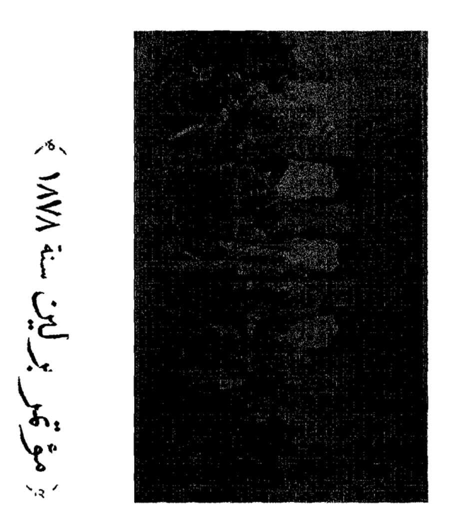
ولم يكن البرنس على رأيي في « مؤتمره » ، لانه كان فخوراً بالنتائج التي أحرزها بصفته « وسيطاً شريفاً » . وقد ذكرني بقسوة انه درأ بذلك حرباً عامة . وانه كان ينبغي له أن يعرض توسطه

وقد نقلت هذا الحديث فيما بعد الى موظف في وزارة الخارجية ، فأخبرني انه كان في وزارة الخارجية لما وصل اليها البرنس بعد توقيع معاهدة برلين ، وانه تقبل فيها تهاني الموظفين الذين اجتمعوا خاصة لهذا الغرض . وقد رفع البرنس رأسه حينئذ ورد على تهانيهم قائلا :

« اني أسوق الآن مركبة أوربا على أربعة جياد من أعلى هذا الكرسي»

وزاد الموظف على ذلك فقال « ان البرنس كان مخطئاً ، لان الصداقة بين فرنسا وروسيا بدأت منذ ذلك الحين تحلّ محل الصداقة الروسية البروسية ، فخرج بذلك اثنان من الجياد التي كانت تجر المركبة

وكان الروس يرون ان مهارة (دزرائيلي) السياسية هي التي حولت مساعي بسمرك « الوسيط الشريف » الى دور انكليزي نمسوي أحرز على روسيا



مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨

واستمر البرنس على اظهار صداقته ومجاملته لي رغم اختلافنا في الرأي على أمور كثيرة ولم يكن الفرق بين عمرينا حائلا دون علاقاتنا الحسنة ، لاني كنت ـ ككل أفراد أسرتي ـ من أعظم المعجبين ببسمرك ، ولاني

اكتسبت ثقته بصراحتي وغيرتي فلم أخدعه قط في حياتي

وفي أثناء وجودي في وزارة الخارجية عرض عليّ الهر (رشدو) المستشار السري أموراً كثيرة منها مايتعلق بالسياسة الاقتصادية والمستعمرات وغيرها ، فادركت حينئذ مقدار تسلط انكلترا علينا لاننا لا نملك أسطولا ، وعلمت أن هيلغولند كانت للانكليز

وكان الشعور عظيما بضرورة توسيع مستعمراتنا بحكم الحاجة . ولكن ذلك لم يكن ممكناً الا اذا سمحت به انكلترا . ومثل هذا الموقف شديد الخطر علينا ، وغير لائق بنا

وكانت اقامتي في وزارة الخارجية سبباً في أمور ازعجتني كثيراً . فان أهلي لم يكونوا شديدي الميل الى بسمرك ؛ وقد أسفوا على دخول ابنهم في محيطه ، وخافوا أن اتأثر بالمؤثرات غير المرضية فيما يتعلق بهم ؛ وان ألقن مبادئه الرجعية . وخلاصة القول انهم كانوا يخشون ان تقوم أمامي المشاكل التي كان يبسطها لهم النمامون الذين جاءوا من انكلترا أوخرجوا من « الاندية الحرة » واعتقدوا بان والدي كان خير عون لهم . اما أنا فلم أعر هذه الامور شيئاً من اهتمامي ؛ ولكن حالتي في منزل والدي قد تصعبت من جرّاء ذلك ، وكانت تبعث على الكآبة في بعض الاحيان

واضطررت أن احتمل ساكتاً ــ من أجل البرنس ــ كثيراً من الامور المكدرة ، لاشتغالي معه . ولشدة تكتمي . وهذا التكتم امتحن مراراً بأساليب قاسية ، وكان البرنس يجد ذلك طبيعياً

وكانت صلاتي حسنة بالكونت هربرت ، لانه عرف كيف يكون رفيقاً تسرّ عشرته ، وكيف يجمع حول مائدته خيرة رجال السياسة وغيرهم

على ان هذه الصلات لم تتحول الى صداقة حقيقية . وقد ظهر الدليل على ذلك حينما رفع استعفاءه بعد ذهاب أبيه . فسألته حينئذ أن يبقى معي لكي يعيننى على الاحتفاظ بالتقاليدالسياسية ، ولكنه رد عليّ بغلظة قائلا انه اعتاد

ان يشتغل مع والده فقط وأن لا يخدم غيره وانه يجب ان لا يطلب منه ان يتأبط محفظته ويضع نفسه في خدمة الغير

سفرتي الأولى الى روسيا

لما بلغ القيصر نقولا الثاني ـ الذي مات فيما بعد قتيلا ـ سن الرشد عهد الي ـ باقتراح البرنس بسمرك ـ الذهاب الى بطرسبرغ لاقلد الغراندوق ولي العهد وسام « النسر الاسود ».

وقبل سفري أطلعني الامبراطور والبرنس على أسرار العلاقات بين روسيا والمانيا ، وعلى الصلات التي كانت بين البيتين المالكين . وأوقفاني أيضاً على عادات وتقاليد بلاط روسيا ، وكلماني عن كبار الرجال الذين سأراهم فيه . وقد قال لي الامبراطور في ختام الحديث انه يردّد على مسمع حفيده نصيحة أعطاها له الكونت (أدلربرغ) بمناسبة سفرته الاولى الى روسيا ـ وكان لا يزال شاباً بعد ـ وهي : « ان رجال البلاط الروسي ـ كسواهم من سائر الرجال ـ يفضلون سماع المديح على سماع الانتقاد »

اما البرنس فانه ختم تعليماته بالملاحظة الآتية :

« ان رجال الشرق الذين يلبسون القميص فوق السروال شرفاء النفس . ولكنهم متى صاروا يخفون أطراف قميصهم تحت السروال ويعلقون الاوسمة في أعناقهم فانهم يصبحون لصوصاً أشراراً »

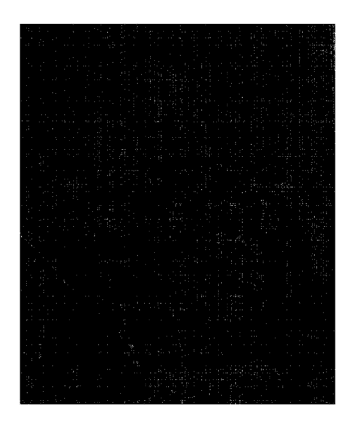
وقد أرسلت من بطرسبرغ مرات عديدة الى جدي والى البرنس تقارير عما كنت أراه فيها ، وكنت أطلعهما فيها بالطبع على كل تأثيراتي وملاحظاتي بأكثر ما استطيع من الدقة . وقد لفتّ نظرهما بنوع خاص الى ما شعرت به من فتور العواطف الروسية نحونا في تلك الايام ، خلافاً لما كان قاله لي الامبراطور والبرنس قبيل سفري

ولما عدت الى برلين هنأني على السهولة والصراحة التي كنت اكتب

بهما تقاريري ، وكان سروري بهنئتهما عظيماً جداً . ولاسيما لاني كنت أخشى أن تكون تقاريري حيث ما كان هذان الرجلان العظيمان قد علقاه عليّ من الآمال

صورتي في برست ليتوفسك

وفي أواخر شهر أغسطس – أو في أوائل سبتمبر – سنة ١٨٦٦ على أثر مقابلة « غالستين » بين الامبراطور غليوم الاكبر والبرنس بسمرك وبين الامبراطور فرنسيس يوسف – وهي مقابلة حضرتها أنا أيضاً بأمر من جدي –



ابن يوسف ... امبراطور النمسا

أمرت بالذهاب الى روسيا لاطلع الامبراطور اسكندر الثالث شخصياً على ما دار من الاحاديث في تلك المقابلة ، ولافاوضه في مسائل تركيا والبحر المتوسط التي كانت لا تزال معلقة .

وقد أعطاني البرنس بهذا الصدد تعليمات وافق عليها الامبراطور ، وكانت هذه التعليمات تتعلق بما كانت تبديه روسيا من الميل الى احتلال الاستانة ، وهو ميل لم يكن البرنس يعارضه في شيء . بل بالعكس فانه عهد اليّ بصراحة



غليوم الثاني – ببزّة مشير عثماني

تامة أن أعرض على روسيا الاستانة والدردنيل معاً [1] (وكان معنى هـذا العرض القضاء على معاهدتي أيا ستفانوس وبرلين). وكانت نية بسمرك متجهة الى محاولة اقناع تركيا بان الاتفاق مع الروس خير لها ولمصالحها!

ولما وصلت الى «برست ليتوفسك» استقبلني القيصر بكل مظاهر الصداقة لحضرت استعراض الجيش والتمرينات الحربية والدفاعية التي قام بها الى آخر ما هنالك من الاعمال العسكرية التي ظهر لي بكل جلاء انها قائمة على روح العداء لالمانيا

ولما سنحت لي فرصة للحديث مع القيصر عما جئت اليه من أجله قال لي: «اذا أردت الاستانة فاني قادر على الاستيلاء عليها متى شئت بدون حاجة الى اذن البرنس بسمرك وموافقته». فظهر لي من هذه الصورة القاسية التي قوبل بها اقتراح البرنس اني فشلت في مهمتي. فأسرعت الى كتابة تقرير الى بسمرك سجلت فيه كل ما جرى لي

سياسة بسمرك مع روسيا

ولا شك أن هذا الاقتراح الذي جئت به الى القيصر باسم البرنس بسمرك كان معناه ان البرنس قد غير الطريق الذي سار عليه الى مؤتمر أيا ستفانوس، ثم الى مؤتمر برلين. وقد يكون التطور الذي كان جارياً في السياسة الاوربية العامة في تلك الايام قد أقنعه بان الوقت قد حان لتغيير الورق على مائدة القمار السياسي أو - كما كان يقول جدي - لتغيير «الرقصة» على مسرح السياسة. ولم يكن هذا الانقلاب ممكناً الا لرجل امتدّ نفوذه على العالم وبلغ أقصى درجات العظمة الادارية والسياسية كما كان بسمرك. فهل كان البرنس دبر خطة جديدة لمعاملة روسيا يمنع بها وقوع حرب عامة؟ أم كان يريد التزلف لانكلترا؟ وهل كانت مقاومته السابقة لاطماع الروس في الشرق

(١) انظر الصفحة ١٠ و١٨

تضمر رغبته البعيدة في العودة يوماً ما الى تنشيط هذه الاطماع ومساعدتها ؟ هذا ما لم يسعني علمه لان البرنس لم يطلع قط أحداً في يوم من الايام على تدابير السياسة الخطيرة

واذا كان الامر كذلك فان البرنس - اعتماداً على ما كان له من الثقة بنفسه - قدّر أن هذه الحنكة السياسية ستؤدي الى جعل الروس أميل الى موالاتنا من ذي قبل فجعلهم يعتقدون بان تحقيق أمانيهم متوقف على المانيا وحدها بينما الموقف السياسي العام في أوروبا كان أقل توتراً مما كان سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ . وتلك مناورة عجيبة لم يكن في استطاعة أحد غير بسمرك أن يقوم بها . غير ان هذه المناورة السياسية لم تكن لتخلو من الضعف والوهن اللذين يظهران غالباً في مشروعات عظماء الرجال

وهل أطلع البرنس انكلترا على ذلك الاقتراح الذي عرضه على روسيا ؟ لا شك ان انكلترا كانت مصممة على أن تقاوم بكل حال هذا المشروع كما قاومته سنة ١٨٧٨ . وفي كلا الحالين فان بسمرك كان قد اختط لنفسه - منذ تلك اللحظة - السياسة الجديدة التي قابلها بالرفض لما أشرت عليه بها (١) ملفتاً نظره الى ما خيب به آمال الروس بمنعه اياهم من الدخول الى الاستانة بعد وصولهم الى أبوابها

ولما كنت في التمرينات الحربية في (برست ليتوفسك) شعرت شعوراً تاماً بان الضباط الروس كانوا في معاملتهم اياي أقل اكتراثاً بي ، واكثر ابتعاداً عني ، مما كانوا وقت زيارتي الاولى لبطرسبرغ . ولم أسمع كلمة تشف عن الميل الى المانيا الا من بعض شيوخ القواد الذين ألحقوا بخدمة البلاط القيصري في عهد اسكندر الثاني ، فعرفوا الامبراطور غليوم الاكبر وحافظوا على اخلاصهم له ، ولم يمتنعوا قط عن اظهار ما كان له في نفوسهم من الاحترام . وقد جرى لي حديث مع أحدهم عن العلاقات بين البلاطين الروسى والالماني وبين الجيشين

(١) انظر صفحة ١٠ و١٧

والبلادين فقلت له اني أرى انقلاباً محسوساً في هذه العلاقات . فقال « الذنب في ذلك على مؤتمر برلين ! تلك غلطة كبرى ارتكبها بسمرك : فقد قضى على الصداقة القديمة التي كانت بيننا وازال الثقة بالمانيا من البلاط ومن الحكومة وجعل الجيش يشعر بانه جنى عليه جناية عظمى بعد الحرب الدموية التي خاض غمارها سنة ١٨٧٧ وبانه لا بد له من أن ينتقم لنفسه . وهكذا فانك تجدنا الآن حلفاء هذه الجمهورية الفرنسوية الملعونة الممتلئة بغضاً لكم والقائمة على أفكار مخربة قد تكون غداً السبب في انهيار بيتنا المالك اذا وقعت الحرب بيننا وبينكم » . وما أعجب هذه النبوءة بمصير البيت المالك في روسيا !

وعدت من (برست ليتوفسك) الى (ستراسبورغ) حيث كان جدي الامبراطور موجوداً للاشراف على التمرينات العسكرية . فعلمت عند وصولي ان الحالة السياسية حسنة رغم فشل مهمتي . وقد ارتاح جدي الى السلام الودي الذي حملنيه القيصر اليه ، وعده دليلا على ان العلاقات الشخصية بين الامبرطورين لم يطرأ عليها تغيير . وماكان أشد دهشي اذ تلقيت كتاباً من البرنس بسمرك يعرب لي فيه عن شكره وتقديره لنشاطي وللمعلومات التي عدت بها . وكان هذا دليلاً على أن الاستنتاجات التي كنت استنتجتها من رحلتي لم ترق في عين جدي ولا في عين البرنس

كان مؤتمر برلين قد اوجد في الدوائر العسكرية الروسية كرهاً لكل ما هو بروسي أو الماني ، وزاد في هذا الكره ماكان لهذه الدوائر من الصلات بالضباط الفرنسويين الذين كانوا يسعون لتحويله الى عداء ينتهي بحرب انتقام . ونسي الروس صلات الاخاء المسلح التي كانت تجمع بينهم وبيننا والتي كانت لا تزال محترمة في بلادنا . وعلى هذه الصورة ألقيت في تربة روسيا البذور التي استثمرها الحلفاء في الحرب الكبرى لشفاء حقدهم ، واتحد مبدأ الانتقام لفشل (سيدان) بمبدأ الانتقام لمؤتمر (ايا ستفانوس)

ان الكلمات التي قالها لي ذلك القائد الشيخ في (برست ليتوفسك) نقشت

على صفحات ذاكرتي . وهي التي حملتني على مقابلة اسكندر الثالث ونقولا الثاني مقابلات عديدة . وكنت في كل مرة أجتمع فيها بأحدهما أجعل نصب عيني ضرورة تحسين العلاقات بين روسيا والمانيا ، لا سيما وان جدي كان أورثني هذه الرغبة وهو على فراش الموت



الامبراطورة السابقة أوغستا فكتوريا — زوجة غليوم الثاني
(تزوج بها سنة ١٨٨١ — توفيت سنة ١٩٢٠)

وفي سنة ١٨٩٠ بينما كنت في تمرينات (نارفا) العسكرية حملتني الظروف على ان أقص على القيصر الروسي حكاية تنحية بسمرك بتفاصيلها . فأصغى الى حديثي اصغاء تاماً . ولما جئت على آخر كلامي قبض هذا العاهل على يدي ـ مع ما كان مشهوراً به من التحفظ والبرود والاقلال من التكلم بالسياسة ـ وشكر لي ما قدمته له من برهان على ثقتي به . وبعد ان صرح لي بانه آسف لاضطراري الى الانفصال عن بسمرك قال لي ما يأتي بالحرف :

« اني أفهم خطة عملك . فالبرنس ـ على ما كان له من الصيت والعظمة ـ لم يكن في حقيقة الامر الا موظفاً من موظفيك وعاملا من عمالك . ولهذا

فكان من الطبيعي ان تنحيه متى رفض ان يأتمر بأوامرك . اما فيما يخصني انا فاني كنت دائماً ذليل الثقة به ولم أصدّق قط كلمة واحدة مما كان يقوله لي أو يوحي بتقديمه الي ، لاني كنت على يقين بأنه كان دائماً يهزأ بي ويكذب علي . واما فيما يتعلق بالصلات فيما بيننا نحن الاثنين ياعزيزي ڤليوم ـ وكانت تلك المرة الاولى التي يخاطبني فيها القيصر باسمي ـ فان سقوط البرنس بسمرك سيكون له أحسن النتائج ، فيزول الارتياب وتنتفي الشكوك . اني اثق بك ، وفي وسعك ان تثق بي »

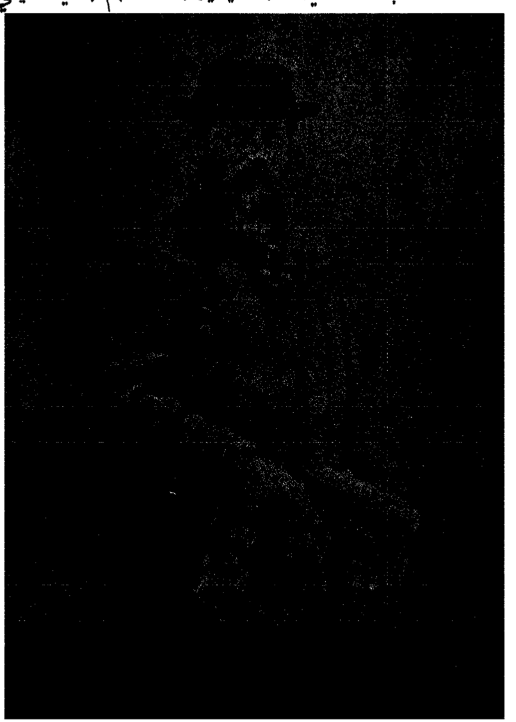
فأدركت في الحال المعنى الحقيقي لهذه الكلمات التي كانت في الحقيقة على جانب خطير من الاهمية . ولست الا من الذين يفهمون بسرعة الى أي حد تصل المجاملة بين عاهل وعاهل . ولهذا فقد استخلصت من كلمات القيصر أنه كان شديد الارتياح لاعتزال رجل سياسي عظيم كبسمرك ميدان العمل والسياسة ، وفي هذا ما يدل على ان البرنس كان على خطأ في اعتقاده بانه حائز علي ثقة القيصر . غير ان ارتياح اسكندر الثالث الى ابعاده لا ينمي على كل حال تقديره العظيم لحنكته السياسية

وعلى أي حال فان القيصر أوفى بوعده حتى آخر لحظة من حياته . غير ان وفاءه لم يغير شيئاً كبيراً في سياسة روسيا العامة . ولكنه كان صادقاً لالمانيا على ان روسيا لاتهاجمها ، وكان هذا الامر مرتكزاً على صدق اسكندر الثالث وعلو اخلاصه . غير ان الحالة تغيرت لما خلفه على العرش ابنه الضعيف الارادة

وفاة الامبراطور فردريك الثالث

ولم اكن أجهل تطورات الداء الخبيث الذي أودى بحياة والدي الامبراطور فريدريك الثالث ، لان الاطباء الالمان الذين دعوا للاستشارة مع السر (مورلي ماكنزي) الطبيب الانكليزي بسطوا لي الحالة تماماً ، وكان

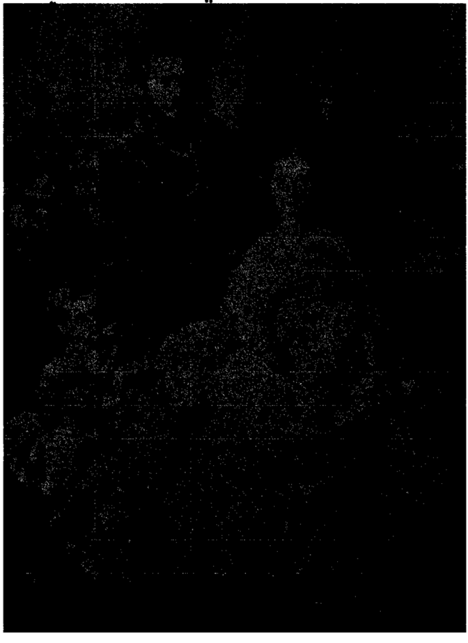
ألمي وقلقي عظيمين جداً ولا سيما لانه لم يكن في امكاني الاجتماع بوالدي العزيز على حدة لان الاطباء الانكليز كانوا محيطين به احاطتهم بأسير حقيقي



الامبراطور فردريك الثالث (والد غليوم الثاني) : ١٨٣١ - ١٨٨٨

وقد كان في طاقة مكاتبي جميع الصحف ان يقفوا على سير المرض بمجرد مرورهم في غرفة الاطباء ، اما انا فكانوا يختلقون الموانع ويقيمون العقبات لمنعي من الوصول الى والدي أو من مكاتبته ، وكانت رسائلي تصادر غالباً

ولا تسلم اليه . وفضلا عن ذلك فان رجال الدولة في عهد والدي حملوا علي بواسطة الصحف ، وافتروا علي أموراً كثيرة . وامتاز بذلك اثنان من الصحفيين أحدهما (شيندروفيتش) والثاني (جاك سن سر) في (الفيغارو). ولقد قرت عين والدي وهو في ساعة احتضاره برؤية الاستعراض الذي جرى بقيادتي وادارتي ، فقد كتب لي رسالة قبل موته يعرب لي فيها عن سروره بذلك . فكان سروره هذا نوراً في ظلمة الاحزان التي تراكمت يومئذ

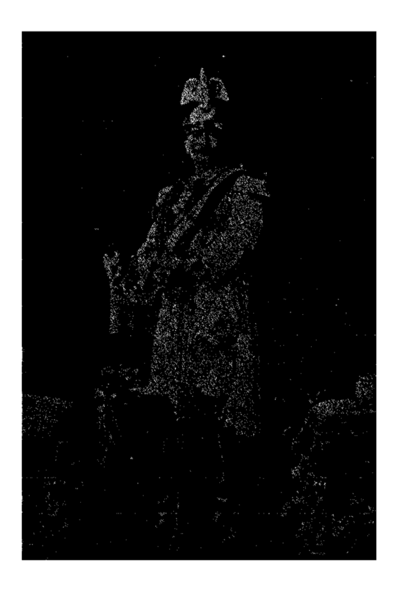


طفولة غايوم الثاني وأخيه البرنس هنري
(وهما في حجر أبويهما فردريك وفكتوريا)

في نفسي بسبب ما اعتراني من قلق وقهر وشبهات ؛ ولا سيما العداء الموجه علناً الى والدتي ، واهانتهم اياي بزعمهم أن بيني وبين والدي اختلافاً

الرجال الذين استعنت بهم

ولما أغمض الامبراطور فريدريك الثالث عينيه الى الابد وقعت أعباء الحكم الثقيلة على عاتقي وانا شاب . فاضطررت في بدء الامر الى تغيير موظفي بعض المصالح ، لان كثيرين كانوا من الشيوخ في حاشية الامبراطور العسكرية وبين الموظفين أنفسهم . فان الحاشية العسكرية التي كانت للامبراطور غليوم الاكبر ابقاها الامبراطور فريدريك الثالث على ما كانت عليه من غير ان



غليوم الثاني سنة تتويجه

يستفيد الجيش من رجالها ثم ضم اليها عدداً من ضباطه فيما بعد . وقد استغنيت ـ بكل لطف ـ عن الذين جاء دور احالتهم الى المعاش ، اما الباقون فقد انتظم بعضهم في الجيش العامل وابقيت الشبان منهم في خدمتي في فترة الانتقال

ثم اطلقت على « الحاشية العسكرية » اسم « هيئة أركان حرب جلالته » واخترت الجنرال فون (فيتيخ) وكيلا لرئاسة اركان حربي والجنرال فون (هانكي) قائد الفرقة الثانية من فرق المشاة في الحرس رئيساً لدائرتي العسكرية وقد كان صديقاً للامبراطور فريدريك الثالث وكان رئيساً لي حينما كنت في ألاي الفرسان الاول من الحرس الامبراطوري

وكانت لهذين الرجلين خبرة عظيمة في الشئون العسكرية ، ووقوف على المباديء الجديدة . وقد ظلا الى آخر أيامهما على اتفاق تام في الرأي مع مليكهما . وكان اخلاصهما لي اخلاصاً حقيقياً وذا مغزى

واخترت الكونت أوغست أولنبورغ مشيراً (مرشالا) أول للبلاط ، وكنت قد عرفته منذ صباي ، وكان في مثل هـذه الوظيفة في عهد والدي . وظل قائماً بالمهام التي ألقيتها على عاتقه في القصر الى أن بلغ الثانية والثمانين من العمر حيث أدركته الوفاة في شهر يوليو سنة ١٩٢١

وكان رجلا كله ظَرف وأدب ، بعيد النظر في شئون البلاط وشئون السياسة ، حر الضمير . شديد الاخلاص لملكه وللبيت المالك

ثم اخترت الهرفون (لوكانوس) بعد معاونة البرنس بسمرك ، وجعلته رئيساً للديوان السياسي ، وكنت قد أخذته من وزارة الاديان والمذاهب

أما البرنس بسمرك فقد ظلت صلاتي به حسنة وثقتي كبيرة منذ أقمت في وزارة الخارجية للتمرن على الاعمال . وكنت أحترم الوزير القادر بكل قوى نفسي الشابة ، وأفاخر باني اشتغلت تحت رئاسته ، وبأني سأواصل عملي بالاشتراك معه بعد ما صار وزيراً لي

سياستي الاولى في عهد أمبراطوريتي

وكان البرنس قد شهد آخر ساعات الامبراطور الشيخ وسمع « وصيته السياسية » لتنقل الى حفيده ، ولا سيا نصائحه بشأن العناية الخاصة التي يجب أن تكتنف صلاتنا بروسيا . لذلك رأى ان زيارة بطرسبرغ في الصيف أول عمل سياسي يجب أن أقوم به إزاء العالم ، لانه يعد تنويهاً بعلاقاتنا مع روسيا طبقا لما أراد جدي في وصيته الاخيرة . وقد أعد البرنس « تعليمات السفر » وعرضها عليّ

وصادف تنفيذ هذا المشروع بعض الصعوبات . فان الملكة فكتوريا أرسلت الي كتاباً بلهجة الحيرة ، ولكن مظاهر السلطة بادية فيه ، فقالت انها لا توافق على الزيارة التي أعددتها لبطرسبرغ ، وترى من الملائم ان انتظر مرور سنة الحداد . وان أول زياراتي بعد ذلك يجب ان تكون لها هي جدتي ، ولانكلترا التي هي وطن والدتي ، ثم يأتي دور سائر الدول بعد ذلك

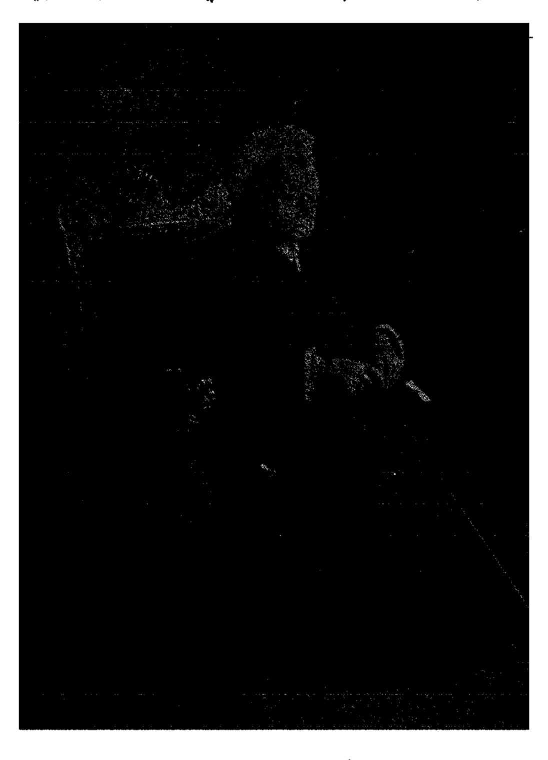
ولما أطلعت بسمرك على هذا الكتاب استشاط غضباً ، وجرت على لسانه كلمات « الخالة انكلترا » و « تدخلها الذي لا معنى له » . ثم أعلن انه يجب وضع حد لهذه الحال ، وقال « ان لهجة هذا الكتاب تعلمنا كيف كانت الحماة والزوجة تدبران ولي العهد والامبراطور فريدريك . . . الخ »

ثم أراد البرنس ان يعرض نص الرد الذي يرسل الى الملكة على بساط البحث ، فقلت له اني أعرف كيف أكتب هذا الرد وحدي ، وانه سيكون كما يجب ان يكون ، وسأذكر اني حفيد وامبراطور معاً ، وسأطلع البرنس عليه قبل ارساله

وكان هذا الرد من حيث الشكل كما يجب ان يكون لانه مرسل من حفيد الى جدة حملته على ذراعيها حينما كان طفلا ، فضلا عن ان عمرها يستحق الاحترام . ولكنه بسط بكل جلاء ووضوح حالة الامبراطور الالماني

وواجباته ، وانه ينبغي ان ينفذ ارادة جده الاخيرة بلا تردد

وأوضحت ذلك بقولي : ان هذه الارادة ذات صلة بمصلحة من مصالح المانيا الحيوية ، واني سأحترمها لخير البلاد التي استلمت زمامها بارادة الله . ولكن الملكة جدتي يمكنها ان تثق باعمالي . واني سأعرف لها جميلها في كل نصيحة تسديها لي لان التجربة قد حنكتها في مدة ملكها الطويلة . اما فيما



فكتوريا ملكة الانكليز

يتعلق بالشئون الالمانية فينبغي لي ان اطلب الحرية في اعمالي ، فسفري الى بطرسبرغ ضرورة سياسية ، وقد امرني جدي الامبراطور ان ازيد عرى الروابط العائلية وثوقا مع الاسرة الملكية في روسيا

وافق البرنس على النص الذي وضعته للرد على الملكة فكتوريا . وقد وصلني جوابها عليه بعد مدة فكان مفاجأة كبيرة لنا . لان الملكة اعطت حفيدها الحق فيما قرره ، وقالت انه يجب علي ان أفعل ما تقتضي به مصالح بلادى . ثم اعربت عن سرورها لانها ستراني قريباً الى جانبها

ومن ذلك الحين صارت علاقاتي بالملكة على أحسن ما يرام ، الى درجة ربما أخافت أولادها . وبدأت تعامل حفيدها كملك وبقاعدة المساواة

ورافقني في هذه الرحلة ـ التي كانت في بداية حكمي ـ الكونت هربرت بسمرك بصفته ممثلاً لوزارة الخارجية ، فكان ينشيء متون الخطب ، ويقوم بوظيفة الدلالة لي في المناقشات السياسية ، وفقاً للتعليمات التي تلقاها من أبيه

بسمرك وتركيا

وبعد عودتي من الاستانة سنة ١٨٨٩ اعربت للبرنس ـ بناء على طلبه ـ عما شعرت به في ابان زيارتي لليونان ، وكانت شقيقتي (صوفيا) قد اقترنت حديثاً بقسطنطين ولي العهد . ثم تكلمت معه عن الاستانة أيضاً

وقد دهشت لانه أعرب عن احتقاره الشديد لتركيا ورجالها ولكل ما له صلة بها . فحاولت ان أغير رأيه في هذا الشأن ، ونوهت ببعض العوامل الملائمة لمصلحة الترك ، ولكن ذلك لم يجد نفعاً . ولما سألته عن الاساس الذي بنى عليه رأيه قال : ان الكونت هربرت يعتقد ان تركيا لا تعد ، ولا يحسب لها حساب . ولم يعدل البرنس والكونت هربرت عواطفهما ازاء تركيا ، ولم يخدما سياستي التركية [1] مع انها كانت السياسة القديمة التي اتبعها فريدريك الاكبر

(١) أنظر الصفحة ١٠ و ١٧ و ١٨

الاحزاب السياسية

لما استلمت زمام الحكم بعد وفاة والدي كما قلت آنفاً كانت نتيجة ذلك انتقال زمام الامور من يد الرجال المعاصرين لجدي الى يد الرجال المعاصرين لحفيده . وبذلك صار الرجال المعاصرون لوالدي محرومين من أن يكون لهم دور يتولون فيه مقاليد الحكم . وكان هؤلاء الرجال متشبعين بالافكار الحرة لصلاتهم بفريدريك ولهلم ولى العهد ، ولانهم كانوا يعلقون الآمال على الاصلاحات المنتظرة في عهده . فلما توفي والدي فريدريك ولهلم حبطت آمال هؤلاء الساسة لانهم تركوا وشأنهم بنوع ما . ومع أنهم لم يعلموا شيئاً مني ، ولم يعرفوا امانيّ واغراضي ؛ فانهم أبدوا التحفظ أمامي والحذر مني ؛ عوضا من أن يعلقوا على الابن الآمال التي علقوها على أبيه لمصلحة البلاد

ولم يشذ عنهم في ذلك الا أحد ممثلي حزب الاحرار القوميين ، وهذا الرجل الممتاز الذي كان حينئذ في إبّان شبابه هو الهر (فون بندا) ، وكنت قد تعرفت به من قبل لما كنت امير بروسيا في حفلة صيد الارانب التي اقامها المستشار (دياتز) في (ياربي) . وقد اكتسب منذ ذلك الحين عطفي وثقتي عندما كنت أسمعه يتناقش مع أولئك الرجال المسنين في المسائل السياسية والزراعية والاقتصادية ؛ فقد لاحظت أنه كان أكثر استقلالاً في الرأي . ودعاني الى قصره في (بودوف) من ضواحي برلين فاجبت دعوته بسرور ، ثم جعلت هذه الزيارة عادة لي في كل عام . ولا تزال في نفسي ذكرى جميلة لهذا الوسط العائلي الذي كنت أتمتع فيه بسماع الموسيقى الجميلة بفضل ما كان لبناته من مهارة . ولما كنت أتحدث مع (فون بندا) في المسائل السياسية رأيت له نظرات بعيدة وآراء مجردة من تأثير جميع الطبقات الاجتماعية عليها . لذلك كان في امكانه ان يدبر الشئون المختلفة في الحكومة . وقد اسداني نصائح كثيرة كان يحتمل فيها الامور الحزبية بصدر واسع ،

فنفعتني هذه النصائح نفعاً جزيلاً في مقتبل أيامي ، وكانت صادرة من قلب الرجل البروسي العريق في الشرف الذي يرى اكبر همه الاخلاص لمليكه

ان كل مدة امبراطوريتي تشـهد لي بأنني لم اناويء حزب الاحرار ، ولم اكن خصماً لحزب من الاحزاب ، اللهم الاّ الاشـتراكيين المتطرّفين . وكان (ميكل) أشـهر وزراء ماليتي من الاحرار ، وأكبر وزير لي في وزارة التجارة (مولر) من الاحرار أيضاً . وان فون (بينيكس) رئيس حزب الاحرار نفسه تولى رئاسة وزارة (هانوفرا) . وفي الشطر الاخير من مدة حكمي تعرفت بواسطة فون ميكل بنائب من قدماء الاحرار أعني فون (سيذل) صاحب الاملاك في الشرق ، فقد صارت لي به صلات متينة ، وقد عمل مع فون ميكل في شـئون السكك الحديد والاقنية . وهو رجل متوقد الذكاء وعلى جانب من الحس السليم ، وله مكانة علية . وانه من أشد انصار الحرية وان كان مظهره يوهم أنه رجعي

وكانت صلاتي بحزب المحافظين واحتكاكي به عظيمين ، وكان هؤلاء الأشراف المزارعون يقابلونني مراراً امّا في حفلات الصيد التي كان يقيمها البلاط ، أو في غـيرها ، أو في البلاط عينه حيث كانت لهم بعض الوظائف . وكنت اقف بواسطتهم على جميع الشئون التي تهم الزراعة بالتفصـيل ، وقد عرفت العوامل التي تؤثر في الفلاح ، والامور التي يشكو منها

أما جماعة الافـكار الحرة فيما يتعلق بالعقائد الدينية فقد ظلوا ثابتين في خطة المعارضة ، ولم تكن لهم بي صلة قط ، لما كان عليه قادتهم من شدة وصلابة

وكان الحزب الذي أحدثه جماعة (كولتوركامبف) ـ وهو الخصم القوي اللدود للبروتستانيين ـ غير ظاهر بمظهر التعضيد للامبراطورية ، ومع ذلك فقد كانت لي صلات متواصلة بكثيرين من كبار رجاله ، حتى اني تمكنت من اقناعهم بالتعاون الفعلي لمصلحة المجموع . وكان الهر شورلمر (الاب) خير عون لي في هذه المهمة ، فانه لم يخف يوماً ما عواطف اخلاصه لعرش بروسيا .

وقد انضم نجله وزير الزراعة الى حزب المحافظين

اما حزب الوسط ـ الذي كان له في شخص زعيمه القديم (وند هورست) أقوى دماغ سياسي في البرلمان ـ فقد كان مؤيداً لكثير من المشروعات . ولكن لم يكن من الممكن ـ رغم كل هذا النشاط ـ ان لا نعترف بوجوب المحافظة على مصالح كثيرة من مصالح الكنيسة الرومانية

وعند ما كنت الامير وهلم ، أُرسلت الى الرئيس الاول فون (اهنباخ) ـ من مقاطعة براندبورغ ـ لا تمرن عنده على الادارة الداخلية والشئون الاقتصادية ، وكان اهتمامي عظيما فيما بعد بكل الاصلاحات التي يجب ان تتم في جميع المصالح ، من حفر الاقنية وانشاء الطرق وادارة الغابات واصلاح وسائل النقل والعناية بصحة السكان واستخدام الآلات في الزراعة والرقي الذي يتطلب منها من هذه الوجهة . وقد عنيت عناية خاصة بحفر الاقنية وانشاء السكك الحديدية في المقاطعات الشرقية حيث كانت مهملة تماماً

سلطة بسمرك

ولما ارتقيت العرش بحثت في هذه المسألة مع الوزراء ؛ وكنت متفقاً معهم على تنشيط جميع الهمم في دوائرهم المختلفة . ولكن هذا البرنامج اتضحت لي استحالة تنفيذه مادام البرنس بسمرك في منصب الحكم ؛ لأنه كان يريد ان تكون الكلمة العليا له في جميع الاحوال ؛ وكان يقضي بذلك على كل روح استقلالية في مساعديه . فأدركت من ذلك أن الوزراء الذين كانوا تحت سلطة بسمرك لم يفهموا شيئاً من « افكار » العاهل « الفتى » و « البدع » التي يأتيهم بها . وعلى هذا فان الوزارات كانت آلات يديرها بسمرك ، وكان ذلك أمراً طبيعياً لسابقة رئيسهم في خدمة الوطن والاحسان الى ألمانيا وامتيازه بالمقدرة والدهاء ؛ فلا غرو اذا كانت له عليهم هذه السلطة . ولكن هذه الحال كانت تؤدّي بي من مشكلة الى مشكلة ، فكلما اقترحت

اقتراحاً كان جوابهم لي « ان البرنس لم يرض بذلك ، ولا يمكن الحصول على موافقته » أو يقولون « ان الامبراطور غليوم الاول لم يطلب مثـل هذا الطلب ، وهو مخالف لتقاليدنا . . الخ . . الخ » . وحسبي أن أورد مثالاً واحداً لمـا كانت عليه سيرة الوزراء معي مدة بسمرك : فقد كنا نفكر في تجديد قانون كان البرنس بسمرك استصدره لسحق الاشتراكيين ؛ فرأيت ان نخفف أحكام بعض المواد ، ورفض بسمرك قبول هـذا التعديل ، فاشتدت المناقشة في ذلك ؛ وأخيراً عقدت المجلس الامبراطوري الاعلى ، فوقف بسمرك في ممشى القصر وقال لاحد الياورين التابعين لي « لقد نسي الامبراطور انني ذو سلطة واسـعة ومطلقة واني في الوقت نفسه أحمل سيفاً فاذا حاول الاشتراكيون احداث ثورة فاني أخمدها بقوة الجيش » . ثم قال : « ينبغي للامبراطور أن يدعني حراً ، وأن يكون هو في راحة . وأصر بسمرك في المجلس الامبراطوري الاعلى على رأيه ؛ فأخذت رأي الوزراء واحداً بعد واحد ؛ فـكانوا يبدون آراءهم بغير اكتراث ، ثم جمعنا الاصوات فـكانت أصوات جميع الوزراء ضدي . وان مسألة جمع الاصوات قد برهنت لي مرة أخرى على ما لرئيس الوزراء من السلطة المطلقة على الوزراء . فاني لما ذكرت هذا الامر للهر (لوكانوس) الذي كان مثلي في دهشة وحيرة بادر لوكانوس الى الاجتماع ببعض الوزراء وفاوضهم في هذا الامر فصرحوا له بأنهم « ليسوا في المركز الذي يخولهم معارضة بسمرك » وان تكليفهم بابداء رأي مخالف لرأيه ليس من الامور الممكنة

اعتصاب المعدّنين

فوجئت الادارة الملـكية في ربيع سنة ١٨٨٩ بالاعتصاب الـكبير الذي أعلنه المعدّنون في وستفاليا ، فاضاع موظفو الحـكومة المحلية رشدهم ، ولم يدروا ماذا يفعلون ؛ ثم طلبوا مساعدة الجيش . وقد طلب كل صاحب منجم

قوة من الجند تقيم امام بابه اذا امكن ذلك . وبسط لي قواد الجيش الذين ارسلوا الى محل الحادثة الحالة كما رأوها . وكان بين هؤلاء الضباط احد رفقائي القدماء في ألاي (الهوسار) في الحرس الامبراطوري وهو (فون ميخائيليس) الذي اشتهر ببعد نظره ، فقد امتطى جواده ومر وحده من غير سلاح بين جماهير العمال الذين كانوا يستريحون في حر ذلك الفصل الشديد خارج المناجم فاكتسب بظرفه ثقة هؤلاء الناس ، وتوطدت العلاقات الودية بينه وبينهم . ثم بدأ يطرح عليهم الاسئلة ، وتمكن بذلك من الحصول على معلومات مفيدة جداً . فان العمال شرحوا له الاسباب التي دعتهم ـ خطأ أم صواباً ـ الى الاعتقاد بانهم مغدورون وأوضحوا له مشروعاتهم وآمالهم في المستقبل . وأدى ذلك الى اكتسابه ثقة جميع العمال وصداقتهم ، وقد عرف كيف يعاملهم حتى أعاد النظام التام الى نصابه في المنطقة التي عهد اليه بحفظ الامن فيها

وكنت أتلقى التلغرافات المشربة بروح القلق والتهيج من كبار رجال الصناعة والموظفين ـ الذين كانوا يرسلون شكواهم الى المستشار ايضاً ـ فطلبت من ميخائيليس ان يعلمني رأيه في الحالة ، فكان رده التلغرافي عليّ كما يأتي :
« كل شيء هاديء الا الموظفون »

واثبتت الاخبار والتقارير التي وردت في ربيع تلك السنة وصيفها ان حالة الصناعة لا تسير الى التحسن ، وان بين مطاليب العمال مطاليب عادلة كان يجب على الموظفين واصحاب المعامل فحصها بدقة وعناية

وأيدني في هذه النظرية الدكتور (هنز بتر) المستشار الخاص ، الذي كان استاذا لي فيما مضى ، وكان خبيراً بالشئون الاجتماعية ولاسيما شئون مقاطعته ، فنضجت حينئذ في نفسي الرغبة في دعوة مجلس شورى الدولة الى الاجتماع برياستي للبحث في الاساس الذي يجب أن تبنى عليه المفاوضات بين العمال واصحاب الاعمال ودرس مسألة العمل وتمحيصها توصلا الى وضع المبادىء التي تمكن الحكومة من النظر في مشروع القوانين اللازمة للبلاد

وبدأتُ حينئذ بمفاوضة الهر فون بوتيشر Botticher وأطلعته على رغبتي فقال لي في الحال « ان وزير الامبراطورية يعارض في هذه الخطة » ونصح لي بان لا أفعل اكثر مما فعلت . ولكني بقيت مصراً على رأيي في هذا الشأن ، وكان ذلك منطبقاً على مبدأ فردريك الاكبر ، او ليس هو القائل : « أريد أن أكون ملك الصعاليك والفقراء » ؟ وكان من واجبي ان اعنى بأبناء بلادي الذين يعملون لمصلحة الصناعة ، وان أصون قواتهم ، وأحسن طريقة معيشتهم

معارضة بسمرك

ولم يبطيء المستشار كثيراً في اظهار معارضته ، وتعبت كثيراً الى أن تمكنت من تنفيذ مشروعي ، لان كثيرين من ارباب الصناعة اتحدوا لشد أزر المستشار . ولما عقد مجلس شورى الدولة برياستي دخل البرنس فجأة والمجلس في جلسته الافتتاحية ، ولم يكن حضوره منتظراً ، وألقى خطبة ضمنها شيئاً من



بسمرك في آخر حياته

الهزء وانتقد فيها كل ماعملته ، ثم قال أنه لايوافق على المشروع ولايؤيده . وخرج من الجلسة

وكان لهذا السلوك الغريب وقع شديد في المجلس ، ولا سيما بعد خروج المستشار . فان الفظاظة وقلة الاحترام اللتين قابل بهما المستشار الكبير اعمالي ومساعيَّ بغية الدفاع عن خطته الخاصة واعتقاداً منه بان الصواب كله في آرائه قد اثرتا فيَّ وفي جميع الحاضرين تأثيراً عظيما واحدثتا جرحاً بليغاً في نفسي

واستأنف المجلس اعماله بعد ذلك . فأعد المعدات الثمينة التي ساعدت على سن الشرائع الاجتماعية ، تلك التي تمناها الامبراطور ولهلم الاكبر في حياته ، والتي هي عنوان مجد المانيا وفخرها ، لانها تكفل مصالح العمال باسلوب لامثيل له في سائر ممالك العالم

المؤتمر الاجتماعى العام

ثم قر قراري على عقد مؤتمر اجتماعي عام . وقد عارضني البرنس بسمرك في ذلك ايضاً . ورأت سويسرا مثل هـذا الرأي فعزمت على عقد مؤتمر في برن . ولما كان الهر روت Roth سفير سويسرا في برلين واقفا على مشروعي، اشار على حكومته بان لاترسل الدعوة الى مؤتمر برن لكي يتيسر لهذا المؤتمر أن يعقد في برلين . وهكذا كان . فتمكنا بفضل الهر روت من عقد مؤتمر برلين . ولكن النتائج التي حصلنا عليها لم يستفد منها غير المانيا وجدها من وجهة الانظمة الاجتماعية

انقطاع صلتى ببسمرك

وتحاورت مع البرنس بسمرك بعد ذلك فيما يتصوره من امكان قمع مظاهرات الاشتراكيين الثورية بالسيف والمدفع ، وحاولت اقناعه بأني لا أستطيع أن أتلطخ بدماء أبناء بلادي في السنة الاولى من سنوات حكمي ، عقب دور مقدس من أدوار الامبراطورية ، وفي وقت قريب جداً من يوم

وفاة الامبراطور ويلهلم الكبير ، فلم يجدِ كل ذلك نفعاً وأصرّ بسمرك على رأيه ، وقال انه يعمل ذلك على مسئوليته ، وما عليّ الا أن أطلق يده ليعمل ما يراه . فأجبته بأن هذه الطريقة ليست مما يرضى به ضميري ، ولا مما يوافق العهد الذي عاهدت الله عليه . وفوق هذا وذاك فاني على علم بالموقف السيء الذي وصلت اليه شئون العمال ، ومقتنع تمام الاقتناع بأن حالتهم الحيوية والمعيشية لا مناص من اصلاحها

أما السبب الحقيقي الذي أدى الى قطع العلاقات بيني وبين المستشار فيجب أن نجده في هذا التناقض الشديد بين آرائنا في الشئون الاجتماعية ، أي في الوسائل التي يمكن التوسل بها لتحسين حالة العمال وزيادة رفاهتهم بفضل اشتراك الدولة في الامر . وهذا الخلاف سبب كره بسمرك لي ، ذلك الكره الذي أورثني عداءً شديداً بين معظم طبقات الامة الالمانية التي كانت مخلصة للمستشار ولاسيما بين طبقات الموظفين

سياسة بسمرك الاجتماعية العنيفة

على ان بسمرك ـ وهذا ما يجب ان أقوله ـ لم يكن عدواً للعامل بل كان صديقاً له. فبسمرك رجل السياسة العظيم كان اكبر من أن ينكر ما لمسألة العمل من الاهمية في الدولة . ولكن هذه المسألة كانت في نظره من المسائل التي تجب العناية بها من وجهة المصلحة السياسية فقط

فالدولة ينبغي لها ان تعنى بالعمال ، ولكن بالشكل والاسلوب الملائمين للحكومة . وفي حالة عنايتها بأمرهم بالوجه المذكور آنفا لا يجوز التفكير في التعاون مع العمال على القيام بهذه المهمة . وكان من الواجب ان تقمع الثورات بلا شفقة وبقوة السلاح اذا اقتضت الحال . هكذا كانت سياسة بسمرك الاجتماعية . فهي سياسة النظر الى بعيد في رأي فريق من الامة ، وسياسة اليد المصفحة بالحديد في رأي الفريق الآخر

أما أنا فكنت عازماً على اكتساب حب العمال الالمان . وقد جاهدت كثيراً في سبيل ذلك لاني كنت أشعر بالواجب وبعظم التبعة التي تحملتها ازاء شعبي ، أي إزاء جميع طبقاته العاملة . فان الحق والعدل يقضيان بأن ينال العمال ما يستحقونه، ان لم يكن من أصحاب رءوس الاموال فمن الحكومة والامبراطور . وكلما شعرت بالحاجة الى الاصلاح ، ورأيت أصحاب رءوس الاموال لا يريدون انفاذه ، أتولى بنفسي أمر الدفاع عن العمال انتصاراً للحق والعدل

أنا أعرف من « التاريخ » المقدار الذي أدرك به ان حصول الامة على السعادة الكاملة انما هو وهم من الاوهام ؛ فليس في امكان أي فرد أن يجعل الامة سعيدة . وانما تكون الامة سعيدة يوم تعلن رضاها ؛ أو عند ما تسعى لان تكون راضية ، وهي مع ذلك ذات عزيمة تميز بها بين الممكن وغير الممكن ، ولا تغفل فيها عن معرفة الحقائق . ومما يؤسف له ان هذه الشروط لا تتوفر دائماً

واني لم أكن أجهل ان زعماء الاشتراكيين لم يكونوا على حق في بعض ما يشتطون في طلبه من المطاليب الواسعة . ولكن مقاومة هذه المطاليب باقتناع وحرية ضمير لاتكون الا بعد الاعتراف لهم بالمطاليب العادلة والمعقولة

قانون حماية العمال

ان هذه السياسة التي كانت ترمي الى خير العمال ألقت على عاتق أرباب الصناعة الالمانية اعباء ثقيلة غلت أيديهم في المعركة الاقتصادية التي اضطروا الى خوض غمارها في أسواق العالم ، وعرقلت مساعيهم ازاء بعض الصناعات ، ولاسيما الصناعة البلجيكية التي تمكنت من استخدام جميع القوى والمجهودات في العمال البلجيكيين رغم الاجور القليلة التي كانوا يتقاضونها . وقد استطاعت هذه الصناعة أن تفعل ما فعلته دون أن تشعر بشيء من تأنيب الضمير أو

بأقل شفقة على الشعب الذي بات بلا حماية ، وقد أنهكت قواه وساعدت على انحطاط أخلاقه

وقد جعلتُ هذه الحالة غير ممكن وقوعها في المانيا بسن القوانين اللازمة لذلك . وعهدت الى الجنرال البارون فون (بيلسنغ) بتنفيذ هذه القوانين في البلجيك خلال الحرب العظمى وذلك لخير الشعب البلجيكي ومصلحته . ولكن اصدار مثل هذا القانون أدّى في بدء الامر الى غل يد الصناعة الالمانية في معترك التزاحم العالمي ، وأساء الى كثيرين من كبار رجال الصناعة الذين يمكننا أن نجد لهم عذراً في تذمرهم اذا نظرنا الى الحالة بعيونهم . ولكن الملك يجب عليه أن يضع دائماً نصب عينيه الخير العام والمصلحة القومية ؛ لذلك واصلت السير على هذه الخطة من غير تردد ولا ارتباك

على ان العمال الذين ساروا وراء الزعماء الاشتراكيين سيراً اعمى لم يعرفوا لي جميلا ، لا على الحماية التي اكتنفتهم بها ، ولا على العناء الذي تكبدته في سبيلهم . وذلك لان رمز (هو هنزولرن) يفصل بيننا فهو يقول « كلٌ وما ملك » فيرد عليه الاشتراكيون « ملك الجميع لكل انسان »

وقد عنيت ايضاً بامر آخر وهو تحديد التزاحم في الصناعة الاوربية بوضع قانون للانتاج اساسه تحديد الوارد من البلاد الاجنبية تحديداً ينشأ عنه انقاص الانتاج وتحسين الحالة الحيوية في الطبقات العاملة

غيرة الانكليز من الانظمة الالمانية

وكانت العاطفة التي يشعر بها العمال الاجانب حين اطلاعهم على الانظمة الاجتماعية الالمانية عاطفة ذات مغزى عظيم . وقد شعرت انكلترا على أثر ضغط العمال عليها بأن من مصلحتها زيادة العناية بشئونهم . وبدأ هذا الشعور يزداد فيها قبيل الحرب بسنوات قليلة فارسلت الى المانيا لجاناً عين احداها العمال أنفسهم . فزارت هذه اللجان ــ بارشاد النواب الالمان الذين كانوا

نواباً اشتراكيين أيضاً ـ المناجم والمعامل والجمعيات الخيرية ومستشفيات شركات التأمين على الحياة وغيرها ، ورأت فيها كلها ما أدهشها

وقد قام رئيس لجنة العمال الانكليزية في المأدبة الاكرامية الاخيرة ووجه السؤال التالي الى الهر (بابل) قائلا : « بعد كل ما رأيناه وكل ما فعلته المانيا من أجل العمال الا تزالون اشتراكيين ؟ اني أطلب جواباً منك على هذا السؤال »

وهكذا اعترف الانكليز أمام رجل من أصحاب الشأن بأنهم اذا تمكنوا بعد نزاعهم الطويل مع برلمان بلادهم من الحصول على عشر ما حصل عليه العمال الالمان قبل سنوات لكانوا يعلنون رضاهم وسرورهم

وكنت أراقب زيارة هذا الوفد الانكليزي باهتمام ، وقد استغربت جهله أحوال المانيا الاجتماعية . واستغربت أكثر من ذلك الاسئلة التي طرحتها علينا الحكومة الانكليزية في هذا الشأن بواسطة سفيرها ، لانها كانت تدل على الجهل المطبق للتطورات التي نشأت عن الاصلاحات الاجتماعية في المانيا . وقد سألت السفير عن ذلك ثم قلت له ان انكلترا كانت ممثلة في المؤتمر الاجتماعي الذي عقد في برلين سنة ١٨٩٠ . وبديهي انها وقفت ولو بواسطة سفيرها على المناقشات المهمة التي دارت في الرخستاغ حول القوانين الاجتماعية . فرد عليّ السفير قائلا انه خطر له ما خطر لي وانه أمر بالبحث بين اوراق السفارة

وقد ثبت حينئذ ان السفير كان يرسل الى لندن تقارير مسهبة جداً وانه أوقف حكومته بدقة تامة على كل تطور مهم في سير الاصلاحات الاجتماعية

قال السفير الانكليزي : « ولكن بما أن هذه التقارير واردة من المانيا لم يكن يقرأها أحد . بل كانت توضع فوق الرف حيث لا تزال الى الآن . فهذا مما يبعث على الخجل الشديد لانه ليس في بلادنا من يهتم بالمانيا »

هكذا تكلم هذا الانكليزي وهو يهز رأسه ، وهكذا لم يكن للملك ولا للبرلمان ضمير ولا وقت ولا رغبة في الوقوف على رقي طبقات العمال . لانهم

كانوا يرون ان (سياسة الخنق) التي ترمي الى خراب المانيا ولاسيما صناعتها أي خراب الطبقات العاملة فيها هي أهم شأناً وأعظم فائدة . وفي ٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ اشترك زعماء الاشتراكيين المتطرفين من الالمان ، وجميع الذين ساروا وراءهم ، بهذا العمل الذي قامت به انكلترا للقضاء على كيان المانيا (١)

ولقد عملت بمنتهى جهدي لتنفيذ هذه المباديء الاجتماعية في كل منطقة أرى لي سلطة فيها ، فعملت بذلك في البلاط ، وفي فروع نادي السيارات الامبراطوري . وطلبت أن يؤسس صندوق خاص بخدام القصر توضع فيه النقود التي يدفعها الزائرون منحة لهؤلاء الخدام ، وقد تراكم من هذه المنحات الصغيرة مبلغ كبير استطاع هؤلاء الخدام أن ينفقوا منه على الذهاب هم وعائلاتهم الى الحمامات المعدنية ، وأن يدفعوا منه النفقات التي تطرأ عليهم عند وقوع الامراض وحوادث الوفاة وعند تزويج اولادهم

ولما تأسس نادي السيارات الامبراطوري وطلب مؤسسوه أن يكون تحت رعايتي حضرت مأدبة الغداء التي أقامها (اينه) في القاعة الفخمة من فندقه ، وكان فيمن دعي اليها دوك (راتيبور) و (دوجست) وأهل الطبقة العالية من النبلاء وبعض متمولي برلين وأصحاب المعامل فيها ممن يحبون أن يظهروا بمظهر النبلاء . ودار الحديث حول سائقي السيارات ، فاقترحت تخصيص مبلغ من المال لاستثماره باسم سائقي السيارات والانفاق من ريعه على معالجتهم اذا أصيبوا ببعض مصائب القدر ، أو للانفاق على ذويهم اذا فقدوا حياتهم . فوافق الجميع بالاجماع على اقتراحي ، ووضعوا مبلغاً لهذا المشروع جاء بعد ذلك بخير النتائج . وفعلت مثل ذلك في نادي السفن الامبراطوري في (كيل)

وان (ملجأ القيصر ويلهلم لرعاية الاطفال) الموجود في (ألبك) قد سرني سروراً عظيما لايوائه في زمن السلم عدداً من الاطفال الذين يأتون اليه

(١) يشير الى حادثة خلعه واعلان الجمهورية الالمانية

من الاحياء الفقيرة في برلين . وان هـذا الملجأ ـ الذي تديره سيدة فاضلة كالآنسة (كيرشنر) بنت رئيس بلدية برلين السابق ـ لا يزال مثابراً على عمله الذي حصلنا منه على نتائج مادية ومعنوية عظيمة الفائدة . ولا غرو فان الذين اضناهم الفقر من أطفال العاصمة البائسين الضعيفين قد اكتسبوا في هذا الملجأ صحة وقوة ، وكنت أهتم اهتماماً شخصياً باسعاد هؤلاء الاطفال بقدر ما يسمح لي الوقت والحال

مساعدة البحرية التجارية

بما اني تكلمت عن خلافي مع بسمرك على مسألة العمال أريد ان اذكر علاوة على ما قلته عن مباديء المستشار وخطته في هـذه المسألة مثالا يثبت كيف استطاع البرنس ان ينهج خطة بديعة برهن بها على مكارم أخلاقه في احوال كانت طبقة العمال فيها عرضـة للخطر . نعم انه رضخ بذلك لاسباب قومية ولـكنه أدرك في الحال وبلا تردد ان الواجب يقضي بتدخله لحماية عدد عظيم من العمال العاطلين ؛ ولذلك تناول المسألة بيـده اليمنى وبكل ما له من السلطة . وكنت في ذلك الحين ـ سنة ١٨٨٦ ـ ولياً للعهد ؛ وقد علمت ان معامل « فولـكان » البحرية الـكبرى في (ستيتين) اوشكت ان تعلن افلاسها لعدم ورود الطلبات عليهـا ؛ واذا وقع ذلك بات ألوف من العمال بلا قوت ، وأصيبت مدينة ستيتين عينها بنكبة عظيمة

ولم يكن في الامكان انقاذ هذه المعامل من الافلاس الا اذا اوصاها أحد بطلبية كبيرة . وكان الاميرال فون (ستاخ) قد أوصى هذه المعامل بانشاء سفينة ، فباشرت شركة « فولـكان » العمل بشجاعة ، رغبة في تحريرنا من أسر المعامل البريطانية ، وانشأت المدرعة الالمانية الاولى التي احتفل بانزالها الى البحر سنة ١٨٧٤ امام والدتي في يوم عيد مولدها . وشهدت هذه الحفلة أنا أيضاً . وكانت البوارج التي تخرج من معامل فولـكان ترضي وزارة البحرية

ولـكن هذه الوزارة لم تنشيء البواخر الا نادراً

اما الاسطول التجاري فلم يجرأ على الاقتداء بالعمل الجريء الذي أقدم عليه الاميرال فون (ستاخ) ، لذلك كانت المعامل الالمانية التي لاتنقصها الا الجرأة والشجاعة عرضة للخراب على الدوام . وقد رفضت شركة « برومر لويد » الطلب الذي قدم لها لانشاء باخرة جديدة ؛ بحجة ان الانكليز أقدر بكثير على القيام بهذه المهمة لتجاربهم الطويلة

وكان الخطر عظيما ، فأسرعتُ الى زيارة البرنس بسمرك وبسطت له الحالة ، فاستشاط غضباً وأرغى وأزبد ، ثم ضرب المائدة بيده وقال : « وهل قفف البهار هذه تفضل صنع أحذيتها في انكلترا على صنعها في بلادنا ؟ انه لأمر غريب جداً ان ندع المعامل الألمانية تسير الى الخراب . فالى جهنم كل هؤلاء التجار »

ثم استدعى الخادم وقال له « أريد في الحال أن أرى المستشار الخاص لوزارة الخارجية » . وبعد بضع دقائق قضاها البرنس وهو يسير في القاعة ذهاباً واياباً دخل الموظف المطلوب فقال له البرنس : « سترسل البرقية التالية الى مندوبنا في همبورغ » وكانت البرقية مؤلفة من هذه الالفاظ الموجزة : « يجب أن تنشيء شركة برومر لويد باخرتها الجديدة في معامل فولكان في ستيتين »

وتوارى المستشار الخاص حينئذ بمثل السرعة التي ظهر فيها . وخرج من الباب وذيوله ترتجف

ووجه البرنس خطابه الي فقال : « اشكرك شكراً عظيماً لانك خدمت البلاد وخدمتني خدمة جلى . فمن الآن وصاعداً لا ينشيء أحد من الالمان شيئاً في الخارج . وسأعرف كيف افهم هؤلاء الناس مرامي . ويمكنك ان تبرق الى شركة فولكان بأن المستشار يكفل هذه (الطلبية) ، وارجو أن يكون ذلك مقدمة لاعمال عظيمة ؛ فعلى العمال الذين أنقذتهم من خطر البطالة أن يشكروك »

وقد أرسلت ذلك بالتلغراف الى الهر (شلوتو) المستشار الخاص في (ستيتين) حيث كان السرور عظيما جداً . وهكذا كانت المقدمات التي أدّت الى انشاء بواخرنا البديعة ذات السرعة العظيمة

وزرت (ستيتين) في شهر دسمبر سنة ١٨٨٨ – على أثر ارتقائي العرش – لتعليق الاوسمة على أعلام ألايات (غريناديه) البومرانية . ثم تفقدت معامل (فولكان) بطلب الادارة ودعوتها . فاستقبلني المديرون عند مدخل المعامل وفتحت الابواب الكبيرة فدخلتها . ولكني بدلا من أن أستقبل بضوضاء العمل وأصوات المطارق استقبلت بالسكوت التام لان العمال اجتمعوا حولي بشكل نصف دائرة ورفعوا قبعاتهم . وكان أكبرهم سناً واقفاً في وسطهم وقد ابيض شعر لحيته حتى غدا كالثلج ، وحمل بيده اكليلا من الغار ، فأثر ذلك في نفسي أعظم تأثير . وهمس (شلوتو) في أذني قائلا : « هذه حفلة صغيرة أقامها العمال من تلقاء أنفسهم »

وتقدم العامل العجوز فألقى خطبة متينة حسنة المعنى أعرب فيها عن شكر العمال الذين لا ينسون اني أنقذتهم وأنقذت نساءهم وأطفالهم خاصة من الفاقة والجوع بتوسطي لدى بسمرك لانشاء الباخرة الكبيرة . وقد رجا العمال مني ان أقبل اكليل الغار عربوناً على اعترافهم بالجميل

وقد حدث ذلك سنة ١٨٨٨ . وكان العمال الالمان حينئذ يعرفون اذ العمل نعمة وبركة

آخر الفصل الاول



الفصل الثاني

كاپريڤي

كاپريڤي وزير البحرية — دعوته الى منصب المستشار — انكار معاهدة الضمانات مع روسيا — مناوأة المحافظين ومعارضة بسمرك — امتلاك هليغولاند

كاپريڤي وزير البحرية

كان الجنرال فون كاپريڤي وزيراً للبحرية لما ارتقيت العرش ، وهو آخر جنرال تقلد هذا المنصب . وكنت قد أخذتُ بيدي اليمنى انشاء الاسطول الامبراطوري الالماني في الحال وبكل همة ونشاط ، كما نظرت بعين الاهتمام الى الاصلاحات الاخرى التي تقضي بها المصلحة . ويمكنني ان أقول بهذه المناسبة انه كان علينا ان نفعل كل شيء . وقد استرشدت في عملي هذا بالدروس التي تلقيتها في انكلترا وفي بلادي أيضاً .

ولم يكن هذا ليرضي الجنرال لانه كان عنيداً مع اقتداره ، ولم يكن خالياً من الغرور . نعم انه خدم البلاد خدماً جلى فيما يتعلق بالتجنيد واصلاح سلك الضباط . وساعد على انشاء المدمرات وترقيتها ؛ ولكنه لم يعن بالانشاءات البحرية ، ولا باستبدال المعدّات القديمة ؛ وهذا مما أضر بالاسطول والمعامل البحرية التي كانت حينئذ في أول عهدها ، وكان من الواجب العناية بها

كان الجنرال (كاپريڤي) ـ بصفته جنرالاً بروسيا قديماً ـ من أصحاب الافكار التي سادت في زمانه وزمان معاصريه ، أي في أدوار سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ . فانهم كانوا مقتنعين بأن كل الامور كانت تعمل في كل الازمان بواسطة الجيش ، وأن الحال ستظل كذلك في كل الازمان الآتية . لذلك هو يرى في طلب الاعتمادات للاسطول شيئاً من الخطر لانه يعتقد بأنها

تحدث نقصاً في اعتمادات الجيش وتؤثر على سيره في سبيل التقدم والارتقاء. ولم يكن في الامكان انتزاع هذا الفكر من دماغ (كاپريڤي) رغم كونه وهماً من الاوهام . فان الاعتمادات ليست ماء يملأ في صهريج وينقل الى وزارتي الحربية والبحرية بمواسير وحنفيات حتى يكون ما يزاد في احداهما ينقص من الآخر . وسواء أعطيت اعتمادات للاسطول أم لا فان وزير الحربية لا يستطيع أن ينفق على الجيش قرشاً واحداً زائداً على الاعتمادات الممنوحة له

لقد اقتضت الحال أن نطلب الاعتمادات اللازمة لانشاء وزارة للبحرية مستقلة عن وزارة الحربية تمام الاستقلال ، ولاحداث اسطول يحمي مستعمراتنا وتجارتنا . وهذا ما حصل أخيراً

وبعد زمن قليل طلب (كاپريڤي) اقالته من منصبه الذي صار لا يروق له ، ولا سيما لاعتقاده بأن آرائي في مستقبل بحريتنا لا يمكن تحقيقها لاسباب منها عدم وجود الضباط الذين ينشأ لنا منهم في السنة ستون الى ثمانين ضابطاً فقط على ما فيهم من النقائص ، والاسطول الكبير لا يكون الا بوجود العدد الكافي من الضباط . وفضلا عن ذلك فان (كاپريڤي) قال انه رآني – اثناء تفتيشي البحرية – أكثر علماً منه بها وان ذلك مما أثر على منزلته في نظر مرءوسيه

وبناء على ذلك نحيتُ (كاپريڤي) عن البحرية ، وعهدت اليه بقيادة فيلق . وللمرة الاولى عينت لوزارة البحرية واحداً من رجالها وهو الاميرال (مونتس)

دعوة كابريفي الى منصب المستشار

ولما قدم البرنس بسمرك استعفاءه الذي لم أكن أتوقعه تعذر عليّ أن أجد من يخلفه في منصبه . فانّ خليفة هذا المستشار القدير – مهما يكن من أمره – لا بد له من ان يقبل مقدماً كل التضحيات من غير ان يتوقع ثناء أو

شكراً . لانه يحسب مغتصباً لمنصب لا يستطيع القيام بشئونه . فالانتقاد ، ثم الانتقاد ، ثم الانتقاد ؛ هذا كل ما يقدم للمستشار الجديد غذاء له في كل يوم من أيام حياته . وكان يجب عليه ان يتوقع عداء جميع أنصار البرنس ، وعداء الذين ينضمون اليهم بكثرة من معارضي الحكومة الذين لم يجرأوا في الماضي أو لم تسنح لهم الفرصة لاظهار عدائهم لبسمرك . ثم لابد من ظهور تيار شديد ضد المستشار الجديد يكون البرنس العجوز بلا ريب من العاملين فيه ، وهو ليس من أقلهم نشاطاً وسعياً

وقد نظرت الى كل ذلك بعين الاهتمام ، ثم عزمت على انتقاء المستشار الجديد من معاصري بسمرك الذين شغلوا مناصب كبيرة في خلال الحرب وتنقلوا في وظائف الحكومة تحت اشراف البرنس . لذلك اخترت كاپريڤي ، وقد وجدت من تقدمه في السن ضماناً لي على انه سيكون مستشاراً مفكراً حكيماً للامبراطور الشاب الذي ترك وأهمل

انكار معاهدة الضمانات مع روسيا (١)

وما كاد يتم ذلك حتى عرضت معاهدة الضمانات المبرمة مع روسيا على بساط البحث . فاعلن كاپريڤي انه لايستطيع ان يجدد هذه المعاهدة أكراماً

(١) معاهدة الضمانات – بين بسمرك روسيا

أعلنت شركة (راديو) البيانات التالية عن كيفية عقد معاهدة الضمانات ، وهي من أعظم المعاهدات التي ابرمها المستشار الالماني الاول وأطلق عليها اسم « سرّ بسمرك الروسي »

اولا – ان الكونت (هربرت بسمرك) وزير الخارجية بسط في حديثه مع الغراندوق (فلاديمير) الروسي « شقيق القيصر » في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٨٦ خطة والده السياسية كما يأتي قال :

قلت للغراندوق « انه أشير على المستشار من مصادر رسمية وغير رسمية

للنمسا ، لان السهم الذي صوبته هذه المعاهدة الى النمسا يحدث رد فعل مؤلم في ڤينا حيث لم يعد في الامكان اخفاؤها . وهـذا مادعا الى ترك المعاهدة . وكان رأيي حينئذ انها فقدت أهميتها الاساسية لان قاب روسيا لم يعدّ معنا . ثم جاءت مذكرة الـكونت (برشام) وزير الخارجية ومساعد البرنس بسمرك مؤيدة لهذا الرأي

-٥٭ تابع لمعاهدة الضمانات ٭٥-

بأن لا يعرب عن رغبتنا في مساعدة روسيا في مسألة المضيقين ، وأن يترك القيصر على شك من أمرنا . ولـكن المستشار لم يعمل بهذه النصائح ، بل أعلن ان ثقته بالقيصر لا يعتريهـا أقل وهن ، وانه عازم على معاملته بكل صراحة . وقد أراد ان يفاوضه مفاوضة ودّية كما فعل الى ذلك الحين ، وأن يبسط له بأجلى بيان ما يستطيع التنازل عنه لروسيا ، والمجال الذي يمكننا من العمل لتسهيل مهمتها »

ثانياً ــ وصل الـكونت (بيارشوالوف) شقيق سفير روسيا في برلين يحمل كتاباً خطيا من القيصر الى الامبراطور . واجتمع الـكونت بيار بالـكونت هربرت بسمرك (يوم ٣ يناير سنه ١٨٨٧) اجتماعاً مهما جدا أسفر عن وضع المشروع التالي وهو :

« تستطيع روسيا ان تعتمد على حياد ألمـانيا المشرب بالولاء ، اذا قضت مصالح روسـيا على القيصر بتأمين قفل المضيقين ، والاحتفاظ بمفتاح البحر الاسود

وتستطيع ألمانيا أيضاً أن تعتمد على مثل هـذا الحياد الودي من جانب روسيا في كل مشكاة تنشأ بينها وبين فرنسا

ثالثاً ــ في ١٧ فبراير سنة ١٨٨٧ أرسل بسمرك نفسه كتاباً الى الـكونت (رادوفيتز) سفير المـانيا في الاستانة تذمر فيه من الصعاب التي تعترض سير المفاوضات مع روسيا ، واورد على ذلك المثال التالي فقال : « منذ أكثر من من شهر أفهمت بطرسبرغ سراً وبالاساليب السياسـية اننا مستعدون لربط سياستنا بسياسة روسيا في جهات (الطونة) والبحر الاسود لغاية واسـعة

مناوأة المحافظين ومعارضة بسمرك

واتحد المحافظون الزراع على مناوأة كابريفي الذي كان ذنبه في نظرهم انه لا يملك شبراً من الارض . واشتد الخلاف من جهة أخرى على المعاهدات

—≪ تابع لمعاهدة الضمانات ≫—

النطاق اذا وثقنا بحياد روسيا ازاء كل اعتداء فرنسوي يقع علينا »

وقد اسفرت المفاوضات في ١٨ يونيو سنة ١٨٨٧ عن ابرام اتفاق بين الروس والالمان في برلين هذه أهم مواده :

« اذا دخل أحد الفريقين المتعاقدين في حرب مع دولة أخرى فان الفريق الثاني يبقى على الحياد المشرب بالعطف ، ويبذل جهده لحصر نطاق الحرب

ولكن هذا القول لا ينطبق على حرب تعلن ضد النمسا وفرنسا اذا نشأت هذه الحرب عن هجوم أحد الفريقين المتعاقدين على دولة من الدولتين المشار اليهما أو عليهما كلتيهما »

وهذه الفقرة الاخيرة ادمجت في المعاهدة بطلب بسمرك رغبة منه في التوفيق بين هذه المعاهدة والمعاهدة الالمانية النمسوية

ثم اضيف الى هذه المعاهدة ملحق سري جاء فيه ما يأتي :

« اذا اضطر صاحب الجلالة قيصر روسيا الى ان يقوم بنفسه بامر الدفاع عن مدخل البحر الاسود دفاعاً عن مصالح روسيا فان المانيا تتعهد بأن تنهج خطة الحياد المشرب بالعطف وان تشد أزر جلالته سياسياً وأدبياً في التدابير التي يراها لازمة للاحتفاظ بمفتاح امبراطوريته »

وكانت معاهدة الحياد قد أبرمت في سنة ١٨٨١ — وهي معاهدة الامبراطرة الثلاثة — وجددت سنة ١٨٨٤ ولكن مدتها انتهت سنة ١٨٨٧ فجاءت المعاهدة الجديدة لتجديدها . وهذا ما قاله بسمرك للامبراطور غليوم الاول عند مافاوضه في أهمية المعاهدة

وكان ينتظر من اطلاق يد روسيا في الاستانة ان ينشأ خلاف بينها وبين الدول البحرية ولا سيما انكلترا وبعدها فرنسا

التجارية . وتحرجت الازمة بعد ذلك لان البرنس بسمرك انكر مبادئه الاولى ونهض لمعارضة خلفه بكل ما أوتيه من عزم ونشاط . وهكذا بدأت مناوأة المحافظين للحكومة وللعرش . وكان البرنس البذرة التي نمت وتتجت عنها فيما بعد مسألة « بسمرك الذي أُنكرت خدماته » والمسألة الاخرى التي تناولتها الصحف غير مرة وهي مسألة « النفور من الامبراطورية ».

نخرافة « بسمرك الذي أُنكرت خدماته » كانت طول مدة حكمي روح المعارضة الدائمة لكل مشروعاتي وآرائي . وقد قامت هذه المعارضة بالخطابة والكتابة وبالمقاومة السلبية والانتقاد الخالي من التروّي . فلم يعمل شيء الا كان عرضة للتأويل والهزء والانتقاد من أوله الى آخره في جميع الصحف التي كانت تأتمر بأوامر البرنس والتي كانت اشد « بسمركية » من بسمرك نفسه

تملك جزيرة هليغولاند ومزاياها

وظهرت هذه الخطة باتم مظاهرها في ابان تملكنا لجزيرة هليغولاند . فان هذه الجزيرة القائمة على مقربة من طرق الملاحة الكبرى والمؤدية الى معاقل تجارة « هانسا » [1] كانت في يد الانكليز خطراً دائماً على (هامبورغ) و (برم) ، وقد جعلت انشاء الاساطيل أمراً مستحيلا . لذلك عزمت عزماً أكيداً على ان أردّ لالمانيا هذه الجزيرة الالمانية القديمة .

أما الوسائل التي تحمل انكلترا على ترك هذه الصخرة من الغرانيت الاحمر فقد وجدتها في المستعمرات . فان اللورد (سالسبوري) أعرب عن ارتياحه الى التنازل عن « الصخرة القاحلة » مقابل (زنجبار) و(ويتو) في افريقية الشرقية . وكنت قد علمت من الاندية التجارية ، ومن تقارير قوّاد الطرادات والمدمرات الالمانية التى كانت تتنقل في مياه المستعمرات الالمانية

(١) هانسا او «الاتحاد الهانسيتيكي » هو اتحاد المدن التجارية في الشمال الغربي من المانيا بإشراف مدينة لوبك . وقد تم هذا الاتحاد سنة ١٢٤١

الجديدة في شرقي افريقية ان ميناء (زنجبار) سيفقد اهميته كمنفذ اساسي على الشاطيء بمـا يتم من الاصلاحات في (التانغا) و (دار السلام) وغيرهما على شواطيء افريقية . فحينما تنتهي أعمال الحفر والتوسيع في هذه الموانيء وتوضع فيها الحياض اللازمة يستغنى عن ارسال البضائع الواردة من الداخل الى الشاطيء بطريق (زنجبار) ، لان اصـدارها من الموانيء الجديدة رأساً يصير ممكناً . لذلك اعتقدت بان هذه المبادلة يمكن قبولها ، ولا سيما لأنها تكفل درء أسباب الخلاف في المستعمرات بيننا وبين الانكليز وتساعد على الاتفاق معهم اتفاقا ودياً

وكان (كاپريڤي) على رأيي في هـذا الشأن . فبدأت المفاوضات ثم انتهت ، وتمكنت ذات ليلة قبـل العشاء من ان ابشر الامبراطورة وبعض الاخصاء بهذا الخبر السار : وهو ان هليغولاند عادت ألمانية . وكان من حظ الامبراطورية ان تغنم غنيمة ثمينة من غير ان تريق نقطة من الدم

وهكذا نفذ الشرط الاساسي الاول من الشروط اللازمة لانشاء الاسطول . وتحققت الآمال التي قضى سكان « هانسا » وسكان الشمال قروناً عديدة في انتظار تحقيقها ؛ وقد تم هـذا الحادث العظيم سراً ومن غير ان يشعر به أحد

على ان جزيرة هليغولاند لو اعيدت الى المـانيا في عهد البرنس بسمرك لقوبل ذلك بأعظم مظاهر الحماسـة والسرور . ولـكنها أعيدت في عهد كاپريڤي ، وهذا يكفي مبرراً للانتقاد . فان الذي استرد هليغولاند لم يكن لسوء الحظ الا هـذا المغتصب كاپريڤي الذي تجاسر على التربع في منصب المستشار . وذلك الامبراطور الشاب « المتقلب ، السريع التأثر ، الناكر الجميل» هو الذي تمكن من تنفيذ هذا العمل . ولو ان بسمرك كلف نفسه اذ يريد ذلك ، أو لو انه اراده ، لـكان استولى على « الصخرة القاحلة » من زمن بعيد . ولـكن الامر الذي لم يكن ليفعله هو التنازل للانكليز عن

المستعمرات الافريقية ذات المستقبل العظيم والدخول في المفاوضات بأسلوب خال من الحنكة والمهارة أدى الى تلاعب الانكليز بنا كتلاعب الصبية بالاكر

هذا ما كنا نسمعه من كل الجهات تقريباً . وكانت صحف البرنس بسمرك تردد صدى هذه الانتقادات غير مكترثة بعواطف « هانسا » واستيائها

والغريب في هذا الامر ان يرد الانتقاد على التنازل عن (زنجبار) و(ويتو) في صحف ذلك البرنس الذي كان يردد دائماً - لما كنت اشتغل تحت إشرافه - انه لا يعلق أهمية ما على المستعمرات ولا يعدها الا وسيلة للمساومة والمبادلة حينما تظهر مشاكل يجب تسويتها مع انكلترا . ولم ينهج خلفه في مسألة هليغولاند الا النهج الذي أشار به هو نفسه . ومع ذلك فقد اتخذت هذه المسألة حجة لانتقاده والحملة عليه بأقصى ما يمكن من الشدة

وقد رأيت الصحف الالمانية في خلال الحرب العظمى تعترف للمرة الاولى في مقالاتها بأن امتلاك هليغولاند كان نتيجة سياسة بعيدة النظر ، وتتساءل عما كان يحل بالمانيا لو لم تكن هليغولاند المانية

فللشعب الالماني والحالة هذه كل الاسباب التي تحمله على الاعتراف بجميل كابريفي ، لان الفضل في انشاء الاسطول وفي الانتصار بمعركة (سكاجرراك) فيما بعد يعود كله الى استيلائنا على هليغولاند [1] . وقد أدرك البحارة الالمانيون هذه الحقيقة منذ زمن طويل

(١) قالت جريدة (صباح) التركية تعليقاً على هذا الموضع من (مذكرات غليوم) : يذكر القراء أن (معركة سكاجرراك) أعظم معركة بحرية نشبت في الحرب العظمى ان لم تكن المعركة البحرية الوحيدة . وقد اشتبك فيها القتال بين الاسطول الالماني واسطول انكليزي بقيادة الاميرال (جليكو) ، فتمكنت العمارة الالمانية من اغراق بضع مدرعات انكليزية والانتصار على ذلك الاسطول الانكليزي قبل أن تصل اليه النجدة من العمارة البريطانية الكبرى . وقد اشترك مع الالمان في هذه المعركة عدد من البحارة العثمانيين الذين كانوا يتعلمون في الاسطول الالماني

وفي تلك الاثناء أحدث (قانون التعليم) الذي وضعه الكونت (زوليتز) مشاكل جديدة على جانب عظيم من الشدة . ولما ظهر للملأ ان هذه المشاكل ستؤدي الى استعفاء زوليتز ارتفع صوت من صفوف انصاره يقول : « اذا خرج الكونت من الحكومة فلا بد من خروج المستشار أيضا »

وهذا مادعا الى استعفاء كاپريفى ، وقد استعفى بأنفةٍ ومن غير ضوضاء . وكان قد حاول ــ باخلاص تام وبكل ما أوتيه من المواهب ــ أن يواصل السير وفقاً لتقاليد البرنس بسمرك ، ولكنه لم يلق من الاحزاب الا مساعدة ضئيلة جداً في هذه المهمة الشاقة ، بينما الجمهور والرجال الذين كان العدل يقضي عليهم بالانضمام اليه خدمة لمصالح الدولة كانوا ينتهزون كل الفرص لانتقاده والحملة عليه

ولم ينبث كاپريفي ببنت شفة دفاعاً عن نفسه ، بل قضى آخر سني حياته بشرف وصمت معتزلا الناس



الفصل الثالث

﴿ هوهنلوه ﴾

البحث مرة اخرى عن مستشار — شخصية البرنس هو هنلوه — مقابلة البرنس لوبانوف
عند عودته الى بطرسبرغ — المانيا ومحطات الفحم في الصين — خطة انكلترا في طلبنا
محطة للفحم ـ اتفاق انكلترا وفرنسا وأمريكا ـ صعوبة تربية السياسيين في المانيا
تقدم تسنغ تاو — الخطر الاصفر — مسألة سيمونزا كي — تلغرافي الى
كروغر — خرافة اتفاقنا مع الفرنسويين و الروس على انكلترا
السياسة الشرقية : رحلتي الى الاستانة وسورية
استقالة هوهنلوه

البحث مرة أخرى عن مستشار

اضطررتُ مرة أخرى الى البحث عن مستشار، وكانت هذه المهمة شاقة جداً لان المستشار الجديد سيجد نفسه في مثل الاحوال التي اكتنفت سلفه ويرى نشاطه عرضة للتجارب عينها . وقد اشتدت الرغبة في اختيار رجل من رجال السياسة متقدم في السن يستطيع أن يحرز ثقة بسمرك اكثر مما يحرزها قائد بسيط ، فضلا عن أن رجل السياسة يعرف كيف يقتدي بالبرنس وكيف يدرأ انتقاداته وحملاته جهد الطاقة

وكانت معارضة بسمرك الشديدة في تلك الاثناء قد أحدثت قلقاً واستياء لا يمكن تجاهلهما ، ولا سيما بين صفوف الموظفين الذين خدم معظمهم تحت ادارته . وقد ألحقت هذه الحالة اضراراً عظيمة في سير الحكومة وانتظام اعمالها ، كما انها اسفرت عن تعزيز معارضة البرلمان بانضمام جماعات من مؤيدي الحكومة الى خصومها . وكانت هذه المعارضة تقوى وتشتد على الدوام ،

حتى أنها أثرت فى (هولستين) نفسه في وزارة الخارجية . وهو الرجل الذي، يمثل فيها « تقاليد بسمرك وتجاربه » . وظهر هذا التأثير بمظهر الملل من العمل مع الامبراطور ، حتى ان الناس بدأوا يجاهرون بوجوب استئناف سياسة بسمرك والاستقلال بتنفيذها

شخصية البرنس هوهنلوه

وقد قررت بعد بحث دقيق وتأمل طويل أن أعهد بمهمة المستشار الى (البرنس هوهنلوه) الذي كان حاكما للالزاس واللورين . وهذا الرجل كان وزيراً لبافاريا في حرب السبعين ، وهو الذي حمل بافاريا على شد أزر بروسيا والسير معها جنباً الى جنب . وقد قدر البرنس بسمرك اخلاصه للامبراطورية حق قدره ، وأنزله من نفسه منزلة سامية من الاحترام . لذلك كنا نرجو أن يخفف البرنس وطأة معارضته أو يعدل عنها اذا كان البرنس هوهنلوه هو الذي يخلفه . وقد اخترته في النهاية مراعاة للبرنس بسمرك وللرأى العام الذي كان متسلطاً عليه

وكان البرنس هوهنلوه متقدما في السن ، يدل ظاهره على شرف نسبه ؛ وتنم حركاته على وفرة أدبه ، وقد امتاز بعقل ثاقب ؛ وبشيء من المزاح اللطيف الذي كسرت الايام حدته . وكان يعرف كيف يدرس الرجال ويصدر حكمه عليهم بكل اعتدال . وتمكنا من أن نتفاهم معاً رغم اختلاف عمرينا . ومما زاد هذا التفاهم الحسن ظهوراً أني أنا والامبراطورة كنا نعامله معاملة العم وكنا نسميه بهذا الاسم. لذلك كان الجو المحيط بنا مشربا بالثقة العائلية . وقد استطاع في المحادثات التي دارت بيننا ــ ولا سيما فيما يتعلق بتقدير قيمة الموظفين الذين يدعون الى العمل ــ أن يبدي فيهم رأياً صائباً معززاً بالملاحظات الفلسفية التي كانت تدل على عظم خبرته فى الحياة والناس ، ويجد المرء فيها كل تجارب هذا العمر الطويل ؛ وكل حنكته ونضوج آرائه

مقابلة البرنس لوبانوف

بعد عودته الى بطرسبرغ

وقع حادث في أول عهد وزارة هوهنلوه ازاح الستار عن صلاتنا بفرنسا وروسيا . ففي الساعة التي ابرمت فيها (المحالفة الروسية الفرنسوية) ابلغتني هيئة اركان الحرب وسفارة باريس معلومات أكيدة عن عزم فرنسا على اعادة قسم من جيشها المرابط في (الجزائر) وحشده في جنوب بلادها لتستخدمه حين الحاجة ضد ايطاليا أو ضد الالزاس. وقد بسطت المسألة على القيصر نقولا الثاني وأبلغته أني سأرى نفسي مضطراً الى اتخاذ التدابير الواقية : اذا لم يمنع تحرش حلفائه بي

وكان البرنس (لوبانوف) حينئذ وزيراً للخارجية في روسيا . وقد كان قبل ذلك سفيراً في ڤينا ، وامتاز بشدة ميله الى فرنسا حيث قضى صيف سنة ١٨٩٥ محفوفاً هنالك بكل مظاهر الحفاوة والاجلال

وفي خريف تلك السنة جاءني البرنس (لوبانوف) وأنا في القنص بقصر (هوبرتوستوك) وطلب مقابلتي باسم القيصر . وكان حينئذ عائداً من باريس فوصف لي روح السكينه والحكمة والهدوء التي وجدها في باريس . وحاول أن يهديء خاطري بشأن التعبئة التي تكلمت عنها آنفاً . وكانت المسألة كلها في نظره هذيان لاأساس له . وأكد لي تأكيداً قطعياً بانه « ليس ثمة مايدعوالى الخوف » . فقلت له بعد ما شكرته على بلاغه : « ان كلمة خوف لا أثر لها في قاموس الضباط الالمان . فاذا كانت فرنسا وروسيا تريدان الحرب فلا أستطيع أن أغير رأيهما »

فرفع البرنس رأسه حينئذ الى السماء وظهرت عليه دلائل الخشوع كأن نظره قد وقع على صليب وقال : « الحرب ؟ يا لها من فكرة ! من ذا الذي يفكر فيها ؟ ان ذلك يجب ان لا يكون » . فقلت له حينئذ : اني لا أفكر

في الحرب ، ولكن الذي يرقب الأمور ولو « سطحياً » يرى في الحفلات والخطب والزيارات الرسمية وغير الرسمية بين باريس وبطرسبرغ أدلة أكيدة لا يمكن تجاهلها . وقد أحدثت استياءً عظيماً في المانيا فاذا قضت الحال بالحرب رغماً مني ومن شعبي فان ثقتي بالله والجيش والأمة تجعلني اعتقد بأن ألمانيا ستتغلب على خصمين

ثم ذكرت لمحدثي كلاماً نقل الي من باريس وقد فاه به ضابط من ضباط اللجنة الروسية التي كانت حينئذ في فرنسا . وذلك ان أحد زملائه الفرنسويين سأله « هل الروس هم أيضاً على ثقة تامة بكسر الألمان ؟ » فأجابه « كلا يا عزيزي .فاننا سنقهر بلا جدال . ولكن ذلك لا يهمنا ، مادام ذلك يجعلنا نحن أيضاً حاصلين على الجمهورية بالأقل» فحدق بي البرنس في بدء الأمر من غير ان ينبث ببنت شفة ، ثم هز رأسه وقال : « آه من الحرب ! يجب أن لا تمر على الخاطر ولو في المنام »

على ان الضابط لم يعرب الا عن رأي شائع في الاندية الروسية وبين المفكرين من الروس

وقد أعلنت لي احدى الغرندوقات في ابان زيارتي لبطرسبرغ سنة ١٨٨٠ بكل صراحة ورباطة جأش — وكانت جارتي على المائدة — ما يأتي :

«إننا نعيش هنا فوق بركان دائم ، لاننا ننتظر الثورة كل يوم . فالصقالبة ليسوا مخلصين ، ولا يوجد بينهم أحد من الحزب الملكي ، بل جميعهم جمهوريون قلباً ، ولكنهم مراءون يكذبون كل يوم وفي كل حال »

ألمانيا ومحطات الفحم في الصين

امتازت وزارة البرنس (هوهنلوه) بثلاث حوادث خطيرة الشأن تتعلق بالسياسة الخارجية وهي :

الاحتفال بفتح « قنال الامبراطور غليوم » في سنة ١٨٩٥ (بين البحر

الشمالي والبلطيك) وكان قـد بديء العمل به في عهد غليوم الا كبر وقد دعيت" الى هذه الحفلة أساطيل العالم وبواخره ،

وامتلاك (تسنغ تاو) في سنة ١٨٩٧ ،

ثم تلغراف كروغر الشهير الذي أفسح مجالا واسعاً للمناقشات

كان للبرنس هوهنلوه شأن كبير في تملك (تسنغ تاو) فقد كان مقتنعاً بأن المانيا يجب أن يكون لها موانيء لتموين بواخراها بالفحم . وكنا من جهة أخرى مضطرين الى الموافقة على ما تطلبه أنديتنا التجارية بشدة من انتهاز الفرصة السانحة في بلاد الصين التي فتحت أبوابها للتجارة الدولية . لذلك وجب علينا أن ننشيء مدينة تجارية ذات محطة بحرية للفحم ، بعد الاعتراف بامتيازات السيادة الصينية ، وتسوية جميع الحقوق التي تتطلب التسوية . وقد كنا نفكر في تخويل الصين أوسع المزايا التي تمكنها من التعاون معنا . وقلنا ان المدينة التي نختارها يجب أن تستخدم قبل كل شيء للتجارة ، وان تكون التدابير العسكرية التي تتخذ فيها قاصرة على حماية رقيها التجاري فقط ، فاننا لم نكن نتوخى الفتح ، ولا ايجاد مركز صالح للأعمال الحربية

وقد فكرنا في عـدة مدن لم نجدها صالحة ، إما لفقدان مواصلاتها مع الداخلية ، أو لصعوبة تلك المواصلات ، واما لانهـا ليست ذات مستقبل من الوجهة الاقتصادية ، أو لان تعهداتهـا كثيرة ازاء الاجانب . وأخيراً وقع الاختيار على خليج (كياوتشو) على أثر تقرير الاميرال (تربيتز) الذي كان قائداً لاسطول الطرادات في الشرق الأقصى ، والآراء التي أبداها الجغرافي المحقق البارون فون (ريخت هوفن) وكان هذا البارون قد أعطى معلومات ملائمة جداً عن احتمال ترقية (تشانغ تونغ) رداً على الاسئلة التي وجهت اليه في هذا الشأن

وبدأ وزير الامبراطورية حينئذ يبحث في المشروع من وجهته السياسية .

وكان يهمنا قبل كل شيء ان لا نجعل مصالحنا تتعارض مع مصالح روسيا وان لا نغضبها • فعهدنا الى اسطولنا في الشرق الأقصى بأن يحصل على معلومات أخرى • فكان رده باعثاً على الأمل بعظم مستقبل الميناء ، فان المكان الذي ترسو فيه البواخر حسن جداً وخليج (كياوتشو) في مأمن من الجليد • وقد علم قوادنا من زملائهم الروس في الصين ان الاميرال الروسي قضى كل الشتاء في الميناء بأمر حكومته • ولكن الروس رأوا المكان قفراً والبلاد صحراء (لانهم لم يجدوا منازل لتناول الشاي ولا لغير ذلك مما يحتاجون اليه في الشتاء) فوطدوا النية على أن لا يعودوا اليه ثانية • وكان الاميرال الروسي قد أسدى حكومته النصائح الشديدة طالباً منها ان لا تفكر في الاقامة في هذا الميناء الذي لا أمل فيه ولا مكسب يرجى منه • فثبت لنا حينئذ أن روسيا لا مطمع لها في (كياوتشو)

وردت علينا هذه المعلومات الأخيرة في الساعة التي تلقى فيها سفير ألمانيا رد الكونت (موراڤياف) وزير خارجية روسيا في هذا الشأن • فان مستشار الامبراطورية عهد الى سفيرنا في (بطرسبرغ) في أن يعجم عود الروس ، فقال له الكونت (موراڤياف) ان روسيا لا يمكنها ان تدعي أقل حق في الميناء نشأ عن معاهدة مع الصين • ولكن ذلك لا يمنعها من ان تعد نفسها صاحبة الحق في احتلاله لان أساطيلها رست فيه قبل أساطيل الدول الأخرى • وكان هذا مناقضاً لما ورد في تقرير أميرال أسطولنا في الشرق الأدنى نقلا عن الاميرال الروسي عينه

واجتمعت مع الاميرال (هولمان) عند مستشار الامبراطورية للبحث في هذا الرد الذي طالعه البرنس وابتسامة الهزء على شفتيه • ثم قال لنا انه لم يجد في وزارة الخارجية متشرعاً جديراً بأن يفسر له تأكيد موراڤياف الغريب • فهل للاسطول ان يساعد على ذلك ؟

وأكد الاميرال (هولمان) استناداً الى اختباراته الواسعة في مدة

خدمته الطويلة في الخارج أنه لم يسمع على الاطلاق أقل اشارة الى الحق الذي تدعيه روسيا • فان هذا الادعاء لا يستند الى اساس • انما هو اختلاق محض ابتكره (موراڤياف)لمنع أية دولة أجنبية من ترسيخ اقدامها في تلك الجهة

ولكى تتضح لي المسألة بجلاء طلبت من الهر (پيرل) مستشار البحرية الخاص الذي امتاز بسعة معلوماته في القوانين البحرية أن يبدي رأيه في هذه المسألة . ففعل مفنداً ادعاء (موراڤياف) ومؤيداً آراء (هولمان) بأدلة تثبت ان « حق السبق في رسو البواخر » من الخرافات

ومرت الأشهر وتوالت الأيام الى أن كان موعد زيارة (پترهوف) في أغسطس سنة ١٨٩٧ فاتفقت مع البرنس عمي على ان أفاوض القيصر شخصياً في المسألة بكل صراحة ووضوح رغبة في تفسير مذكرة (موراڤياف) اذا أمكن واجتناب كل مغالطة وكل تأويل

ودار البحث حول هذه المسألة في (پترهوف) فأعلن القيصر ان البلاد الواقعة جنوبي خط (نيان — تسين — بكين) لا تهمه . وانه لا يرغب في أن يقيم العقبات في سبيلنا بشأن (تشاو تونغ) وأنه ـ منذ أقام له الانكليز العراقيل في (موكبو) — حصر كل اهتمامه في جهات (پالو) و(پور ارثور) وغيرها . على انه أعرب عن سروره بأن يرى المانيا في المستقبل وراء خليج (تشيلي) وقال أن مجاورتها تسر روسيا وتفرحها

ثم فاوضت (موراڤياف) فاستنجد بكل حيله ومناوراته في ابان المفاوضة، وأدلى بكل حججه الى ان أخرج أخيراً من حقيبته « حق سبق البواخر الى الرسو » • وكنت أنتظر هذه الساعة لا شرع بالهجوم ، وحملت عليه بكل مافي أدلة (پيرل) من قوة الاقناع • ثم أخبرته في النهاية بنتيجة ما جرى بيني وبين القيصر — وكان جلالته قد أشار بذلك — فتلعثم الوزير ، وفقد الثقة التي كان يتظاهر بها في كلامه ثم القى سلاحه

وكانت السبل ممهدة على هذا الاسلوب من الوجهة السياسية . فلما وصل .

كتاب من أسقف (ازار) في الخريف ينبيء بمقتل اثنين من المبشرين الالمان في (تشانغ تونغ) قام الكاثوليك الالمان حينئذ ولا سيما دعاة الاستعمار من حزب الوسط وطلبوا اتخاذ أشد التدابير الفعالة • وقد اقترح المستشار أن أتدخل في أقرب آن ، فبدأنا نبحث في الخطة التي يجب اتباعها ، وكنا في برج صغير من ابراج قصر (لتزلنغن) حيث كنت في الصيد • وعرض عليّ البرنس حينئذ تعيين البرنس (هنري) البروسي الذي كان معنا في (ازلنغن) قائداً للاسطول المنوي ارساله لتعزيز أسطول الشرق الاقصى • وقد أبلغت المسألة الى شقيقى على مسمع المستشار ، فسر سموّه وجميع الحاضرين سروراً عظيما . وأصدر المستشار الامر بذلك الى وزارة الخارجية والى الهر (فون بيلوف) وزيرها الجديد الذى كان متغيباً في تلك الاثناء

خطة انكلترا فى طلبنا محطة الفحم

احتللنا (كيا وتشاو) في نوفمبر سنة ١٨٩٧ • وسافر البرنس هنري في ديسمبر من السنة عينها على ظهر البارجة (دتشنلد) قاصداً الشرق الاقصى على رأس أسطوله • ثم عين قائداً للاساطيل الالمانية كلها في الشرق الاقصى بعد وصوله بأيام قليلة • وفي ٦ مارس سنة ١٨٩٨ وقع صك ايجار (كياوتشو) مع الصين • وكان المستر (تشمبرلن) في تلك الاثناء يقترح على البارون (كاتو) سفير اليابان في لندن ابرام محالفة بين الانكليز واليابان غايتها توقيف توغل الروس في الشرق الاقصى

ورب قائل يقول : لماذا لم يرد ذكر انكلترا في كل هذه المساعي الجريئة التي تهمها ؟ ذلك لأن مقدمات هذه المسألة كانت قد سويت مع انكلترا • فاني لما رأيت محطات الفحم الالمانية قليلة جداً فكرت في انشاء محطات جديدة أو في شرائها أو استئجارها بالاتفاق مع الانكليز . وتوهمت أن المفاوضات تكون سهلة لأن عمي المستشار هو نسيب الملكة (فكتوريا) لكونه من آل

هوهنلوه ولأنها تعرفه شخصياً وتحبه حباً جا . ولكن سرعان ماخاب ظني -
فالمفاوضات استغرقت زمنا طويلا ولم يكن البت في نتيجتها ممكناً

وقد سألني المستشار حينئذ أن أبحث مع سفير انكلترا في هذا الشأن ،
فشكوت له أعمال حكومته ، وقلت اننا لانجد منها الا معارضة حتى في أشد
مطالبنا انطباقا على الحق . فقال السفير ببراعة أني محق في قولي ، واعرب عن
دهشته من قصر نظر انكلترا وقلة اندفاعها . وقال ان الشعب الالماني الشاب
المقدام الذي لا يمكن خنقه قد وجه انظاره الى انكلترا للاتفاق معها على ما
يرغب في ضمه الى بلاده بدلا من أن يفعل ذلك منفرداً أو بالاتفاق مع الدول
الاخرى . وهذا أكثر مما تستطيع انكلترا ان تطلبه . وزاد السفير على
ذلك ان انكلترا تملك الآن العالم كله ومن الممكن ايجاد مكان تستطيع المانيا
أن تجعله محطة لها . ثم قال انه لايفهم مقاصد هؤلاء السادة المتربعين في شارع
« دوونغ ستريت » لأن المانيا اذا لم تنل ما تطلبه بموافقة انكلترا فلا
يبعد أن تناله من غير موفقتها . ولا يوجد حق يجوز التمسك به لمنعها من
ان تنهج هذه الخطة

فأجبته عليه قائلا : ان هذا هو رأيي . وأجملت له الموقف في النهاية كما
يأتي: ان المانيا هي الدولة الوحيدة التي لاتملك محطات للفحم رغم كثرة
مستعمراتها ، واتساع نطاق تجارتها . ونحن نفضل ان نحصل على هذه المحطات
بالاتفاق مع انكلترا ولكنها اذا رفضت أن تفهم موقفنا ولم ترد معاملتنا
بالحسنى فاننا نجبر على الالتفات الى دولة اخرى من الدول العظمى لكي ننشيء
محطاتنا بمعرفتها ومساعدتها

على أن هذا الحديث لم يؤثر في المسألة أقل تأثير ، فقد قطعت انكلترا
المفاوضات بغلظة من غير أن تسفر عن نتيجة ، وذلك مما حملنا انا والمستشار
على توجيه انظارنا الى روسيا

ودهشت انكلترا من احتلالنا (كياوتشو) ونفرت منه . وكانت قد

حسبت اننا لانلقى مساعدة من أحد اذا هي رفضت مساعدتنا ، ولكنها لما رأت مالم يكن في حسبانها عمدت الى التذمر والشكوى . واراد سفيرها ان ينقل لي شكواها فذكرته بالحديث الذي دار بيننا ، وقلت له اذا كانت انكلترا لم تتمكن من الاتفاق معنا فاللوم واقع عليها وحدها

الاتفاقية الانكليزية الفرنسوية الامريكية

سنة ١٨٩٧

كانت خطة انكلترا البعيدة عن المسالمة واللين سبباً فى دهشنا واستغرابنا ولكن الحوادث التي لم أكن اعرفها من قبل أوضحت لي اليوم خطة انكلترا. فقد نشر كتاب في (لاهي) سنة ١٩١٨ بعنوان « مشكلة اليابان » ولم يذكر اسم مؤلفه بغير العبارة التالية « احد رجال السياسة السابقين في الشرق الاقصى» وقد اشير فى هذا الكتاب الى مؤلف للاستاذ (ولاند اوشر) استاذ التاريخ في (جامعة وشنطن) في (سان لويس) وكانت وزارة الخارجية في وشنطن تستشير الاستاذ (اوشر) هذا كما تستشير زميله الاستاذ (جون باست مور) من (جامعة كولومبيا) في (نيويورك) فى جميع الشئون السياسية الخارجية لانه من أكثر رجال امريكا وقوفا على كنه المشاكل الدولية التي تهم الولايات المتحدة

فالكتاب الذى نشره الاستاذ (اوشر) سنة ١٩١٣ أشار لأول مرة الى وجود معاهدة سرية أبرمت بين انكلترا وأوربا وفرنسا في ربيع سنة ١٨٩٧ وقضت باشتراك امريكا مع انكلترا وفرنسا ومساعدتهما بكل قواها فى كل حرب تعلنها المانيا أو النمسا أوكلتاهما معاً لتحقيق الفكرة الجرمانية

وأسهب الاستاذ (اوشر) في بسط الاسباب المختلفة التى تقضي بها مصلحة الاستعمار وغيرها من المصالح الامريكية وتحمل الولايات المتحدة على شد أزر انكلترا وفرنسا في حربهما مع المانيا . وقد أعلن الاستاذ منذ ١٩١٣ ان

هذه الحرب لا بد من وقوعها في القريب العاجل

وان مؤلف « مشكلة اليابان » المجهول قد كلف نفسه عناء البحث في الاتفاقات المبرمة سنة ١٨٩٧ بين انكلترا وفرنسا وأمريكا ووضعها في لائحة منظمة فاوضح بذلك العهود التي قطعتها هذه الدول على نفسها ايضاحاً تاماً. والفصل الذي ذكرت فيه هذه المعاهدات من الكتاب على أعظم جانب من الاهمية لانه يبسط الاحوال التي سبقت اعلان الحرب العظمى والتدابير التي اتخذها « الحلفاء » لاعدادها ضد المانيا قبل أن يلقبوا أنفسهم باسم « دول التحالف الودي » . وقد قال السياسي السابق الذكر بهذه المناسبة ما يأتي :

« انهم الآن ازاء معاهدة أكد الاستاذ (أوشر) انها ابرمت في سنة ١٨٩٧ ، ونصت مقدما على واجبات انكلترا وفرنسا وأمريكا ازاء الحوادث المنتظرة ، وفي جملتها احتلال المستعمرات الاسبانية ، واقامة المراقبة على المكسيك وأمريكا الوسطى ، وتقرير الباب المفتوح في الصين ، وضم محطات الفحم . ويريد الاستاذ (أوشر) أن يقنعنا الآن بأن كل هذه التدابير انما اتخذت لحماية العالم من خطر الفكرة الجرمانية »

واستطرد « السياسي السابق » الكلام فقال : « لا حاجة الى تذكير الاستاذ (أوشر) بأن الفكرة الجرمانية — التي نفرض جدلا أنها كانت موجودة — لم يسمع بها أحد في سنة ١٨٩٧ ، لان المانيا لم تكن بعد قد وضعت برنامجها البحري الواسع الذي عرف في سنة ١٨٩٨ فقط . فهل المشروعات التي عزاها الاستاذ (أوشر) الى فرنسا وانكلترا وأمريكا صحيحة ياترى ؟ وهل ابرمت هذه الدول معاهدة عزمت على تنفيذها ؟ فاذا كان الجواب بالايجاب تعذر الاعتقاد بأن ظهور الفكرة الجرمانية كان السبب الوحيد لكل هذه المشروعات ولكل التدابير التي اتخذت فيما بعد لتنفيذها »

ان هذه الامور تدعو الى الدهشة والاستغراب ، فقد فكر الغاليون والانغلوسكسونيون في إبان السلم بابرام معاهدة ترمي الى تقسيم اسبانيا

وألمانيا وغيرها . ونظموا هـذا المشروع تنظيماً دقيقاً حتى في أصغر تفاصيله من غير أن يشعروا بوخز الضمير ، مع علمهم بأن الغاية منه القضاء على ألمانيا والنمسا وعلى مزاحمتهما التجارية في اسواق العـالم . وقد وقع الغاليـون والانغلوسكسونيون هذه المعاهدة قبـل أن تعلن الحرب بسبعة عشر عاماً ، وقضوا هذه المدة في الاستعداد لها استعداداً منظما . وهـذا ما يجعلنا ندرك السهولة التي صادفها الملك ادورد السابع في تنفيذ سـياسة « الخنق » . فان الادوار المهمة كانت مدبرة بالاتفاق بين هـذه الدول من زمن بعيد . ولما أطلق على الاتفاق الثنائي اسم « التحالف الودي » في حفـلة العماد أحدث هذا المولود الجديد دهشة مقرونة بالاستياء في المـانيا ، ولكنه كان في نظر الحلفاء اعترافاً رسمياً بحالة معروفة من قديم

وهـذا الاتفاق يوضح لنا أيضاً الاسباب التي منعت انكلترا من مسايرة ألمـانيا بشأن محطات الفحم ، وغرست في نفسها الحقد على ألمـانيا بعد ما رأتها تتفق مع روسيا وتوطد أقدامها فى الصين ، تلك البلاد التي كانت الدول الثلاث قد انتهت من تقرير مصيرها من غير مساعدة المـانيا

فالاستاذ (أوشر) دلّ ـ بمـا أفشاه من المـكنونات ـ على الجهة التي يجب البحث فيها عن المسئولين الحقيقيين عن الحرب . لان المعاهدة الموجهة ضد ألمـانيا وقد اطلق عليها اسم « اتفاق الاشراف » والتي أبرمت سـنة ١٨٩٧ هي الاساس الحقيقي للحرب العظمى ، وهي المحور الذي قضت دول الحلفاء ١٧ عاماً في تحسينه ، حتى اذا ما تمكنت من الاتفاق مع روسـيا واليابان ضربت ضربتها الشديدة بعـد ما تلاعبت صربيا بجناية (سراي بوسنة) التي كانت شرارة من النار وقعت في برميل مملوء بالبارود

وتدل المعلومات التي جاء بها الاستاذ (أوشر) على خطأ الذين توهموا ان دخـول أمريكا في الحرب ناشيء عن بعض الاعمـال العسكرية التي قامت بها ألمـانيا ، كغرق الباخرة (لويزيتانيا) ، أو اعلان حرب الغواصات ، فان هذا الوهم لا نصيب له من الصحة

وقد أثبت الكتاب النفيس الذي أصدره أخيراً المستر (جون كنيت تورنر) بعنوان « هل تتكرر ثانية » أن الاسباب والاغراض التي بسطها المستر ولسن لم تكن الا وسيلة أراد التوسل بها لاعلان الحرب . وأدلى على ذلك بأدلة قاطعة لا سبيل الى انكارها . فقد كان في عزم أمريكا — أو بالاحرى الرئيس ولسن — منذ بدء الحرب ، أو منذ سنة ١٩١٥ على الاقل ، الانضمام الى الحلفاء ضدنا . وقد فعلت أمريكا ذلك بحجة الغواصات ولكن الحقيقة انها سيقت الى هذه الحرب بتأثير المتمولين الاقوياء . وتلبية لدعوة فرنسا التي أوشكت ان تستنفد كل مواردها في الرجال . ولم تكن أمريكا لترغب في ان تترك فرنسا خائرة القوى ازاء انكلترا . لان اطماع هذه الدولة في (كاله) و (دنكرك) وغيرها كانت معروفة لديها

شكواى من وزارة خارجيتنا

مسئولية بسمرك — وصعوبة تربية الساسة في ألمانيا

لقد كان من مصائب ألمانيا — وأقول هذا الآن عرضاً — أن لا تتمكن وزارة خارجيتنا من الوقوف — بما يشبه مهارة الآخرين السياسية — في وجه « سياسة الخنق » التي نهجتها انكلترا علناً . وخطة المواربة التي اتبعتها روسيا وفرنسا

وفي جملة الأسباب التي أدت الى هذا التقصير أن وزارة خارجيتنا لم تكن قد تمرنت تمرناً صحيحاً على يد البرنس (بسمرك) ، فان الروح والارادة اللتين كانتا تشرفان على جميع الأعمال قد ذهبتا بذهاب البرنس (بسمرك) وابنه الكونت (هربرت) . لذلك لم يكن في طاقة الوزارة أن تقوم بواجبها وأن تحتفظ باستقلالها في ادارة دفة السياسة الخارجية ، ولا سيما لأن تربية الساسة القادرين من الأمور الصعبة في ألمانيا ، ولأن شعبنا ينقصه الذوق ، وينقصه بعض المواهب التي لم تظهر بأتم مظاهرها الا في بعض عظماء رجالنا

أمثال فردريك الأكبر وبسمرك

لقد مضت سنوات عديدة ووزراء الدولة الألمانية يتغيرون بلا انقطاع ، وكان المستشارون يريدون أن ينهجوا نهج بسمرك فيحتفظوا بسلطتهم على وزارة الخارجية، لذلك كانوا يختارون الوزراء بانفسهم . وقد راعيتُ رغبتهم هذه ، لاني اعترفتُ للمستشار بحق انتقاء كبار مساعديه في الشئون الخارجية . ولكن التغييرات المتوالية في وزارة الخارجية لم يكن من شأنها تمكيننا من الاستمرار في سياستنا ، وهذا هو السبب الأول فيما أصابنا من الفشل

وكانت عبارة « احذروا ايجاد المشاكل بين الدول » أساساً لأعمال وزارة الخارجية ، كما كانت عبارة « دعونا من قصصكم » نصيحة وجهها أحد القواد الفرنسويين لفصيلة من الجند بلغه أنها عزمت على شق عصا الطاعة

واني لفت في أحد الأيام أنظار وزير للخارجية الى مشكلة رأيتها تدخل في شكل يبعث على القلق : فكان جوابه لي :

— كل هذه الأمور ستسوَّى في النهاية

وكان المبدأ الذي تطأطأ له جميع الرءوس في وزارة خارجيتنا « السلم قبل كل شيء »

ان فيما تقدم تفسيراً لرد سفير ألمانيا لدى أحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية على تاجر ألماني جاء يطلب منه مساعدته ووساطته اذ نُهب مخزنه وفقد كل ثروته . فقد قال له السفير :

— دعنا من كل هذه الأمور ، فقد أنشأنا الآن صلات حسنة مع الجمهورية : وربما يضر هذه الصلات الحسنة توسطي في مسألتك !

ولا حاجة بي الى القول بأني كنت استعمل الشدة بلا تردد مع كل موظف أسمع عنه أنه يمثل هذه العقلية

وكان النفور العام من وزارة خارجيتنا شديداً جداً في الأمة وفي الجيش . واني طلبت غير مرة من مستشارين مختلفين أن يعنوا باصلاح هذه الوزارة

اصلاحاً جوهرياً ، فلم يأت شيء من ذلك بفائدة ، لأن كل مستشار جديد — ولا سيما اذا لم يكن من موظفي الخارجية — يشعر بحاجته الى هذه الوزارة للوقوف على مجرى السياسة . فاذا تمّ له ذلك بعد مدة من الزمن تتغلب عليه عاطفة عرفان الجميل ، وفضلاً عن ذلك فانه يرى نفسه ـ في الوقت ذاته — رازحاً تحت أثقال العمل فلا يجرأ على القيام باصلاحات جوهرية ، أضف الى ذلك قلة اختباره في هذه الشئون ، فيخشى أن يحرم من استشارة من هم دونه من الموظفين الذين سبقت لهم التجارب

تقدم تسنغ تاو

وحسد انكلترا

أعود الآن الى (تسنغ — تاو) فقد كانت كل الوسائل اللازمة لتسهيل التجارة والصناعة قد أعدت فيها ، وقد تمّ ذلك بالاتفاق مع الصينيين الذين كانت أعلامهم تخفق فوق الجمارك ، وبلغ تقدم هذه المحطة مبلغاً عظيما حتى صارت تعدّ — في السنوات التي تقدّمت اعلان الحرب — من موانيء الصين التجارية الكبرى ، فهي تتلو (تيان تسين) في الأهمية ، ويعتبرونها الثغر السادس من الثغور الصينية

كانت مدينة (تسنغ — تاو) مركزاً تجارياً يبعث على أعظم الآمال ، وكان الصينيون يحبونها ويعجبون بها . وقد عمل معنا كثيرون منهم على ترقيتها ، حتى صارت مستودعاً لنماذج المعارف والصناعات الألمانية وكفاءة السكان ، وان الصينيين ينتقون منها ما يروق لهم فيحذون على مثاله . ولم يكونوا يعرفون شيئاً من قبل عن ألمانيا وصناعتها وصادرتها ؛ فلما ظهرت (تسنغ — تاو) رأوا الفرق العظيم بينها وبين الموانيء الروسية والانكليزية التي لم تنشأ الا لأغراض عسكرية صرفة ترمي الى التملك والفتح

وان تقدم هذه المدينة السريع قد أثار الحسد في نفوس اليابانيين

والانكليز نحونا . وكان هؤلاء يقدرون جمال شواطئها ، ولطف هوائها ، والفندق البديع الذي أنشيء على شاطئها ، فيأتون اليها بأسرهم فراراً من حر (هونغ كونغ) و (كانتون) و (شنغاي) فيقضون أوقاتهم فيها بلعب (البولو) و (التنيس)

واندفعت انكلترا بعامل الحسد ، فطلبت من اليابان سنة ١٩١٤ أن تستولي على (تسنغ - تاو) التي كانت مدينة صينية فعلاً . فلبت اليابان هذا الطلب بسرور ، بعد ما وعدت برد هذه المدينة الى الصين . ولكنها لم تبر بوعدها إلا في أوائل سنة ١٩٢٢ بعد أن أكرهت على ذلك ، لانها كانت قد تعهدت لامريكا بأن لا تقوم بأقل تعديل جغرافي في الصين الا باستشارتها . وهكذا قضى حسد انكلترا التجاري على عمل عظيم من أعمال ألمانيا التمدينية في الخارج ؛ وعلى نموذج للاساليب التي تمكن أمة ما من تلقين حضارتها لامة أخرى وجعلها تستفيد من كل مزاياها

غير أن انكلترا سوف تندم على ما صنعت ؛ متى حل بمستعمرتها (هونغ كونغ) ما حل بمستعمرتنا (تسنغ تاو) ؛ فتلوم نفسها على اهمالها المبدأ الذي طالما استفادت منه في الماضي ؛ وهو المبدأ القائل : « البيض كلهم معاضد مختلفي الألوان » ؛ وعند ما تحقق اليابان برنامجها المبني على أساس « آسيا للاسيويين » . وتبسط سلطتها على الصين والهند ، وحينئذ ترسل انكلترا انظارها باحثة عن ألمانيا وعن الأسطول الألماني

الخطر الاصفر — مخاوف نقولا الثاني

اجتمعت بالقيصر نقولا الثاني بعد الحرب الروسية اليابانية فتكلمنا عن الخطر الاصفر ؛ وكان القيصر لا يزال حينئذ تحت تأثير « النمو الياباني » والخطر الذي ينشأ عنه ويهدد روسيا وأوربا . فسألني عن رأيي في هذا

الأمر ، فقالت له :

« اذا انتظم الروس في صفوف دول أوربا المتمدنة وجب عليهم أن يستعدوا للدفاع عنها ضد الخطر الاصفر . وأن يحاربوا مع أوروبا، ولأجل اوروبا . دفاعا عن كيانهم وعن حضارتهم المشتركة . اما إذا شعر الروس انهم اسيويون فانهم يتحدون مع الخطر الاصفر ، وينقضون معه على اوربا . فعلى القيصر والحالة هذه ان ينظم طرق الدفاع عن بلاده . وان يعد جيشه للقيام بالمهمة التي يختارها له »

وسألني القيصر عن المهمة التي أظن أن الروس يختارونها . فقلت له : « انها الثانية » . فغضب القيصر لدى سماعه هذا الجواب ، وطلب مني في الحال أن أبين له الاسباب التي بنيت عليها حكمي . فقلت له : « ان رأيي هذا بنيته على ما أراه من انشاء السكك الحديد على الحدود الروسية ـ النمسوية ، وتعبية الجيوش الروسية على هذه الحدود » . فاحتج القيصر على ذلك قائلاً انه هو وأسرته من أوربا ، وأن بلاده ومن فيها من الروس سينضمون الى أوربا بلا جدال ، ويفاخرون بالدفاع عنها ، ضد الجنس الاصفر . فقلت له : « اذا كانت الحالة كذلك فمن الضروري البدء بالاستعداد العسكري في الحال » . ولكن القيصر ظلّ ساكتاً

وقد حاولتُ في كل الأحوال أن استثمر خوف القيصر نقولا الثاني من « نمو قوة اليابان » لمصلحة ألمانيا ، ومصلحة الحضارة الأوربية كلها ، على أن روسيا انحازت في الحرب العظمى الى الجانب الذي فيه اليابان وكانت أول من أصيب بكارثة الاضمحلال في تلك الحرب

ان حكماء الساسة اليابانيين — وما أكثر الحكماء في اليابان ! — يترددون في الجواب عند ما يتساءلون : هل بلادهم خاضت غمار الحرب العالمية في الجهة

الملاءمة لهم ام لا ؟ ولعلهم يقولون ان حيلولة اليابان دون وقوع الحرب العظمى كان اكثر ملاءمة لمصالحهم ، ولا ريب ان ذلك كان في استطاعتها لو وقفت في جانب دولتي اوربا الوسطى اللتين طالما استمدت منهما العلم والعرفان

لو ان اليابان اندفعت في الوقت الملائم وراء التيار السياسي الملائم ، ولو انها نهجت منهج المانيا بما تذرعت به من الوسائل السلمية للحصول على المركز التجاري اللائق بها في العالم ، لاهملت الخطر الاصفر بكل سرور ، وحييت اليابانيين – بروسيي الشرق – تحيتي لأمة مسالمة يعللها المستقبل بأبهج الآمال

ولما اشتدت الازمة سنة ١٩١٤ لم يأسف احد اكثر من اسفي لرؤية كلمة « الخطر الاصفر » محتفظة بكل معانيها ، ولكن تجاريب الحرب العظمى قد تستطيع تعديل الأمور

مسألة سيمونوزاكي

اضطرت المانيا – بحكم موقفها السياسي الاوروبي – الى اقتفاء أثر فرنسا وروسيا في (مسألة سيمونوزاكي) ؛ فانها وجدت نفسها « محشورة » بين روسيا التي كانت تهدد الحدود عسكرياً ، وفرنسا التي كانت تعزز حدودها وحصونها واستحكاماتها . وقد اتحدت الدولتان ضد المانيا ، وكانت برلين تنظر الى المستقبل بعين القلق ، لان التسليح في هاتين الدولتين كان أحسن منه عندنا ، ولان أساطيلهما احدث صنعاً واشد فتكاً » . ولم يكن لدى المانيا حينئذ الا بعض بواخر قديمة لا تكاد تصلح للظهور في معركة بحرية

لذلك رأينا من الحكمة ان نوافق على اقتراح التحالف الفرنسوي الروسي القوي ؛ رغبة منا في منع فرنسا وروسيا من الاتجاه الى انكلترا ومنع هذه الدولة من ان تنضم اليهما فتعزز مركزهما وتزيدهما قوة ومنعة . ولو كنا

المانيا صعباً ومخيفاً ، ولا سيما لأن اليابان كانت قـد بدأت تنقاد الى انكلترا مدفوعة بعوامل الصداقة

وكان في طاقة المانيا ، بعد ما نهجت سياسة مشتركة في الشرق الأدنى ، ان تفعل مثـل ذلك تقريباً في اوروبا ، بانضمامها الى التحالف الفرنسوي الروسي ، وانشاء صلات مع هاتين الجارتين تدعو الى الثقة والاطمئنان وتفريج الموقف واصلاح الحال . وقد نهجنا في هذه المسألة كلها نهجاً يرمي الى ما كنا نرمي اليه دائمـاً وهو توطيد دعائم الأمن في العالم

التلغراف الاضطراري الى كروغر

أبدى البرنس (هوهنلوه) رغم تقدمه في السن نظراً ثاقباً وسرعة خاطر يستحق الاعجاب في مسائل « كياو تشاو » من أولها الى آخرها . ولـكن أصالة رأيه التي رافقته دائمـاً قد خانتـه اسوء الحظ في الحادثة المعروفة باسم « حادثة تلغراف كروغر » ولولا ذلك لتعـذر علينا أن ندرك اصراره على ارسال هذا التلغراف . ومن المحتمل أن يكون الهرفون (مرشال) الذي كان حينئذ سكرتيرا عاماً قد أثر بما امتاز به من صدق العزيمة وقوة الحجة تأثيراً كبيراً في هذه المسألة ، ولا يبعد أيضاً أن تكون اغاني الهرفون (هولستين) قد تضمنت أنغاماً لذيذة لم يتمكن البرنس من مقاومتها

ومهما يكن الأمر فقد أساء بهذه المسألة اساءة كبيرة الى بلاده وسبب لي مشاكل كثيرة في انكلترا فضلاً عن ألمانيا . وهذا التلغراف — الذي أحدث ضوضاء كبيرة في العالم وأدى الى نتائج سياسية عظيمة الشأن — ذو أهمية كبيرة : فلا يسعني الاشارة اليه من غير أن اذكر شيئاً عن تاريخه

أحدثت اغارة (جمسون) تأثيراً عظيماً في ألمـانيا كلها . وكان هذا التأثير يزداد يوماً فيـوماً ، لأن الشعب الألمـاني صبّ نقمته وسخطه على الذين حاولوا استعبـاد أمة صغيرة هولندية — أي سكسون ألمـانية الأصل —

اكتسبت العطف العام عليها في ألمانيا بهذه القرابة الجنسية . وقد استولى عليّ القلق من جراء هذه الحالة الروحية التي تسربت الى الطبقات العليا وبت أخشى أن تؤدي الى مشاكل خطيرة الشأن مع انكلترا اذا أرادت الاستيلاء على بلاد البوير فليس من يستطيع الوقوف في وجهها . وقد كان عملها هذا في نظري عملاً فظيعاً لا يتفق مع الحق والعدل ، ومع ذلك لم يكن في امكاني الوقوف في وجه التيار العام . حتى ان الخطة التي نهجتها حينئذ قابلها رجال حاشيتي انفسهم بالانتقاد الشديد

ودخلت يوماً على عمي المستشار لمفاوضته في بعض الشئون ، فوجدت عنده الاميرال (هولمان) وزير البحرية ثم البارون (مرشال) سكرتير الوزارة الذي دخل علينا فجأة ودلائل الاضطراب على محياه وفي يده ورقة . وقد أعلن أن الهياج بلغ أشده في الامة وفي مجلس (الرخستاغ) وانه لابد من السماح لهذا الهياج بالظهور . وخير طريقة لذلك هي ارسال تلغراف الى كروغر بالمعنى المدوّن على الورقة . فقلت حينئذ «انى لا أوافق على هذا بوجه من الوجوه» وشاركني الاميرال (هولمان) في ذلك اما المستشار فلم يتدخل تدخلاً فعلياً في هذه المناقشة . وكنت أعلم أن وزارة الخارجية والبارون (مرشال) على جهل تام بحالة الشعب الانكليزي الروحية فحاولت أن اوضح للبارون (مرشال) التأثير الذي لا بد من أن يحدثه مثل هذا التلغراف في انكلترا . وايدني الاميرال (هولمان) فيما قلته ، ولكن البارون (مرشال) لم يكن من الرجال الذين يسهل اقناعهم

وتكلم المستشار حينئذ فقال انه يجب علي بصفتي ملكا دستورياً ان لا أعارض ارادة الرأى العام وآراء المستشارين الذين أقامهم الدستور الى جانبي . والا فمن المحتمل أن يخرج الشعب عن حدّه وينقلب علي ، لأن الهياج بلغ أشده في نفسه ولأنه اصيب بجروح مؤلمة فى عواطف العدل التي يشعر بها وفي عطفه على الشعب (النيرلندي) . وبدأت الاشاعات السيئة تدور على

ألسنة الناس فيقولون ان الامبراطور (نصف انكليزى) وأنه متجه الى انكلترا سراً ، وانه بكليته تحت تأثير جدته الملكة فكتوريا ، وان « الخالة » انكلترا يحسن بها أن تستريح قليلا لان الامبراطور يجب ان يتحرر من الوصاية الانكليزية . . . الخ

وكان المستشار يعترف بصحة اعتراضاتي ، ولكنه قال ان الواجب يقضي عليه بأن يطلب مني توقيع التلغراف باصرار خدمةً للمصالح السياسية العامة ولصلاتي الشخصية بشعبي . وقد تحمل هو والبارون (مرشال) ـ بصفتهما مستشارين دستوريين ـ تبعة هذا التلغراف وما يؤدي اليه من النتائج

ونشرت (التيمس) في ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٠ رسالة للسر (فالنتين تشيرول) مكاتبها في برلين جاء فيها ان البارون فون (مرشال) اخبره في ابان (حرب البوير) وعلى اثر ارسال التلغراف المشار اليه ان هذا التلغراف لايعبر عن رأي الامبراطور الشخصي فانه كان عملا من اعمال الحكومة يتحمل المستشار والبارون مرشال كل التبعات التي قد تنشأ عنه

وكان المستشار يحاول أن يقنع الأميرال (هولمان) بصحة رأيه ، وقد طلب منه أن يساعده على اقناعي بذلك ؛ ولكنه رفض قائلاً ان العالم الانغلوسكسوني لا يحجم عن أن يلقي تبعة التلغراف على عاتقي ويجعلني مسئولاً عنه . فلا يعتقد أحد من الانكليز أن هذا التحرش أتى من المستشارين الشيوخ بل يجدون كلهم فيه نزق الامبراطور الشاب وحدّته

وقد سعيت كما سعى (هولمان) أن أقنع المستشار والبارون (مرشال) بوجوب العدول عن هذه الخطة ؛ ولكنهما استمرا على القول بأن الواجب يقضي علي بتوقيع التلغراف ؛ وانهما يتحملان تبعة النتائج التى تنشأ عنه . فلم اعارضهما أكثر من ذلك ووقعت البرقية

وظل الاميرال فون (هولمان) يذكرني بتفاصيل هذه الحادثة كما ذكرتها هنا حتى أواخر أيامه . وقد وقع ما كنت انتظره ، فاحدث التلغراف

عاصفة شديدة في انكلترا ، وأمطرتني الاندية الانكليزية وابلاً من الرسائل بعضها موقع بامضاءات سيدات من الطبقة العليا لم اكن اعرفهن . وقد تضمنت كلها الانتقادات التي يستطيع القاريء أن يتصورها . ولم يحجم موقعوها عن إهانتي شخصياً . ثم جاء دور الصحافة فحملت علي حملة شديدة كلها نميمة وافتراء . واكتنفت هذا التلغراف الخرافات والاوهام التي رسخت في النفوس كأنها حجة مسجلة في المحكمة . ولو أن (مرشال) ذكر في مجلس (الرخستاغ) حقيقة هذا التلغراف كما ذكرها للمستر (تشيرول) لخفت التبعة التي القيت على عاتقي في هذه المسألة وخف الانتقاد الموجه الي

خرافة اتفاقنا مع الروس والفرنسويين على انكلترا

كانت حرب البوير على أشدها في فبراير سنة ١٩٠٠ وكنت حينئذ مع الاسطول بجوار (هليغولند) حيث كانت الطرادات تقوم بمناورة حربية . وبعد ما شهدت حفلة اليمين التي أداها مجندو (ويلهمهافن) تلقيت تلغرافاً من وزارة الخارجية بطريق (هليغولند) جاء فيه ان روسيا وفرنسا اقترحتا على ألمانيا القيام في وجه انكلترا بينما هي مشتبكة في الخارج وعرقلة تجارتها البحرية . فنفرتُ من هذا الاقتراح وأمرت في الحال بأن نرفضه

وقد اعتقدتُ ان باريس وبطرسبرغ سيبسطان المسألة في لندن باسلوب يجعلها تعتقد أن الاقتراح الذي رفضته هو اقتراح برلين لا اقتراحهما. فابرقت في الحال بطريق هليغولاند الى الملكة (فكتوريا) والى ولي العهد (ادوارد) وأطلعتهما على ما عرض علي وكيف قابلته بالرفض . وقد ردت الملكة تشكرني شكراً جزيلاً . ورد ولي العهد (أدورد) معلناً استغرابه . ثم افهمتني الملكة سراً بعد مدة من الزمن ان (باريس) و (بطر سبرغ) أبلغتاها الحادثة مغلوطة كما توقعتُ ، وذلك على أثر وصول تلغرافي اليها ، وزادت جلالتها على ذلك قائلة انها ستسر بافشاء هذه الدسيسة لحكومتها

استناداً الى البلاغ الذي أرسلته لها ، وهكذا تثبت لوزرائها اخلاص ألمانيه في خطتها ازاء انكلترا ، ولا تنسى خدمة الصديق التي أديتها لبلادها في هذه الاحوال الصعبة

سكة حديد (الكاب) — (القاهرة)
وفكرة سكة حديد (بغداد)

وجاءني (سيسل رود) في تلك الاثناء لمفاوضتي في انشاء سكه حديدية وأسلاك برقية بين (الكاب) و (القاهرة) بطريق المستعمرة الالمانية في أفريقية الشرقية ؛ فوافقته على ذلك ـ بعد استشارة المستشار ووزارة الخارجية ـ مشترطاً استخدام المواد الالمانية في داخل المستعمرة الألمانية ، وإنشاء فرع من هذه السكة الى (تابورا) . فقبل (رود) ذلك بلا تردد ، وأعرب عن شكره لألمانيا لأنها مكنته من تحقيق أعز آماله بعد ما رفض (ليوبولد) ملك البلجيك اجابته الى طلبه

وكان (رود) شديد الاعجاب ببرلين ومعاملها العظيمة التي كان يتردد اليها يومياً . وانتهى به الامر الى الاعراب عن أسفه لأنه لم يسبق له المجيء الى برلين ، فيدرك أهمية قوة ألمانيا وعظمتها وما يمكنها القيام به من الاعمال العظيمة ، ويجتمع برجال حكومتها وأصحاب الاعمال فيها

وقد كان ينوي زيارة برلين قبل اغارة (جمسون) ، ولكنه لقي في(لندن) ممانعة دون انفاذ فكرته . وقال (رود) انه لو استطاع في ذلك الحين ان ينال موافقتنا على مد السكة الحديدية والاسلاك التلغرافية بين (الكاب) و (القاهرة) ـ وهما يخترقان بلاد البوير كما يخترقان الاراضى الالمانية ـ لما عدمت ألمانيا وسيلة لمساعدته لدى (كروغر) الذي لم يكن يريد أن يسمع بذلك

ولو تم هذا الأمر لما وقعت اغارة (جمسون) ، ولما أرسل التلغراف

المشئوم الى (كروغر) . وزاد (رود) على ذلك أن هذا التلغراف لا غبار عليه ؛ وأنه لم يحقد علي بسببه ، لأن ألمانيا كانت تجهل سبب اغارة (جسون) والغاية المطلوبة منها ؛ ولأنها ظنت أن هـذا العمل اعتداء ؛ وكان حقها أن تغضب منه

ثم قال (رود) انه لا يريد غير المساحة اللازمة من الارض لانشاء سكته الحديدية ، وقد أعطته ألمانيا هذا الامتياز في داخل مستعمرتها ، لان طلبه هذا لم يكن مضراً بنا ، ولذلك كان يمكنه أن ينتظر منا المساعدة التامة . وقد أكد لي أنه يجب علي أن لا أندم على تلغرافي ، وأن لا أعبأ بحملات الصحف الانكليزية

كان (رود) يقول ذلك وهو يجهل المناقشات التي سبقت ارسال التلغراف ، وقد أراد أن يخفف عني تبعته ظناً منه بأني أنا الذي أرسلته

ثم أشار (رود) علي بانشاء سكة حديد (بغداد) ، والقيام بأعمال الري في (العراق) ، وقال لي : تلك مهمة ألمانيا كما أن مهمتي انشاء سكة حديد (الكاب) الى (القاهرة)

ولما طلبنا التنازل عن (ساموا) لألمانيا مقابل انشاء هـذه السكة ومرورها في داخل أملاكنا قام (رود) يؤيد طلبنا في (لندن) بكل ما أوتيه من قوة وعزم

أما السياسة الداخلية فقد تركها البرنس (هوهنلوه) وشأنها ، على أن صلاته القديمة بالهر فون (هرتلنغ) مكنته من أن يجعل علاقاته حسنة مع الثماتيكان ؛ وقد أظهر لطفاً وتساهلاً مع الممالك الألمانية التي عرفها تمام المعرفة في حياته السياسية الماضية ، ولكنها لم تكافئه على ذلك لان خطته شجعتها على التعنت والعناد

وكان البرنس (هو هنلوه) يلجأ دائما في كل أعماله الى وسيلة واحدة

هي التوسط والتفاهم والمصالحة • وقد لجأ الى هذه الوسيلة مع الاشتراكيين أنفسهم وفي أحوال كانت تقضي بالشدة والحزم

سياماني

وتلقى البرنس (هو هنلوه) رحلتي الى الاستانة وبيت القدس بارتياح عظيم ، وسر كثيراً من توثيق عرى الصداقة مع تركيا

وكان يرى مشروع (سكة حديد بغداد)— الذي هو ثمرة من ثمار هذه الصداقة الودية — مشروع تمدين جدير بألمانيا

ووافق بمثل هذا السرور على السياحة التي قمت بها مع قرينتي وولديَّ في انكلترا سنة ١٨٩٩ بدعوة من جدتي الملكة التي كانت على حافة القبر . فرغبت في أن ترى أكبر احفادها للمرة الاخيرة . فتوقع المستشار من هذه المسألة تسوية للمشاكل التي أوجدها بارساله التلغراف الى (كروغر)

وكان في طاقتي من جهة اخرى أن احل بعض المشاكل المهمة في ابان اجتماعي برجال الامة البريطانية

ورغبت الملكة في منع الصحف الانكليزية من ارتكاب أية هفوة تمس بي. وكانت هذه الصحف قد عيل صبرها من حملات بعض الكتاب الالمانيين بشأن مسألة (البوير) وهي حملات لا مبرر لكثير منها • فجعلت الصحف الانكليزية ترد عليهم بمثل هجتهم . فلما كانت أيام زيارتي لانكلترا طلبت الملكة من السر (تيودور مارتين) أن يفهم صحافة انكلترا أن جلالتها تريد أن تقابل حفيدها مقابلة ودية جديرة به . وهكذا كان ؛ فانتهت زيارتي من غير أن يقع حادث ما ؛ وكانت مرضية من كل الوجوه

واجتمعتُ باقطاب الدولة البريطانية اجتماعات مهمة لم أشعر في خلالها بأقل اشارة الى التلغراف الذي أرسل الى (كروغر)

أما جدتي فانها لم تكتم عني شدة استيائها من حرب (البوير) ونفورها

من مستر (تشمبر لن) واشمئزازها من خطة هذا الوزير . وشكرتني مرة على رفضي بسرعة وحزم اقتراح التدخل الذي عرضه علي الروس والفرنسيون وأعربت لي على سرورها من إخباري اياها بذلك في الحال

وكان من السهل أن نرى مقدار حب الملكة لجيشها البديع ، وقد فوجئت بانكسارانه في بدء الحرب وبالخسائر التي تكبدها ؛ فكان لذلك تأثير مؤلم جداً في نفسها

وقال المرشال الشيخ (الدون دي كامبريدج) بهذه المناسبة : « لقد اثبت النبلاء الانكليز والضباط أنهم يعرفون أن يموتوا بشجاعة وشرف »

وكلفت الملكة حفيدها في ساعة الوداع ان يحمل لابن عمها المستشار الذي كانت تحبه حباً جما وتدعوه « ابن العم الاعز » عواطف حبها وشكرها. وكانت تؤمل أن تساعد حكمة البرنس وخبرته على تعزيز الصلات الحسنة بين البلادين

وسر المستشار سروراً عظيما بالتقرير الذي قدمته له عن سياحتي ، لانه كان ينتظر من هذه السياحة نتائج مرضية من كل الوجوه

على أني كنت من جهة أخرى عرضة لحملات شديد وجهها اليّ بعض الصحف وبعض أنصار (البوير) . وذلك لان المانيا تنقصها الروح التي امتاز بها الانكليز ، تلك الروح التي بثتها فيهم سياسة الانانية منذ عهد طويل . فاذا نشبت المعركة فالانكليزي يسير دائما وراء العلم ، متمثلا بقول القائل : « لايمكن ابدال الفارس بعد بدء السباق »

استقالة هو هنلوه

استقال البرنس (هو هنلوه) في خريف سنة ١٩٠٠ لأن اعباء المنصب كانت ثقيلة على عاتقة المثقل بالاعوام ، ولان الخلاف المستمر بين الاحزاب لم يكن يروقه ، ولانه كان يتضجر من القاء الخطب في (الرخستاغ)

وكذلك تلك الصحف ـ التي لا تتمثل بغير (بسمرك) . والتي تزعم أنها محافظة على تقاليـد (بسمرك) ـ لم تكن لتسره . ولا سيما بعد ما أحرجت موقفنا كثيراً ازاء الانكليز في ابان (حرب البوير)

وقد كنا نظن ـ عند ماوقع الاختيار على البرنس (هوهنلوه) ـ أن البرنس (بسمرك) لا يقيم كثيراً من الصعاب في سبيل حلفه الجديد ، ولـكن هذا الظن لم يتحقق كله

نعم ، إن مصالحتي مع (بسمرك) ـ التي سجلت علناً بدخول البرنس الى برلين دخول الظافر ، واقامته في قصر (هوهنزولرن) القديم ـ قدحلت الأزمة بنوع مّا . وصار البرنس أقلّ تحاملاً ؛ ولـكن أنصاره والذين التفوا حوله لم يلقوا سلاحهم

وقد حدث ـ يوم ذهبتُ الى (فريدريخسرو) لتهنئه (بسمرك) بدخوله في سن الثمانين ـ أن ممثلي الشعب رفضوا الاشتراك في الاعراب عن احترامهم للشيخ الذي كان مستشاراً أول للامبراطورية ؛ وكان اشمئزاز البرنس (هوهنلوه) من هذا العمل عظيماً جداً ؛ فقد جرحه في أرقّ عواطفه

ولما توفي (بسمرك) وقع خبر وفاة المستشار الكبير في نفس (هوهنلوه) وقوع الصاعقة كما وقع في نفسي ؛ فان أسفنا ـ كأسف الشعب الألماني كله ـ كان عظيماً جداً على البرنس الذي يعد من أعظم أبناء بروسيا والمانيا ، بالرغم من الصعاب التي كان يقيمها أمامنا في بعض الاحيان

ولم يتمكن أحد من تحويلي عن عزمي على الرجوع من البلاد الشمالية ـ حيث كنت حينئذ ـ لاهدي تحيتي الاخيرة الى الرجل الذي كان خادما أمينا لمليكه الشيخ ؛ فساعده على تحقيق الوحـدة الالمانية ؛ والذي خدمتُ تحت ادارته لما كنت وليا للعهد وفاخرتُ بهذه الخدمة على رءوس الاشهاد

وقد اضطر البرنس (هوهنلوه) الى ترك الخدمة ؛ وتقـديم استقالتـه ، باصرار ولده (اسكنـدر) ونصائحه . لان (اسكنـدر) كان صاحب الحـل

والعقد في منزل أبيه ، وقد لقب في بعض الاندية بلقب ولي العهد ، مع أنه كان على خلاف ما كان عليه أبوه تماما

وكانت اعمال البرنس (هوهنلوه) في منصب المستشار تتوج بالنجاح . فقد كسب في المناقشـة التي دارت حول « القانون المدني » ؛ وأشرف على اصلاح « قانون العقوبات العسكري » ، وعلى تقرير «القانون البحري» وعلى ارسال حملة (فالدرس) اثناء ثورة البوكسر ، وعلى توطيد أمر (تسينغ تاو) وعلى عقد معاهدة (يانغ تسنغ)

وفي ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٠ استقالني فأقلته؛ وكان كلانا ساعتئذ في حالة تهيج . لأن الامر لم يكن قاصرا على انفصال مستشار عن امـبراطوره . بل كان في ذلك افتراق عم عن ابن أخيه

لقد كنت مغتبطا بهذا الشيخ الذي كان وهو في الخامسة والسبعين من عمره واقفاً وقته وقواه العقلية لخدمة وطنه . فلما اراد أن يخرج من غرفتي صافحني مرة اخرى ؛ وسألني عما اذا كانت المحبة والصداقة بيننا ستبقى كما كانت الى آخر أيامه . ان ذكرى الامير الشيخ ستبقى عزيزة عندي أبداً



الفصل الرابع

﴿ بيلوف ﴾

صلاتي السابقة بالكونت (بيلوف) — نصائحي له في خطتنا مع انكلترا — تحذيري اياه من (هولستين) — احتضار الملكة (فكتوريا) ـ فكرة اتفاقنا مع الانكليز على روسيا سفري الى (طنجة) — سقوط (دلكاسه) الحكومة الالمانية والاحزاب — اجتماع (بيلوف) بالملك (ادورد) في (كييل) زيارتي (ويندسر) — حديث الديلي تلغراف ـ نهاية بيلوف

صلاتي السابقة بالكونت (بيلوف)

في اليوم التالي ليوم استعفاء البرنس (هوهنلوه) تقلد الكونت (بيلوف) سكرتير الخارجية زمام الحكم . وكنت قد اخترته خلفاً للبرنس ، لانه خير من يصلح لهـذا المنصب ، لوقوفه وقوفاً تاماً على مشاكل السياسة الخارجية العديدة التي كانت تشتد وتزداد تعقداً يوماً فيوماً ، ولا سيما المشاكل الخاصة بعلاقاتنا مع انكلترا . وفي الواقع انه برهن في مجلس الرخشتاغ أيضا على كونه خطيباً كبيراً وخصما حاضر الذهن . ولما لم يكن سلفه قد امتاز بهـذه المزية فان الفرصة كانت دائماً تسنح لاظهارها والاشتهار بها

ولما سمع مجلس الامبراطورية باستقالة البرنس (هوهنلوه) جاءني الكونت (لرشنفلد) سفير بافاريا في برلين وقال لي بلهجة مؤثرة « ان الواجب يقضي علي — اكراماً لوجه الله — بان لا أختار لهـذا المنصب رجلاً من ألماني الجنوب ، لانهم — كما أوضح لي — لم يخلقوا ليشغلوا المكانة الاولى في برلين حيث يجب أن يقدم الالمان سكان الشمال بطبيعة الحال، فمصلحة الامبراطورية تقضي اذن بأن يخلف المستشار المستقيل ألماني من الشمال »

وكنت قد عرفت (بيلوف) من زمن طويل : عرفته بما أبداه من النشاط في (رومة) حيث كان سفيراً ، ثم عرفتــه باعماله وهو سكرتير للخارجية ، وقد سبقت لي زيارته مراراً في بيته ، وجرت لي معه مباحث طويلة في حديقة منزله . ثم توثقت عرى الصداقة بيننا في ابان سياحتي في الشرق : فقد صحبني الى تلك البلاد ، ومهد لي ـ بالاتفاق مع السفير البارون (مرشال) ـ سبل التعرف بولاة الامور الترك . وهكذا كنت أعرف المستشار الجـديد وكان يعرفني ، فلا بد والحالة هــذه من ان تكون صلاتنا صريحة لا غموض فيها ، لاننا كنا منذ سنوات ننظر الى المشاكل السياسية بعــين الحذر ، ونبحث في جميع المسائل والاحتمالات . وكنا من عمر واحد تقريباً ، في حين ان أسلافه كانوا بمنزلة أجدادى . فهو اذن «أول مستشار شابّ» للامبراطورية . وهذا ما يسهل لنا طريق العمل المشترك

ولم يكن يمضي يوم طول مدة اقامتي في برلين من غير أن أقضي في صباحه نزهة طويلة مع بيلوف في حــديقة قصر المستشار ، فكنا نصــدر الاوامر ، ونبحث في جميع مشاكل اليوم . وكنت أدعو نفسي احياناً الى تناول الطعام على مائدته. وقد كان الكونت وامرأته يقابلانني بأعظم مظاهر الاكرام وحسن الضيافة ، فأجتمع عنــدهما دائماً بنخبة من الرجال الذين يحسن الكونت اختيارهم . وكان هو رجــلاً لا يباري في ادارة الكلام ، والبحث في جميع الشئون المختلفة بروح واحدة وعلى نسق مطرد . لذلك كان سروري يتجدد حينما كنت اجتمع به ، لان له فكراً ثاقباً يعزز شخصيته الكبيرة . وكنت أسر أيضاً بأن أجتمع عنده بالاساتذة ورجال العلم والفن فضلا عن الموظفين ورجال السياسة

وكنا نتبادل الآراء المهمة في ذلك الجوّ النقي الذي لم يكن فيه شيء من مظاهر الرفعة ولا من مراسم الحكومة والادارة . وكان الكونت بارعاً في رواية القصص والنوادر ، تلك النــوادر التي استخلصها من حياة قضاها

بالمطالعة . وكان يرويها بلغات مختلفة . ويجب أن يذكر السنوات التي قضاها في المناصب السياسية ولا سيما في بطرسبرغ

وكان والد الكونت صديقاً حميماً للبرنس (بسمرك) ومساعداً من أقرب مساعديه والعاملين معه. وقد بدأ (بيلوف) الشاب حياته السياسية تحت اشراف المستشار الكبير وترعرع بين مبادىء (بسمرك) وتقاليده التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً ، ولكنها لم تغلّ يده ، بل ظل محافظاً على استقلاله

نصائحي للكونت بيلوف

في الخطة التي يجب أن تتبع إزاء انكلترا

وقد سألني (بيلوف) في أول اجتماع عقدته معه بعد ما صار مستشاراً : ما هو رأيي في الخطة التي يجب انتهاجها للسير مع الانكليز على أحسن أسلوب ، وجعل علاقاتنا حسنة معهم . فقلت له «رأيي هو ان الصراحة التامة ضرورية في مفاوضتهم . فالانكليزي عنيد في الدفاع عن مصلحته ووجهة نظره بصراحة تبلغ حد الغلظة . لذلك لا يستغرب معاملة الآخرين له بالمثل بل يفهمها تماماً . فلنحذر من أن نعمد الى السياسة أو الى الحيلة في معاملة الانكليز. لان هذه الخطة لا تنجح الا مع اللاتين والصقالبة . أما الانكليزي فتزيده حذراً، وتجعله يعتقد بأن مخاطبه لم يخلص له ، وأنه ينوي خداعه والتلاعب به . ومتى تسرب الشك الى قلب الانكليزى فمن المحال ان يتم معه عمل رغم عباراته الجميلة الخلابة ومبالغته بالتساهل والتلطف . لذلك لم استطع أن أنصحه — وهو مستشار الامبراطورية — الا باستعمال الصراحة في سياسته مع انكلترا

وقد نوهت بهذه النصيحة تنويهاً شديداً لاني رأيت ان المرونة السياسية التي امتاز بها الكونت (بيلوف) تدفعه الى المراوغة . وقد أصبحت هذه المرونة طبيعة ثانية فيه

تحذيري الكونت بيلوف من (هولستين)

وانتهزت فرصة هذا الكلام لانذر المستشار بوجوب الحذر من(هولستين)؛ ولكن (بيلوف) عمل كثيراً واضطر أن يعمل كثيراً مع (هولستين) بالرغم من هذا الانذار الذي لم يكن الا تكراراً لما قاله (بسمرك) لي . فقد استطاع (هولستين) ـ وهو الرجل العجيب ـ ان يزيد ثقة وزارة الخارجية به تدريجاً ولا سيما بعد ذهاب (بسمرك) واهمال هذه الوزارة اهمالاً نسبياً ، ثم تمكن من ان يحتفظ بمركزه مع ثلاثة مستشارين مختلفين كانوا يرون أنفسهم في حاجة ماسة اليه

ولا ريب في ان (هولستين) كان ممتازاً بذكاء عجيب تخدمه ذاكرة مدهشة . وكانت له موهبة خاصة في وضع الخطط السياسية . وقد أجمع الموظفون الذين هم أكبر منه سناً على عده حامل تقاليد (بسمرك) ورافع لوائها في عهد الامبراطور الشابّ ، وهذا هو السبب في ما كان له من النفوذ . وكانت قيمته الحقيقية محصورة في وقوفه على احوال الرجال الذين يشغلون المناصب ويديرون دفة السياسة . فاصبح قوله الفصل في مسائل الترقية، وبات مستقبل الموظفين الشبان في قبضة يده . فمن السهل والحالة هذه ان نفهم سر نفوذه في الوزارات كلها . وكان في الوقت عينه يحاول ان يكون له الرأي القطعي في ادارة السياسة الخارجية حتى عد في بعض الاحيان المنظم الاكبر لجميع الشئون الدولية والسياسية

وأهم ما كان يدعو الى الارتياب في (هولستين) اجتنابه كل ما يؤدي الى احتمال المسئولية ، بينما يعمل لزيادة نفوذه من وراء ستار ، ولا يقبل منصباً ذا مسئولية . ثم انه لم يرغب في رتبة ، ولا في ارتقاء وجاه . فهو يؤثر دائماً العمل وسط منطقة من الاسرار ، والبقاء في الظلام

وحاولت ان أتعـرف به فلم أنجح ، ودعوته مراراً الى مائدتي فلم يجب الدعوة ، ولم يوافق على تناول الطعام معي الا مرة واحدة في مكتب وزارة الخارجية ، وكان ذلك بحالة غريبة اذ حضر الطعام بلباس (الردنغوت) مع أن سائر الحاضرين كانوا بلباس (الفراك) ، واعتذر بعدم وجود ملابس عنده

وكانت الخطة المريبة التي يلجأ اليها في اعماله لالقاء التبعة عن عاتقه ظاهرة حتى في الأسلوب الذي كان يكتب به تقاريره . ولا ريب في ان هذه التقارير كانت فتانة ولـكنها تتضمن من التحفظات والعبارات التي يمكن تأويلها ما يجعلها شبيهة بتنبؤ الـكهان . فاذا استندت الحـكومة اليها في اعمالها وقراراتها ثم رأى الهرفون (هولستين) ان ينتقدها فانه لا يعدم وسيلة لاقناع سامعيه بأن ما قاله في تقريره كان عكس ما فهم منه على خط مستقيم.

وكنت أرى نفوذ هذا المستشار المعتزل للمناصب الرسمية ذات المسئولية لا يخلو من الخطر . وقد جرى لي مراراً — ولا سيما في عهد (ريشتوفن) — أن سفيراً أجنبياً كنت أنصحه بمراجعة الخارجية بعد بحثه معي في الشئون السياسية فيقول لي السفير الأجنبي « سأفاوض بذلك صديقي هولستين»

ان اقدام موظف فى الخارجية على مفاوضه السفراء الاجانب خلسة عن رئيسه كان تطرفاً ، ولـكن منح السفراء لقب « صديقهم » لهذا الموظف هو من الأمور التي تعدّت كل حد.

وقد نشأ عن ذلك ان (هولستين) توصل الى ادارة قسم من السياسـة الخارجية ٠ وكان يصغى للمستشار في بعض الأحيان . اما ما يقوله الأمبراطور أو يفكر فيه فكان عديم الأهمية في نظره . واذا أحرزت البلاد فوزاً سياسياً عاد الفضل فى ذلك للخارجية ، أما اذا سـاءت الحال فالخطأ كله يقع على « الامبراطور الشاب المتحمس ».

وانتهى (بيلوف) أخيراً بأن اعتقد أن فون(هولستين) لايمكن الاستغناء

طاقته أن يتحمل ضغطه وتشديده على جميع النـاس . وحينئذ قام الهرفون (تشير شكي)وزير الخارجية وخدمنا خدمة كبيرة في انقاذنا من هذا الموقف الصعب . فاني لما سألته رأيه في الأمر قال لى ان استبقاء الهرفون (هولستين) غير ممكن لأنه يعمل كل شيء في وزارة الخارجية ، ويحاول أن يخرجه هو منها ، وأن يقيم الصعاب في وجه المستشار . فأمرت حينئذ بالاستغناء عن (هولستين) ، وكان المستشار مريضاً ولـكنه وافق على هذا القرار بعد شفائه

اما الهر فون (هولستين) فقد قدم استقالته ووضع نفسه في الحال تحت تصرف (هاردن) لمساعدته في حملته ضـد الأمبراطور

وخبأت الأقدار للـكونت (بيلوف) سنة ١٩٠١ فرصاً عديدة مكنته من الظهور في مفاوضة انكلترا . فانه فى أحوال مختلفة ضحى المبدأ الذي كان يعزه بسمرك وهو« مبدأ وضع حديدتين في النار» أي الاتفاق مع دولة من الدول اتفاقاً ودياً مع المحافظة على الصلات الحسنة بروسيا . وكان يشد أزره فى هذه الخطة جميع معارضي « البسمركيين »

احتضار الملكة فكتوريا

بينما كانت (برلين) تحتفل بعيد التتويج المئوي الثانى احتفـالا باهراً علمت ان صحة الملكة فـكتوريا تبعث على القلق . فأسرعت الى جدتي وهي تعالج سكرات الموت ، وكنت في هـذه الرحلة الى انكلترا مع خالي دوق كونوت الذي كان يمثل انكلترا في الاحتفال الجاري في (برلين) وكان الدوق أعزّ أنجال الملكة وصهراً للبرنس (فريدريك شارل) وصديقاً شخصياً لى

فقابلني أمير الغال (ولىّ العهد) والأسرة المالكة كلها مقـابلة ودية في (لندن) .وبينما كانت عربتي تسير الهوينا من المحطة خرج رجل بلباس بسيط من وسط الجمهور الصامت وتقدم الى نافذة العربة ورفع قبعته ثم قال «شكراً لك أيها الأمبراطور ».والتفت لي حينئذ ولي العهد الذي ملك فيما بعد باسم

(ادورد السابع) قائلا : « هذا ما يفكر فيه جميع الذين تراهم الآن أمامك ، فهم لا ينسون أبداً أنك جئت اليهم » . على أنهم نسوا ذلك . ونسوه بسرعة مدهشة

ولما لفظت الملكة أنفاسها الأخيرة بين ذراعيّ - بكل سكينة وهدوء - خيل الي أن ستاراً ألقي على كثير من تذكارات صباي . فان وفاتها كانت خاتمة فصل من تاريخ انكلترا ، ودليلاً على حدوث شيء من التغيير في الصلات الانكليزية الألمانية

على أني سعيت في خلال ذلك للاتصال بكبار رجال الأمة البريطانية بقدر ما كانت الأحوال تسمح لى ، فأدركت أن الرأي العام هنالك عاطف علينا وملائم لنا . وان الناس يعربون جهاراً في لندن عن رغبتهم في توثيق عرى الصداقة مع ألمانيا

وفهت أنا والملك (ادورد السابع) في الوليمة التي أقيمت وداعاً لى بكلام لم نكن مستعدين له ، ولكن لهجته والافكار التي تضمنها كانت ودية جداً ، فوقع وقعاً عظيما في نفوس السامعين . وتقدم اليَّ سفير انكلترا في (برلين) بعد الوليمة ، وهز يدي قائلاً : « ان خطبة جلالتكم أحدثت أعظم تأثير في قلب كل انكليزي ، لأن العبارات التي تضمنتها بسيطة ومشربة بالاخلاص كما يحبها الانكليز . فمن الواجب نشرها في الحال ، لأن صداها سيكون عظيما في البلاد التي قابلت تشريفكم بالشكر ، ولأنها لا تخلو من فائدة للبلادين » . فقلت : « على الحكومة البريطانية وعلى الملك أن يقررا ذلك ، أما أنا فليس لدي أقل اعتراض شخصي » . ولكن هذه الخطبة لم تنشر ، فلم يطلع الشعب البريطاني على العبارات التي فهت بها حينئذ ، وكانت مظهراً صحيحاً لعواطفي وأفكاري . وقد تذمر هذا السفير نفسه في حديث جرى لى معه في برلين من هذه الحادثة ، ولكنه لم يستطع أن يبين لى أسبابها

فكرة اتفاق المانيا مع الانكليز

واتماماً لملاحظاتي المتعلقة بأيام اقامتي في انكلترا أقول : ان بعض الصحف الالمانية انتهجت يومئذ منهجاً غير ملائم لما يترتب عليّ من الواجبات تجاه أحزان البيت المالك في انكلترا والشعب البريطاني ، ولا موافق لمقتضيات السياسة وروابط القرابة

وعند عودتي الى المانيا أطلعت المستشار على ما كان لتلك الرحلة من الاثر في نفسي ، فأعرب لي عن ارتياحه الى النتائج التي وصلنا اليها . وتداولنا ملياً في هذا الموضوع ونحن في (هامبورغ) باحثين في الثمرات التي يمكن اجتناؤها من هذه الرحلة . وكان من رأيي ان نسعى على كل حال للوصول الى اتفاق حميد ، لأني لم أكن فى ذلك الوقت اتوقع امكان عقد التحالف الذي ترجح عندي فيما بعد

وبينما انا في (هامبورغ) في ربيع سنة ١٩٠١ دخل عليّ الكونت (متريخ) — وكان مندوباً من جانب وزارة الخارجية للملازمتي — فأبلغني مذكرة وردت من مستر (تشمبرلن) يسأل فيها عما اذا كانت ألمانيا ترغب في عقد اتفاق مع بريطانيا العظمى أم لا . فكان أول خاطر تبادر الى ذهني هو ان نسأل الانكليز عن هذا الاتفاق « تجاه من » يريدون ان يكون . وقد ورد علينا الجواب من (لندن) وفيه تعريض بروسيا وموقف التهديد الذي هي واقفة فيه تجاه (الاستانة) و (الهند) . فبادرت في الحال الى تذكير (لندن) بالأواصر التقليدية والحربية التي بين الجيشين الالماني والروسي وبالقرابة التي بين البيتين المالكين وفضلا عن ذلك فاني أشرت الى ما سيكون من انحياز فرانسا الى جانب روسيا ، وما ينشأ عن ذلك من ظهور خطر الحرب بين الفريقين . ثم ان ألمانيا قد اتحدت مع فرنسا وروسيا في الشرق الاقصى (١٨٩٥ ، شيمونوزاكي) ، وليس هنالك سبب معقول يدعو الى احداث اختلاف بيننا وبين روسيا

وفي الواقع ان جيش روسيا في زمن السلم كان ضخماً جداً ، وكانت حدودنا في شرقي بروسيا مهددة بالخطر ، ولم يكن في استطاعة انكلترا ان تحول دون استيلاء روسيا على املاكنا الشرقية ، لان اسطولها لا يقدر على القيام بعمل مفيد في بحر البلطيق كما انه ليس في امكانه الدخول الى بحر الشمال . وعلى هذا فان العبء الذي يلقى على عاتق المانيا كان عبئا ثقيلا جداً ، وهو مدعاة للخطر حتى لو لم تتدخل فرنسا في الأمر

وكان فيما أجاب به (تشمبرلن) على هذه الملاحظات أن الحاجة ماسة الى عقد اتفاق وثيق العرى ، وبديهي أن انكلترا تتعهد في هذا الاتفاق بأنها ستشد أزرنا وتنتصر لنا . فأجبت على ذلك بأني لا أعير هذا الاتفاق جانب الرضى والقبول الا اذا صادق عليه البارلمان الانكليزي . وكنت أعلم أن البارلمان يهون عليه اسقاط الوزارة البريطانية لنقض مثل هذا الاتفاق . أعني أننا كنا ننظر الى اقتراح مستر (تشمبرلن) لأول وهلة كأنه اقتراح شخصي ، ولكن مستر (تشمبرلن) صرح باستعداده لتحقيق ما نطلبه من موافقة البارلمان على الاتفاقية ، وانه ليس على (برلين) سوى التوقيع . ثم لم تبق بعد ذلك حاجة الى توقيعنا ، لأن المفاوضات وقفت عند هذا الحد . وباتت فكرة الاتفاق مع الانكليز في خبر كان

* * *

وبعد زمن قريب عقدت انكلترا اتفاقها مع اليابان (هاياش) . وعلى أثر ذلك نشبت الحرب بين اليابان والروس . فقفزت روسيا بعدها من الشرق الى الغرب ، تاركة شئون الصين وأمور البحر المحيط ، ومنصرفة الى الاشتغال بمشاكل البلقان والاستانه والمآرب في الهند . فانطلقت يد اليابان في (كوريا) و(الصين) .

السفر الى طنجة

سافرت الى (طنجة) سنة ١٩٠٥ . ولم أكن أرغب فيذلك ولـكن القدر قضى به . وسأبسط للقراء كيف تقرر

عزمت في آخر مارس على أن أفعل ما فعلتـه في العام السابق ترويحاً للنفس فأقوم بسياحة في البحر المتوسط على باخرة من البواخر التي تمرّ بثغر (نابولي) انتقيتها من مرذأ (كوكسهافن) . وقد أشار عليّ (بالين) بأن أختار الباخرة « همبورغ » وأن أصطحب عدداً من المدعوين لان الباخرة كانت خالية من الركاب . فدعوت حينئذ كثيرين من الرجال بينهم المستشار الخاص « ألتهوف » والأميرال (منسنغ) والـكونت (بوكار) والسفير فون (ڤارن بوهلر) والاستاذ (شيمان) والاميرال (هولمان) وغيرهم

وماكاد يعان خـبر سفري حتى كتب اليّ (بيلوف) يقول : ان القوم يعدون أنفسهم سعداء اذا رأوني في (لشبونة) . وقد نصحني بالنزول في هذه المدينة وبزيارة القصر الملـكي فيها ، فوافقت

ولما دنا موعد السفر أخبرني (بيلوڤ) ان زيارتي لمدينة (طنجة) من الأمور المرغوب فيها ، لانها تعزز موقف السلطان ازاء الفرنسويين . وقد رفضت ذلك ، لعلمي بأن مسألة (المغرب الاقصى) برميل من البارود الخطر ، وأن هذه الزيارة ربما يكون ضررها أكبر من نفعها . ولـكن (بيلوڤ) أعاد الـكرة عليّ مراراً من غير أن يستطيع اقناعي بضرورة هذه الزيارة وفائدتها

ودارت مناقشات كثيرة بشأن هذه الزيارة بعد سفر الباخرة بيني وبين الهرفون (شوهن) الذي كان يصحبني بصفة ممثل للخارجية ، الى ان اتفقنا في النهاية على استحسان تركها . وقد أبلغت ذلك الى المستشار بالتلغراف من (لشبونه) ، ولكن (بيلوف) كرر طلبه بالحاح شديد راغباً الي في أن أراعي تيار الرأي العام في الأمـة وفي (الرخستاغ) ولا سيما بعد أن قوبلت هذه

الفكرة بحماسة نادرة المثال . لذلك اضطررت الى زيارة (طنجة) . وقد وافقت عليها وأنا قلق ، لاني خشيت في تلك الاحوال أن تمدها (باريس) تحرشاً ، وان تقدم (لندن) على شد أزر فرنسا اذا وقعت الحرب . وكنت أتهم (دلكاسه) بانه يرغب في استعمال (المغرب الأقصى) وسيلة للحرب ، وخفت أن يستفيد في سياسته هذه من زيارتي (طنجة)

على أن هذه الزيارة قد وقعت في جهة أمام طنجة ، ولم يحجم عن الاشتراك في الاحتفال بها الفوضويون من ايطاليا وجنوبي فرنسا ولا النشالون والافاقون وكانت جماعة من الاسبانيين في جهة من الشاطيء تلوح بالاعلام وتهتف هتافاً عالياً . وقد قال لي مندوب الأمن العام الذي كان يصحبني ان هؤلاء الناس من الفوضويين الاسبانيين

ولما وصلت الى (جبل طارق) ظهرت لي بوادر التأثير الذي أحدثته زيارتي (طنجة) . فقد استقبلني الانكليز استقبالاً بارداً مشمولا بالرسميات ، وهو يختلف اختلافاً عظيما عن الاستقبال الودي الذي أعدوه لي في العام السابق . فأيقنت أن كل ما كنت أتوقعه بدأ يتحقق . ففي (باريس) اشتد الألم وازداد الحقد ، وجعل (دلكاسه) يعمل للحرب ؛ ولم يفشل في مسعاه الا لأن وزيرى الحربية والبحرية أقنعاه بأن فرنسا لم تكن مستعدة

ثم تحققت أني كنت على صواب فيما كنت أخشاه ، وذلك عند تلاوتى الحديث الذي دار بين المسيو (دلكاسه) وأحد محرري جريدة (الغلوا) فقد أعلن الوزير في هذا الحديث للعالم الذي استولت عليه الدهشة أن الحرب لو أعلنت لكانت انكلترا قد انضمت الى فرنسا وشدت أزرها فيها . وهكذا كان ممكناً يومئذ أن يلقوا على عاتقي وأنا في الحالة التي كنت فيها تبعة اعلان حرب عامة كادت أن تنشب من جراء زيارتي (طنجة) ، تلك الزيارة التي أكرهت عليها

ان التفكير والعمل بمقتضى أحكام الدستور هما في أغلب الأحيان من

أصعب واجبات الملك ، لأن التبعة لا بدّ من آن تلقي على عاتقه في نهاية الأمر [1]

وأعلنت جريدة (الماتان) الباريسية في أكتوبر سنة ١٩٠٥ أن المسيو (دلكاسه) صرح في مجلس الوزراء بأن انكلترا كانت قد تعهدت فى حالة اعلان الحرب بأن تنزل مئة الف جندى في (هولستين) وان تستولي على (قنال الامبراطور ولهلم) ثم جددت هذا التعهد مرة أخرى فيما بعد واقترحت أن يسجل على الورق . ولكن (جورس) النائب الشهير الذي قتل سنة ١٩١٤ بتأثير سياسة (ايزفولسكي) اطلع على هذا الاقتراح قبل التصريح الذي فاه به المسيو (دلكاسه) وذكرته جريدة (الماتان)

سقوط دلكاسه

ويعود معظم الفضل في سقوط (دلكاسه) وتعيين (روفيه) الى نفوذ أمير (موناكو) . فان هذا الأمير اجتمع بى في خلال « أسبوع كيال » وجرت له مفاوضات كثيرة معي ومع المستشار وكثيرين من رجال الدولة . وقد اقتنع بأننا نرغب رغبة أكيدة فى الوصول مع فرنسا الى اتفاق يمكننا من أن نعيش معاً براحة وسلم الواحد الى جنب الآخر . وكانت صلات الأمير بالسفير (البرنس رادولين) حسنة فأفرغ قصارى جهده للتقريب بين فرنسا وألمانيا . وقد اعتقد هو أيضاً بأن (دلكاسه) خطر على السلم العام . وكان يتوقع — كما صرح مراراً — قرب سقوط (دلكاسه) وتعيين (روفيه) خلفاً له وكان روفيه هذا رجلا سياسياً هادئاً يرغب في الاتفاق مع ألمانيا . وقد عرفه أمير (موناكو) شخصياً . لذلك عرض على سفير ألمانيا توسطه في هذا الشأن .

(١) ان (غليوم الثاني) على صواب في هذه الشكوى اذا سلكت الملوك سلوكه الذي أدى الى ايثار الامة الجرمانية الحكم الجمهوري . أما اذا التزموا خطة ملوك الانكليز وجروا على دستورهم في توسيد كل أمر الى أهل الاختصاص به فان المسئولية تقع حينئذ على رجال العمل من المسئولين . ويبقى للملوك المقام الاعلى في قلوب الامة وفي انظمتها

ولقد سقط (دلكاسه) بالفعل ، وعين (روفيه) خلفاً له فقمت حينئذ بعمل نال مساعدة أمير (موناكو) كما كنت أتوقع . وقد أبلغت المستشار أنه يجب تمهيد السبل للتقرب من فرنسا ، وأوصيت البرنس (رادولين) — الذي تلقى مثل هذه التعليمات من (برلين) — بأن يحسن الاستفادة من « مركبة » روفيه ليحول في المستقبل دون كل نزاع يحتمل وقوعه بين البلادين ، وزدت على ذلك أن أمير (موناكو) الذي يعرف (روفيه) معرفة تامة يشير على السفير بكل ما فيه فائدة • وحينئذ سافر البرنس (رادولين) لتنفيذ مهمته ، وقلبه يطفح سروراً ، ودلائل العزم والنشاط على محياه

وسارت المفاوضات سيراً حسناً في بدء الأمر ، فعظم رجائي بقرب الوصول الى نتائج عظيمة تمحو الأثر السيء الذي تركته زيارتي (طنجة) ، وازددت أملاً باتفاق يعقد بين الفريقين

وقد دارت المفاوضات في تلك الأثناء بشأن (المغرب الأقصى) ثم انتهت. وقبل أن نتمكن من عقد (مؤتمر الجزيرة) الذي اقترحه الكونت (بيلوف) بكتاب منه الى جميع الدول صاحبات المصالح اضطررنا الى بذل مجهودات عظيمة أسفرت في نهاية الأمر عن النتيجة التالية وهي أن المادة ١٧ من (معاهدة مدريد) بشأن الأمة الأكثر تفضيلاً في المعاملات تبقى أساساً للعمل ، وتستطيع فرنسا أن تنفذ في (المغرب الأقصى) الاصلاحات اللازمة بشرط موافقة الدول الموقعة على (اتفاق مدريد)

وقد اتجهت الانظار الى هذه الحوادث تاركة المفاوضات مع (روفيه) في المنزلة الثانية من الأهمية

لقد كنت متحداً في الرأي مع المستشار على أن الواجب في السياسة الداخلية هو تنظيم الروابط بين الحكومة وبين الاحزاب المختلفة في (الرخشتاغ) ، لأن الفوضى كانت قد ذرّ قرنها على عهد (هوهنلوه) فأصبح من الضروري بوجه خاص استرداد الحزب المحافظ الذي استماله أنصار (بسمارك) الى جانب المعارضين

ان المستشار قام بهذا الواجب بصبر وثبات ، ونجح في تحقيق الاتحاد المشهور الذي نشأ عن خسران الاشتراكيين خسراناً مبيناً في الانتخابات

وكان بين المحافظين رجال كثيرون لهم ارتباط بالقصر وبي مباشرة ، فكان من الميسور لهذا الحزب — أكثر من سائر الأحزاب — أن يحصل على المعلومات الكافية عن أغراضي السياسية وغيرها ، وكان في استطاعتهم أيضاً أن يخاطبوني في موضوع اقتراحاتي قبل ان تفرغ هذه الاقتراحات في صيغة لمشروعات القانونية ؛ ولكني لم أشعر منهم بحسن القصد الذي كان يجب ظهوره في هذا الشأن . ولعله قد كان في الامكان التفاهم مع المحافظين على مشروع (قنال ميتيالاّند) الذي انتقدوه ، لو أنهم ناقشوني فيه بحرية . وكذلك كان من الممكن الاتفاق معهم على شئون في المنزلة الثانية من الأهمية كالكنيسة العظمى ودار الأوبرا اللتين أردت انشاءهما بسبب ميلي الى الكنيسة والى الفنون . ولكني اذا قلت « ان التفاهم مع المحافظين من الأمور الصعبة » لا أكون مفصحا عن شيء جديد . ان المحافظين بمالهم من الوظائف التقليدية في الحكومة صاروا ذوي تجربة واصحاب رأي صائب . وان لهم خطة ثابتة في السياسة وشئون الحكومة . ومنهم ظهر كبار رجال الحكومة ، وحكماء الوزراء ، والماهرون من الضباط والموظفين . اذن فثقة رجال هذا الحزب بأنفسهم لم تكن عبثاً . وان صداقتهم للبيت

الممالك لا تتزعزع ، وان الامبراطور والامبراطورية مدينان لهم بالمؤازرة والتعضيد . ولكنهم مغرقون في التقيد والاحتفاظ ، وما اشد بطئهم في مسايرة الدواعي العصرية . واذا عرض مظهر من مظاهر الارتقاء يجعلونه موضوع مناقشة شديدة ، حتى لو كان له مساس بهم مباشرة ، ولا غرو فان ماضيهم يدل على حاضرهم الذي من هذا القبيل

انا اذا قلت « ان الاتفاق مع المحافظين من أصعب الأمور » أعرف أنهم هم أيضاً يقولون مثل ذلك عني : فانا موافق لهم من جهة تقاليدي ، ولكني من جهة السياسة لم أكن محافظاً . أي انني كنت نصيراً للمحافظة التي تلائم الترقي ، ولا أزال كذلك حتى الساعة . فطريقتي هي الاحتفاظ بتقاليدنا الحيوية ، والغاء القيود التي أبلاها القدم ، والاستفادة من كل جديد اذا كان مفيداً

لقد كان من دأبي — اذا تناقشت مع أحد في مشروع من المشروعات — الجنوح الى التصريح بالحقائق مهما كانت مرّة ومؤلمة . فالحقيقة كان لها المقام الأول عندي ، وكان يسرني مفاوضة الرجال مباشرة ، وكنت على استعداد لذلك في كل وقت

ومع كل ما تقدم فان ما حدث من الاختلاف بيني وبين المحافظين لم ينسيني قط ما قام به بعض رجالهم من الخدمات نحو بيت (هوهنزولرن) وحكومة (بروسيا) والامبراطورية الألمانية

و بعد فان (بيلوف) قد نجح في خطته ، فجمع حوله المحافظين والاحرار ، وألف أكثرية ساحقة من الاحزاب التي تؤيد الحكومة . وقد أظهر بذلك مقدرته الفائقة ، وحنكته السياسية النادرة ، وخبرته بأحوال الرجال ؛ فاستحق اعجابي واعجاب الأمة ، وزادت ثقتي به زيادة عظيمة

وقابلت (برلين) فشل الاشتراكيين في الانتخاب بأعظم مظاهر الابتهاج ، وأقيمت مظاهرة امام القصر في تلك الليلة لا يمكن ان أنساها ما حييت . وقد

أحدق المتظاهرون بسيارتي ، فاضطررت ان اسير بهـا الهوينا ، وان اشق طريقاً بين الجمهور الذي اخـذ يتدفق على (بوستغراتن) ، واكرهنا انا والامبراطورة على الخروج الى شرفـة القصر امام هتاف الهاتفين وتصفيق المصفقين

اجتماع (بيلوف) بالملك (ادورد السابع) في (كييل)

كان المستشار حاضراً لما زارني الملك (ادورد السابع) في (كييل) • وكان الكونت (سيكندورف) رئيس ديوان (الامبراطورة فريدريك) في جملة المدعوين • وقد عرفه الملك (ادورد) منذ زمن طويل في ابان زياراته الكثيرة لانكلترا ووثق به ثقة خاصة . لذلك كلفه صديقه (بيلوف) ان يمهد له السبيل لمقابلة الملك

ووقعت هذه المقابلة على ظهر اليخت الملكي الانكليزي بعد مأدبة دعينا اليها انا والمستشار ، فظل الرجلان معاً مدة طويلة في ساعة التدخين • وبسط لي (بيلوف) خلاصة ما دار في هذا الاجتماع • فانه لما وصل في حديثه مع الملك الى ذكر التحالف بين انكلترا والمانيا افهمه جلالته ان هذا التحالف غير مفيد في نظره لعـدم وجود ما يحمل على التنافر والعداء بين البلادين • وقد كان هذا مظهراً من مظاهر « سياسـة الخنق » الانكليزية التي ظهرت فيما بعد بمظهر جلي ألحق بنا ضرراً عظيماً في (مؤتمر الجزيرة) • ولا ريب في ان الخطة الصريحة التي نهجتها انكلترا في شد أزر فرنسا ومعاكسة المانيا كانت من الخطط التي رسمها الملك (ادورد) نفسـه • وهو الذي اعطى السر (ماكنزي والاس) — الذي انتدبه ممثلا له في مؤتمر الجزيرة — تعليمات قطعية لتنفيذ حق المراقبة • وقد افهم السر (ماكنزي والاس) بعض معارفه ان ارادة الملك هي مقاومة المانيا مقاومة شديدة وشد أزر فرنسا في كل حال •

ولما قيل له ان الاتفاق ممكن مع المانيا على بعض الشئون . وان التحالف معها ربما لا يكون صعباً ؛ اجاب ان الواجب يقضي قبل كل شيء بمراعاة (الاتفاق الانكليزي الروسي) فاذا « ضرب بهذا الاتفاق عرض الحائط اذنت حينئذ ساعة التسوية مع المانيا » . على ان هذه « التسوية الانكليزية » لم تكن في حقيقة الأمر الا (خنق المانيا)

زيارتي (وندسر)

سافرت انا والامبراطورة الى (ويندسر) بدعوة الملك (ادورد السابع) في خريف سنة ١٩٠٧ . فاستقبلتنا الاسرة المالكة الانكليزية استقبالاً ودياً جداً . ولم يقع شيء ينفر منه الذوق طول مدة هذه الزيارة . ثم ذهبت للاستراحة في قصر (هاي كليف) للجنرال (ستورت وورسلي) وهذا القصر قائم على شواطىء انكلترا الجنوبية

وكان المستشار — الذي قابل دعوتي الى انكلترا بارتياح عظيم — قد بحث معي طويلا قبل سفري في الوسائل التي يجب التوسل بها للتفاهم مع انكلترا ؛ وعرض علي آمالا كثيرة ؛ ومشروعات مختلفة . طلب الى أن أسترشد بها . وأن لا أهملها فى مباحثي مع الانكليز . وقد سنحت لي الفرص فى ابان وجودي فى انكلترا للبحث فى هذه المسائل المعدة من قبل ؛ ونقل أماني المستشار الى الذين وجهت اليهم . وكنت أرسل نتيجة مفاوضاتي الى (برلين) بالبرقيات الرقمية ؛ وأتلقى من المستشار برقيات سرية متلها تؤيد عملي ؛ فأبرزتها فى المساء بعد تناول طعام العشاء لخاصة أصحابي الذين رافقوني . فقرأها كبير الامناء الكونت (اولنبورغ) والبرنس (ماكس ايجون فورستنبرغ) وشاركاني فى سروري من موافقة المستشار

ولما عدت من انكلترا قدمت للمستشار تقريراً عاماً عن كل ما جرى ، فشكر سعيي الشخصي لتحسين الصلات بين البلادين بمثل هذا النشاط العظيم

الحديث مع « الديلي تلغراف »

وقعت المشكلة التي أطلق عليها اسم « مشكلة الحديث » بعد سنة من هذا التاريخ . فقد نشر الحديث في جريدة (الديلي تلغراف) . وكانت الغاية منه لما أذنت بنشره تحسين صلاتنا بانكلترا • وقد ارسلت مسودته للمستشار بواسطة الهرفون (جنيش) ممثل الخارجية لدرسها وتمحيصها . ووضعت على بعض فقرات منها اشارات تدل على انها زائدة وينبغي حذفها ، ولكن هذه الفقرات لم تحذف ، لتقصير بدا من وزارة الخارجيـة في ابان العمليات التي أجريت لهذه الوثيقة حسب الأصول

أثار الحديث عاصفة الصحف ، وتكلم المستشار في (الرخستاغ) ، ولكنه لم يدافع عن الامبراطور — المعرض للانتقاد — الدفاع الذي كنت أنتظره ، بل اعلن انه سيتخذ التدابير اللازمة في المستقبل لمنع السياسة الشخصية التي ظهرت الرغبة فيها في السنوات الاخيرة • وقد نشر حزب المحافظين حينئذ في الصحف كتاباً مفتوحاً الى الملك يعلم الجميع فحواه

وكنت في ابان هذه الحوادث في (إكارتستو) عنـد الارشيدوق (فرانسوا فرديناند) ولي العهد ثم في (ڤينه) حيث زرت الامبراطور (فرانسوا يوسف) وقد انتقد كلاهما المستشار على خطته انتقاداً شديداً

وتركت (ڤينه) قاصداً (دونوئتستيغن) لزيارة البرنس (فورستنبرغ) • ورأت الصحف ان تحمل البرنس — الذي كان رجلا حراً ومستقيماً — على ان يعين الحقائق للامبراطور ، فبحث البرنس معي فى هذه الشئون ، واشار علي بأن اجمع البرقيات التي تبودلت سنة ١٩٠٧ فى ابان اقامتي فى (هاي كليف) واعرضها على (الرخستاغ)

واكتنفتني الآلام الادبية فى تلك الاثناء ، ومما زاد آلامي وفاة صديقي ورفيق صباي الكونت (هولسن هوزلر) رئيس اركان حربي • غير ان

صداقة البرنس (فورستنبرغ) وذويه المشربة بالود الاكيد والاخلاص الوطيد والعناية التي اكتنفوني بها في تلك الايام السود اكبر عزاء لنفسى الحزينة. على انى وجدت عزاء آخر في الكتب التي تلقيتها من المانيا معربة عن اخلاص مرسليها الذين انتقدوا المستشار انتقاداً شديداً

وقابلني المستشار بعد عودتي ، فالقى علي درساً موضوعه اغلاطي في السياسة ، وطلب مني ان اوقع الوثيقة المعلومة التي نشرت في الصحف بعد ذلك ، ففعلت دون ان أنبث ببنت شفة كما اني أهملت الحملات التي كانت توجهها الصحف الي والى العرش .

وقضى المستشار بعمله هذا على الثقة الوطيدة التي وضعتها فيه . والصداقة الوثيقة العرى التي كانت تربطنا . ولاريب في ان البرنس (بيلوف) كان مقتنعاً بأن مافعله قد أحسن به الي والى (الرخستاغ) ، وقد ظن انه خدمني شخصياً لان الرأي العام تأثر كثيراً من عملي

على أني لم أشكر (بيلوف) على عمله لأني رأيت الخطة التي نهجها ازائي في حادثة « الديلي تلغراف » كانت تعارض ماكان أبداه سابقاً من الاعجاب بي والموافقة على مساعي . وكنت قد اعتدت من البرنس ليناً ورقة ، فلم استطع والحالة هذه ان أفهم الاسلوب الذي لجأ اليه في معاملتي . لذلك تفصمت الصلات الودية الحسنة التي كانت تربط الامبراطور بالمستشار ، وقطعت علاقاتي الشخصية معه . فلم أعد أقابله الا لشغل وفي احوال صعبة

وبعد استشارة وزير القصر ورئيس الديوان قررت ان أعمل بنصيحة البرنس (فورستنبرغ) ، فحاولت جمع الرسائل التي تبودلت في ابان اقامتي في (هاي كليف) سنة ١٩٠٧ وقد أبلغت وزارة الخارجية قراري هذا الذي لم أتمكن من تنفيذه لان الوثائق المطلوبة لم توجد

نهاية بيلوف

في أواخر الشتاء طلب المستشار مقابلتي . فدعوته الى (قاعة الصور) في القصر حيث استقبلته . وكنا نسير ذهاباً واياباً امام صور أجدادي ، ومعارك حرب السنوات السبع ، واعلان الامبراطورية في (فرساي) . وماكان أشد استغرابي لما رأيت المستشار يعود الى الحوادث التي وقعت في خريف سنة١٩٠٨ يشرح لي خطته

وقد انتهزت هذه الفرصة لاناقشه الحساب عن الماضي كله ، وأدت هذه المناقشة الصريحة ، والبيانات المرضية التي سمعتها منـه . الى تحسين الصلات تحسيناً ادى الى بقائه في منصبه

ثم طلب مني المستشار بعـد ذلك أن أقبل دعوته الى تناول طعام العشاء على مائدته في ذلك المساء ، كما كنت أفعل في الماضي ، ليعلم الذين هم في الخارج ان الأمور عادت الى مجاريها الطبيعية . فاجبته الى طلبه . وكانت تلك الحفلة الليلية خاتمة ليوم من أيام التاريخ . وقد ازدانت بلطف البرنسيس التي كانت دلائل السرور ظاهرة على محياها ، وبما أبداه البرنس من مظاهر الظرف الذي كان طبيعياً فيه

على ان هذا الرجل المتلاعب انتهى به الأمر الى أن حرّف متهكماً ، في احدى الصحف ، قول الشاعر الكبير القائل : « وجدتني المانيا والدموع لا تزال تجري أنهراً »

ان توتر العلائق بيني وبين البرنس (بيلوف) مرة أخرى جعـله يدرك أنه لم يعد في الامكان احتفاظه بمنصبه ، فأعرب لي عن رغبته في الانسحاب ، حتى أنه عند اعتزاله العمل نصح لي بأن أوسد مقامه الى (بتمن هولويغ)

الفصل الخامس

(بتمن هولويغ)

شخصية بتمن — ادورد السابع في برلين — وفاة ادورد السابع
عيوب بتمن — لماذا لم يعزل بتمن ؟ — اصلاح الانتخابات في بروسيا
علاقة المستشار بالامبراطور في الدستور الالماني - القيصر في بوتسدام
رحلتي الى لندن — السر ارنست كاسل وبلاغه السري
مفاوضة اللورد هالدن — المناورة الانكليزية
الخلاف على المشروع البحري - شيء آخر عن هالدن
العرس دي ويد - اجتماعي بالقيصر في مرو المضيق

شخصية (بتمن)

عرفت الهر فون (بتمن هولويغ) منذ صباي . ففي سنة ١٨٧٧ كنت ضابطاً برتبه ملازم في الفصيلة السادسة من الالاي الأول من حرس المشاة ، وقد نزلنا عند والده في (هوهنفينوف) فجذبتني تلك الاسرة اللطيفة التي كانت مدام فون بتمن المحترمة السويسرية المولد تدبرها بلطف وذكاء نادرين

ثم عدت الى (هوهنفينوف) وأنا ولي عهد وامبراطور لزيارة فون (بتمن) الشيخ . وكان (بتمن) الشاب حاكم المقاطعة يستقبلني في كل مرة . ولم أكن أفكر أنا ولا هو بانه سيكون مستشارا في عهدي • وقد نشأت عن هذه الزيارات صلات حسنة علمني أن احترم : في شخصية (بتمن) : المقدرة والنشاط وحب العمل . وهذا الاحترام ظل راسخا في نفسي طول المدة التي قضاها في المناصب السياسية

وكان (بتمن) قد تمرن على العمل في منصب وزارة الداخليـة ، وأخذ من وزارة الداخلية الى (الرحستاغ) حيث ظهرت مقدرته بوضوح

وكان التعاون بيننا سهلاً • وقد اعتدت ان ازوره يومياً اذا سنحت لي

الفرص ، فنخرج للتنزه في حديقة قصر المستشار باحثين في أحوال السياسة وسير الأمور ، وكنا نقتل الشئون المهمة بحثاً وتمحيصاً ويبسط لي آراءه فيها

وكنت اشعر بشيء من السرور بزيارة منزل المستشار لان قرينته كانت انموذج النساء الالمانيات ، تحمل الناس على احترامها ببساطتها ورزانتها ومزاياها العديدة • وقد تمكنت برقة قلبها وسمو عواطفها من أن تعيش في جو من الصداقة الحقيقية

وواصل (بتمن) عادة (بيلوف) التي كنت اقرها واعجب بها ، وهي عقد الاجتماعات في المساء • فتمكنتُ بذلك من معاشرة الناس على اختلاف طبقاتهم ومهنهم من غير ان اتقيد بقيود

واكتسب المستشار في السياحة التي قام بها للتعرف بالناس عطف الرأي العام في كل مكان برزانته وعزمه وحسن بيانه • وقد رأت فيه الدول الاجنبية التي لم تكن معادية لنا ضماناً قوياً على مواصلة خطتنا السياسية وعاملاً حقيقياً على توطيد دعائم السلم • والحقيقة هي انه كان يفرغ قصارى جهده لتعزيز السلم ، وكان على اتم اتفاق معي في هذا الشأن

وكانت باكورة أعماله في السياسة الخارجية العناية بموقفنا ازاء انكلترا فان « سياسة الخنق » التي نهجها (ادورد السابع) ، والتي تفاقم خطرها منذ اجتماع « ريفال » ، كانت من أعظم بواعث القلق في نفس المستشار الجديد . ثم ان رغبة الانتقام التي كانت تقوى وتشتد في فرنسا ، حيث الكره شديد لنا ، والغموض الذي ظهر في خطة روسيا : كل ذلك ضاعف قلقه وأدّى الى اضطراب افكاره

ومما زاد الطين بلة اننا في عهد وزارته ظهر لنا ظهوراً واضحاً ان ايطاليا لا يجوز الاعتماد عليها في مساعدة عسكرية ، وان مساعي « باربر » اسفرت عن نتائج عظيمة في تلك البلاد التي عاملت الراقص معها — وهو ليس شريكا لها — باخلاص صار طبيعياً مع الزمن

ولما تربع الهرفون (بتمن) في دست الأحكام كانت المسائل قد سويت مع فرنسا بشأن المغرب الأقصى لان الاتفاق الفرنسوي الألماني كان قد أبرم في ٩ فبراير سنة ١٩٠٩ ، وقد اعترف البرنس (بيلوف) في هذا الاتفاق اعترافاً صريحاً بفوز سياسة فرنسا واندحار سياسة المانيا في المغرب الأقصى . فاننا تخلينا عن الغرض الذي وضعناه نصب عيوننا في ابان زيارتي (طنجة) وفي الخطة التي نهجناها في مؤتمر الجزيرة ، وكان سرور الحكومة الفرنسوية بهذا الفوز الحقيقي عظيماً جداً ، وقد أعربت عنه باهدائها وسام جوقة الشرف الى البرنس (رادولين) والهر فون (شوهن) . أما نحن فكنا نعلم انه لم يكن من حقنا ان نفرح بهذه الهدايا

ادورد السابع في برلين

وكان الملك (ادورد) والملكة (الكسندرا) في اليوم عينه يزوران امبراطور المانيا وامبراطورتها الزيارة الرسمية الاولى ، فاستقبلت (برلين) هذا الملك العظيم — بعد تبوئه العرش بثمانية أعوام ـ استقبالاً باهراً لم يظهر فيه شيء من النفور الذي نشأ عن خطته العدائية ازاء المانيا

ولم يكن الملك متمتعاً بالصحة التامة ، بل كانت مظاهر التعب والشيخوخة بادية عليه ، وقد أصيب بزكام شديد ؛ ولكنه قبل مع ذلك دعوة جمعيات التعاون في (برلين) ، وحضر حفلة الشاي التي اقيمت له في (راتهاوز) ، وقد اعلن غير مرة لكثيرين من عظماء (برلين) ان زيارته كانت مرضية له ولي من جميع الوجوه

وأبلغت خالي ابرام الاتفاق الفرنسوي الالماني بشأن (المغرب الأقصى) فأظهر سروره من ذلك ، فقلت له حينئذ « ارجو أن يسهل هذا الاتفاق سبل الصداقة بين البلادين » فأشار برأسه اشارة الموافقة وقال : « وأنا أرجو ذلك أيضاً » ، على انه لو شد أزري في هذه المهمة لما ذهبت آمالى ادراج الرياح

ومهما يكن من الأمر فان زيارة ملك انكلترا وملكتها لبرلين أحدثت جوّاً مشرباً بعواطف الود وجده الهر فون (بتمن) لما قبض على زمام الأحكام

وانفسح مجال العمل للهر فون (بتمن) في عهد وزارته . فقام بمفاوضات خطيرة الشان في المسائل السياسية الخارجية التي تتعلق بالحوادث العظيمة التي وقعت بين سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٤ . وقد نشرت في مختلف البلاد وثائق كثيرة عن هذه المدة أذكر منها كتاب الهر فون (ياغو) الذي عنوانه « أسباب الحرب العالمية »

ويرى القارىء في الوثائق البلجيكية أن خطة ألمانيا في الأزمات الشديدة التي وقعت حينئذ قد درست درساً لا تحيز فيه . وقد وضعت أنا تلك الخطة كما يلي : « الوقوف وقفة الحذر المتأهب للطوارىء من جهة ، وتأييد الحليفة النمسوية المجرية اذا هددت بصفتها دولة عظمى من جهة أخرى . وذلك بعد نصحها بالتساهل والتأني »

وكانت هذه الخطة في الحقيقة خطة « الوسيط الشريف » في كل خلاف ينذر السلم بالخطر مع المحافظة على مصالحنا الخاصة بحزم وعزم

وقد قابلنا ارادة « الخرق » الضمينة التي كان يبديها الخصم بما بذلناه من النشاط لتعزيز جيشنا وأسطولنا ؛ مع العلم بأننا كنا نفعل ذلك دفاعاً عن النفس . وكان مركز المانيا المتوسط ، وحدودها المفتوحة التي لا شيء يحميها ؛ من العوامل التي قضت علينا بهذه التدابير الدفاعية . وقد درس (ستيجمان) هذه الحلقة من التاريخ في كتابه درساً خالياً من الغرض ، وكذلك فعل (فرايد جونغ) أيضاً ، وكتب (هلفريخ) وغيره عن السنوات التي سبقت اعلان الحرب أموراً على جانب عظيم من الأهمية

وفاة ادورد السابع

قضت وفاة (ادورد السابع) بسفري الى (لندن) . ادورد الذي وضع « خطة الخنق » والذي جاء عنه في تقرير سفارة البلجيك في (برلين) ما يأتي : « لم يكن سلم أوربا في زمن ما مهدداً بالخطر العظيم مثله منذ تولى ملك الانكليز أمر توطيده والدفاع عنه » . فشاطرت البيت المالك أحزانه وآلامه لأني كنت مرتبطاً به بروابط القرابة التي شاركتني بها الأسرة والأمة

واستقبلتني الأسرة الانكليزية المالكة في المحطة وشكرتني على مجيئي الى (لندن) للاعراب عن عواطفي نحوها ورافقني (الملك جورج) الى (وستمنستر) حيث وضع النعش المزدان بأجمل معالم الزينة فوق سدة جميلة واسعة . وكان جنود الحرس وجنود من المشاة ومن ألايات الهند والمستعمرات قائمة على حراسة النعش ، منكسة سلاحها كما هي العادة في المآتم . وكان جميع هؤلاء الجنود منكسي الرءوس مكتوفي الأيدي وقابضين على السيوف والبندقيات التي كانت مصوبة الى الأرض

وكانت الكندرائية القديمة القاتمة اللون قائمة بجدرانها العظيمة فوق السدة الملكية ، ولم يكن نور الشمس يدخلها الا أشعة ضئيلة من النوافذ الضيقة . وقد وقعت احدى تلك الاشعة على النعش الذي وضع فوقه تاج انكلترا ، فكانت تنعكس عما فيه من الحجارة الكريمة ، وتنبعث أنوار مختلفة تخلب الألباب

وكانت جماهير لا نهاية لها من النساء والرجال والأطفال على اختلاف الطبقات تسير صامتة مكتوفة الأيدي أمام الكنيسة لتحية الملك المحبوب التحية الأخيرة . وكان هذا المنظر ـ في مثل هذا المحيط الذي يعيد الى الخاطر ذكرى القرون الوسطى — مؤثراً جداً في النفوس

وقد تقدمتُ الى السدة مع (الملك جورج) ووضعتُ فوقها اكليلا

وبينما انا اتمم احدى الصلوات اذا بيدي اليمنى ويد ابن خالي اليمنى قد مدتا الواحدة الى الأخرى واتحدتا بشدة . وقد أثر ذلك في الذين حولنا أعظم تأثير ، حتى أن أحد أقاربي قال لي في المساء : « لأحديث للندن كلها الا مصافحتك لمليكنا هذا الصباح ، فانها وقعت أعظم وقع في النفوس ، وعدها الجميع خير فأل للمستقبل » فقلت : « هذا ما أتمناه من صميم فؤادي »

ولما سرت وراء نعش خالي في شوارع (لندن) ممتطياً جوادي لقيت أقصى درجات الحفاوة من الشعب الانكليزي المحتشد ، وكان عدده ساعتئذ يبلغ بضعة ملايين

وكنت مدة اقامتي في انكلترا نزيلاً على الملك جورج في قصر (بوكينغهام) بدعوة منه . ولقيت من زوجته الملكة (الكساندرا) أعظم مظاهر الاكرام . وكنا نتذاكر معاً أخبار الماضي وأحاديثه

وأقام الملك مأدبة حافلة دعا اليها أمراء البيت المالك وحاشيتهم وسفراء الدول ، وكان المسيو (بيشون) أيضاً في جملة المدعوين فعرفوني به . وفي خلال المحاورات التي جرت بيننا ذكرت له الاقتراحات التي زودني بها المستشار ، وهي تتعلق بمصالحنا في (المغرب الاقصى) وبغير ذلك في المسائل السياسية ؛ فبادر المسيو (بيشون) الى الموافقة على هذه الاقتراحات . وهذه المحاورة هي التي زيدت عليها فيما بعد زيادات خيالية لا ظل لها من الحقيقة

عيوب بتمن هولويغ

لقد كان للشئون الخارجية أهمية خاصة في المدة التي بين سنة ١٩٠٩ و ١٩١٤ وان الارتقاء السريع الذي تناول أعمال التجارة والزراعة والصناعة أوجب علينا الاهتمام بهذه الأمور أيضاً في الداخل . ولكن مما يؤسف له أن المساعي في هذا الباب اعترضتها مشاكل كبرى بسبب الاختلافات الحزبية .

ولقد كان هم المستشار أن ينفذ كل ما يمكن تنفيذه ، لكن الاسلوب

الذي لجأ اليه في تمحيص المشاكل ، والرغبة التي كان يبديها في أن لا يعرض. الا ما انتهى الى استحسانه بعد تردد طويل ، كل ذلك تحوّل مع الزمن ، وصار مضايقة حقيقية

وكان من الصعب جداً أن يقدم على العمل قبل أن يتحقق ضرورته ، وذلك مما يجعل الشغل معه مملا ومتعباً . وان احواله هذه قد حملت البعيدين عنه على القول بأن المستشار رجل مذبذب لا يقر على قرار ، مع انه كان في الحقيقة ذا ضمير حي

ثم جعل المستشار يميل الى التسلط بالتدريج ، فصار عنيداً في المناقشة ، وكان محدثه يرى امامه رجلا يريد أن يكون محقاً في رأيه ، وان يقوم بمهمة المعلم في المدرسة ؛ فيؤنب الذين لا يشاركونه في افكاره . وقد استحق الهرفون (پتمن) بذلك عداء الكثيرين وأحرج مركزي في أحوال كثيرة

وقد أبديت هذه الملاحظة لأحد أصدقاء المستشار ـ وكان رفيق صباه ـ فقال لي ضاحكاً « ان الهرفون (پتمن) كان معروفاً بذلك وهو في المدرسة ، فانه كان يؤنب رفقاءه على التوالي ، حتى انهم أجمعوا على ان يطلقوا عليه اسم المربية » وزاد محدثي على ذلك فقال : ان هذا النقص من أعظم عيوب (پتمن) ومساوئه لان معظم الناس لا يريدون الآن ان يكون لهم « مربية » . ولكن ذلك قد امتزج بدم (پتمن) وجلده ، فلم يعد في طاقته ان يتحول عنه

ومما يدل على مزاج (پتمن) دلالة واضحة معاملته للهرفون (كيدرلن) ، فانه أبدى رغبته في أن يرى (كيدرلن) وزيراً للخارجية ، رغم نصائحي له بأن لا يفعل . ان فون (كيدرلن) رجل نشيط ، غير أن له طبعاً نزاعاً الى الانفراد بالرأي . وجاءني (پتمن هولويغ) في بعض الأيام يشكو اليّ جفاء (كيدرلن) وعدم اذعانه له ، ويطلب مني أن أخاطب الرجل في ذلك بلهجة حازمه . فامتنعت من اجابة المستشار الى طلبه ، وذكرته بأنه هو الذي اختاره لهذا المنصب على خلاف ارادتي

وفي تلك الاثناء ظهر عدم كفاءة (بتمن) لمنصب المستشار ، فقد كان مسالماً من صميم فؤاده ، وظل مصراً الى النهاية على وجوب الاتفاق مع انكلترا مهما كلفه الأمر . واني أدرك جيداً العوامل التي تدفع الرجل المحب للسلم الى السعي لمنع الحرب ، لان هذه الخطة كانت خطتي أيضاً . ولكني وجدت الاسلوب الذي لجأ المستشار اليه للوصول الى هذه الغاية لم يكن صالحاً . ومع ذلك لم أحجم عن شد أزره مع علمي بان مساعيه مصيرها الى الفشل التام

ثم أثبتت الايام ان المستشار كان بعيداً جداً عن الحقائق السياسية ، وانه كان يظن دائماً انه يعرف كل شيء أكثر مما يعرفه سواه . فقد استمر على تلقيني الامثولة تلو الامثولة ، ولم يكن يمنعه عدم تحقيق نظريته من أن يرى نفسه مصيباً ، وآراءه صحيحة ، كما كان يراها من قبل

وكان (بتمن) يعدّ خطبه كلها قبل إلقائها ، فتجيء باهرة ، وتترك أثرها المقنع في نفوس السامعين : وفي هذا من الخطر ما فيه . فان ما يتراءى في الظاهر من قوة خطبه ، ومتانة مشروعاته واقتراحاته ، وما يذكره فيها من أسماء الاخصائيين ورجال الأمة الألمانية والأمم الاجنبية ، وما يأتي به من التفاصيل المبسوطة في كل موضوع ، يترك في النفس اعتقاداً بأن آراءه وأحكامه هي التي يجب الأخذ بها دون غيرها . على أنه بالرغم من كل ما كان يبذله المستشار من الاستعداد والتهيؤ فقد كان يقع في الهفوة بعد الهفوة وبالغلطة على أثر أختها

لماذا لم يعزل بتمن هولويغ ؟

لقد كان (بتمن) في الحقيقة شريكاً في المسئولية عن المصائب التي حلت بنا . ولما عدت من سياحتي في ممالك الشمال سنة ١٩١٤ لم يقدم لي استقالته ، ولكنه اعترف بأنه اخطأ في كل حساباته السياسية . وقد ابقيته في منصبه

بالرغم من ذلك ؛ حتى بعد خطبته في (الرخستاغ) ، وبعد دخول انكلترا في الحرب يوم ٤ اغسطس سـنة ١٩١٤ ؛ لانى رأيت خطراً عظيماً في تغيير اكبر موظف في الامبراطورية في ساعة من اعظم ساعات التاريخ . ولو فعلنا ذلك لأوجدنا القلق في الرأي العام الذي كنا في حاجة اليه للرد على تحرش الحلفاء . ثم ان رئيس الديوان الأمبراطوري والمستشار الخاص نفسـه كانا يزعمان ان ثقة العمال عظيمـة بـتمن . لذلك لم أشأ ان احرم العمال — الذين سلـكوا سلوكاً باهراً سنة ١٩١٤ — من رجل وضعوا ثقتهم به ، كما قيـل لي خطأً او صواباً

وقد كرر رئيس دائرتي الملـكية وممثل الخارجية نفسه القول على مسامعي بلا انقطاع أن العمال هم في جانب بتمن وحده . ومما زاد هذا القول رسوخاً في نفسي التقرير الذي رفع الي وجاء فيـه أن البـلاد تثق بالهر (بتمن) ثقة كـبيرة لابرام الصلح . لذلك ظل (بتمن) في منصبه الى أن قام ولي العـهد ـ كما يعلم الجميع ـ واستشار زعماء الأحزاب في الأمر . فأثبت بعمله هذا أن ما كان يقال عن (بتمن) لا نصيب له من الصحة

وقد ظهر لي هذا الخطأ بوضوح تام بعد ذهاب المستشار الذي نشأ عن أسباب كثيرة أخرى . فان الصحف الاشتراكية والدمقراطية علقت على استعفائه تعليقاً في غير مصلحته

ولا أريد أن تكون هذه الملاحظات ـ التي تمليها عليَّ الصراحة ـ وسيله لالقاء التبعة على (بتمن) والدفاع عن أعمال الآخرين ، ولـكن المسائل الخطيرة الشأن كالتي نحن بصددها اذا عرضت على بساط البحث وجب أن تدرس درساً خالياً من الغرض وبعيداً عن الشخصيات . أما أنا فلم يخامرني أقل شك في أخلاق (بتمن هولويغ) وسمو عواطفه

اصلاح الانتخابات في بروسيا

أرى الضرورة ماسة الى أن أذكر هنا الاصلاح الذي شمل نظام الانتخاب في بروسيا ، لأن ما دار حول ذلك من المذاكرات يدل على تردد (بتمن) في سياسته

لما بدأت حرب الخنادق العنيفة في شتاء سنة ١٩١٤ — ١٩١٥ كان لما أظهره ضباطنا وجنودنا من المآثر الحربية تأثير عميق في نفسي ، فأردت أن أقوم في ميدان السياسة بعمل مجيد يلائم حسن استعمال امتي لمزاياها العسكرية في ميدان الحرب ، ورأيت في ذلك مكافأة للأمة على ما شعرتُ به من فضلها

ولم أبرح - في أحاديثي ومحاوراتي التي أدت الى اصلاح الانتخاب في بروسيا — ادافع عن وجهة نظري في ذلك ، وهي أن يعطي حق الانتخاب لكل جندي يعود الى وطنه بعد مثل هذه الحرب حاملاً نوط الصليب الأحمر . وعند ما فكرت في هذه المسألة تلقيت تقريراً من فون (لوبل) جرى فيه على رأيي في درس مسألة الانتخاب في بروسيا . وضمنه آراء صريحة وصائبة ومقنعة ، فكنت أطلع عليه أناساً كثيرين لشدة سروري به . على أن التقرير يحتوي ملاحظات عامة لا تتناول التفصيل الدقيق ، ومع ذلك كنت أسرّ كلما رأيت واحداً من الذين أسألهم رأيهم في تقرير فون (لوبل) يشترك معه في ملاحظاته . وعقب ذلك شكرت لفون (لوبل) همته وطلبت منه أن يكتب تقريراً آخر يتضمن الاقتراحات المحكمة . وفي ربيع سنة ١٩١٥ تلقيت منه هذا التقرير ، وقد درس فيه الطرائق المختلفة درساً جيداً غير مرجح طريقة على غيرها . فوافقتُ عليه وأرسلته الى المستشار ليتذاكر فيه مع وزير الخارجية في تلك السنة متوقعاً أن يأتيني من الحكومة بعد درس التقرير مشروع قانون مبني على أساس متين أو أن تأتيني اقتراحات أخرى في هذا الباب . وان مشروع القانون من شأنه أن يعرض على (الرخشتاغ) بعد الحرب بطبيعة الحال

وذهبت بعد ذلك الى (بلس) ، وكانت جيوش پولونيا وغاليسيا قائمة بمعركة (غورليس ـ تارنوف) فجعلت أراقبها باهتمام عظيم ، وانتهت المعركة بانكسار العدو انكساراً مدهشاً استرجعنا به (لمبرغ) و (پرزميسل) واستولينا على (فارسوه) و (ايڤا نغرود) و (مودلن) و (بريست ليتوفسك) وغير ذلك من المدن .

وتلبد الأفق يومئذ بحادثة (لوزيتانيا) ، ونقضت ايطاليا عرى اتفاقها معنا ، فلا بدع أن يكون تقرير (لوبل) بعد كل ذلك في المرتبة الأخيرة من الشئون التي كنت أفكر فيها

وجاء شتاء سنة ١٩١٦ وصيفها ، ونشبت حروب عظيمة في كل الميادين ولا سيما في (السوم) و (رومانيا) فحضرتُ الى كل الجبهات في الشرق والغرب ، وذهبت الى (نيش) حيث اجتمعت بملك البلغار .

وفي ربيع سنة ١٩١٧ أمرتُ المستشار بأن يصدر في عيد الفصح بياناً الى الامة عن القانون الجديد ، وكنت أظن أن وزير الخارجية انتهى من درس التقرير منذ عهد بعيد • فلما جاءني المستشار بمتن البيان الذي يراد نشره على الامة لم أجد فيه تصريحاً بالطريقة الجديدة للانتخاب، لأن (بتمن) لم يكن بعدُ قد أصدر حكمه في هذه المسألة ؛ فألقي في روع الأمة أن هذا الاصلاح سيشرع به بعد الحرب لأن الفريق الاكبر من الوطنيين موجودون في ميادين القتال • ولقد فعلت الاحزاب والصحف يومئذ كل ما استطاعت فعله لتحول دون الوصول الى ما أردته من هذا المشروع • وبعد أن استقال (بتمن هولويغ) قال فون (لوبل) ان تقريره لم يعرض على الوزارة سنة ١٩١٥ لدرسه وظل مهملاً مدة سنة ونصف سنة • ان المستشار كان في معزل عن طرائق الانتخاب المعروضة للدرس بتأثير الرغبات التي أعربت البلاد عنها، ولم يكن يهتم بمبدإ اشتراك جميع الامة في الانتخاب . وهكذا ذهبت فكرتي أدراج الرياح بسبب عدم مبالاة (بتمن هولويغ) وبسبب الاختلافات الحزبية

لقـد كان لى أمل واحد وهو أن أقابل جيشي الظافر ، وأمتي المسلحة والبروسيين الشجعان ، باصلاحات أنظمها على ما أشتهى

صلة المستشار بالامبراطور

في الدستور

كانت رغبة (بتمن) المؤسفة في السيطرة والتسلط سبباً في انقاص قدر الخارجية ، وجعل وزيرها موظفا بسيطاً ، بحيث صارت وزارة الخارجية مصلحة ملحقة بمنصب المستشار

وكان (بتمن) يدّعي بازائي استقلالا واسع النطاق ، مستنداً في ذلك الى الدستور الذي يلقي على عاتق المستشار وحده تبعة السياسة الخارجية ، فجعل يعمل حسب أهوائه وميوله . ولم تكن وزارة الخارجية تنقل اليّ الا مايريده المستشار ، بحيث فاتني الوقوف على كثير من الشئون المهمة . ولا ريب في أن الذنب في وقوع هذه الحوادث يعود الى الدستور

واني أرى نفسي مضطراً في هذا المقام الى الكلام على صلات الأمبراطور بالمستشار . ولا أريد أن أبحث فيما وقع بيني وبين بتمن ، بل في المشاكل التي أقامها الدستور بين الأمبراطور الألماني ومستشار الأمبراطورية . وهذه أهم الأمور الأساسية في هذا الباب :

١ — يقضي دستور الأمبراطورية بأن يدير المستشار سياسة ألمانيا الخارجية ، ويمثلها ، ويدافع عنها على مسئوليته . فبعد ما يرفع تقريراً عنها الى الأمبراطور يعهد بتنفيذها الى وزارة الخارجية التي هي تحت امرته

٢ — ليس للأمبراطور في الشئون الخارجية الا النفوذ الذي يريد المستشار أن يتركه له

٣ — يستطيع الأمبراطور أن يستعمل هذا النفوذ بطريق المناقشات ، والمعلومات ، والاقتراحات ، والتقارير التي ينظمها في ابان سياحاته . فتكون

هذه التقارير متممة للتعليمات التي تعطى للسفراء ولممثلي البلاد التي يزورها الامبراطور شخصياً

٤ — للمستشار ان يوافق على عمل من أعمال الامبراطور ، وأن يتخذه أساساً لقراراته ، اذا كان على رأي الامبراطور فيه . والا فانه يستمر على خطته ويعمل بما يراه مناسباً : « التلغراف الى كروغر »

٥ — لم يخول الدستور امبراطور المانيا أقل سلطة تمكنه من اكراه المستشار ووزارة الخارجية على قبول آرائه . فهو لا يستطيع أن يحمله على نهج سياسة معينة مالم ير المستشار من واجبه ان يتحمل تبعة هذه السياسة . واذا أصر الامبراطور على رأيه فللمستشار ان ينذره بالاستعفاء أو ان يستعفي فعلا

٦ — وليس للامبراطور من جهة أخرى وسيلة دستورية تمكنه من منع المستشار ووزارة الخارجية من نهج خطة يراها خطرة أو مبنية على الخطأ . واذا أصرّ المستشار على رأيه فليس للامبراطور غير انتقاء مستشار آخر، ولكن هذا العمل محفوف بالصعاب ، وهو عظيم التأثير في الامة ، وقد كان خطره مخيفاً في ابان الازمات السياسية . ولذلك لم يكن بد من التأني قبل الاقدام عليه ، لا سيما وان عدد الرجال الجديرين بمنصب المستشار قليل جداً ، رغم كثرة الطامحين اليه

لقد وجد منصب المستشار لتتربع فيه شخصية نادرة كشخصية البرنس (بسمرك) ولكن نطاقه اتسع مع الزمن بل أخذ يبعث على القلق باتساع دائرة المصالح الامبراطورية التي وضعت تحت إمرة المستشار المسئول

اذا أنعمنا النظر في هذه الأحوال ، رأينا — خلافاً لما رآه الكثيرون في آخر أعوام الحرب وبعد الحرب — انه لا يحق « للذين يعرفون كل شيء » أعني الثوار الخداعين في بلادنا وفي بلاد الحلفاء أن يجعلوا الامبراطور وحده مسئولاً عن كل شيء . واني بصرف النظر عما يتعلق بي شخصياً أرى أن هذا العمل يدل دلالة قاطعة على جهل مطبق بما كان عليه الدستور الألماني

زيارة قيصر روسيا بوتسدام

كانت زيارة قيصر روسيا مدينة (پوتسدام) في نوفمبر سنة ١٩١٠ باعثة على الارتياح . وقد انتهز المستشار والهر فون (كيدرلن) هذه الفرصة للاتصال بالمسيو (سازانوف) . وظهرلنا أن عظيم الروس كان شديد السرور بما شاهده في ألمانيا . وكانت المفاوضات التي تدور بين رجال الدولتين تدعو الى الأمل بالمستقبل ، لذلك كان كل من الفريقين يشعر بالاطمئنان ، راجياً أن العلاقات بين روسيا وألمانيا ستدخل في دور جديد سعيد

ولما جئت بعد ذلك الى جزيرة (كورفو) لأمضي فيها فصل الربيع كانت ثورة الماليسوريين قد نجم قرنها ، وكان اليونانيون يراقبون أطوار هذه الثورة عن كثب . وكانت تأتي الأخبار الجمة الى (كورفو) عن تهريب السلاح بين ايطاليا وبلاد الأرنؤوط بطريق (أولونيا) . وكانت الأندية اليونانية ترى أن ايطاليا والجبل الأسود يمثلان على هذا المسرح دوراً . على أنه لم يكن أحديتوقع أن تنشأ عن هذه الحوادث أمور جديدةتقلق البال

سياحتي الى لندن

بمناسبة الاحتفال بتمثال الملكة فكتوريا

في أوائل سنة ١٩١١ تلقيت كتاباً مشرباً بروح الود من الملك (جورج) الانكليزي دعانا فيه انا والأمبراطورة الى زيارة (لندن) لحضور الاحتفال بازاحة الستار عن تمثال جدتنا الملكة (فكتوريا) . فلبيت الدعوة في أواسط مايو ، وأبحرت الى (لندن) انا والامبراطورة وكريمتنا ، فاحتفت بنا الأسرة الانجليزية المالكة احتفاء كبيراً ، واستقبلنا سكان (لندن) استقبالاً ودياً باهراً

وقد نظمت حفلة ازاحة الستار بمهارة زادتها رونقاً وجلالاً ، فوضعت المقاعد حتى التي خصت بالمدعوين حول الساحة الكبيرة القائمة أمام قصر

(بوكنغهام) بشكل نصف دائرة ، واصطفت الجنود من جميع الأسلحة والآلايات بملابسها الرسمية ، وكان الفرسان ورجال المدفعية كلهم مشاة . وقد جمعت الأعلام والرايات ، ونشرت حول التمثال الذى وقفت أمامه الأسرة الانكليزية المالكة وضيوفها ورجال حاشيتهم

وألقى الملك (جورج) خطبة تناسب المقام حيا فيها امبراطور ألمانيا وامبراطورتها وكان لها أعظم وقع في النفوس

ثم أزيح الستار عن التمثال ، فعلا هتاف الشعب ، وأدى الجنود التحية العسكرية . وظهرت الملكة حينئذ جالسة على عرش تكتنفه تماثيل ذهبية صغيرة حاملة اكاليل الغار ، فكان المنظر مؤثراً الى حد يعجز القلم عن وصفه

وبدأت حفلة العرض ، فمرت فصائل الحرس ، ثم فصائل « هيجلاندر » بملابسها الجميلة اللامعة ، ثم فصائل الفرق الأخرى كلها . وتمت حفلة العرض في دائرة الساحة عينها ، فكان الجناحان الأيمن والأيسر يسيران بسرعة بينما القلب يخطو وهو في محله . وهذا العمل من أصعب الأعمال العسكرية ، ومع ذلك نفذ ببراعة تامة فلم يخرج جندي واحد من صفه

وقد كوفيء (الدوق كنوت) الذي نظم هـذه الحفلة بتصفيق شديد عام كان جديراً به

ثم دعينا في يوم آخر الى حضـور الألعاب الرياضية التي قام بها رجال الجيش والأسطول . وقد تمت هذه الألعاب ببراعة لا توصف سواء كانت شخصية قام بها كل جنـدي على حدة راكباً وماشياً ، ام عامة اشتركت فيها القوات كلها

وقد أسهبتُ فيما ذكرته عن مأتم الملك (ادورد السابع) ، والاحتفال بإزاحة الستار عن تمثال الملكة (فكتوريا) ، بوصف مظاهر الأبهة الخارجية التي تصحب جميع الحفلات الكبيرة في انكلترا . فان مظاهر الأبهة التي هي من آثار القرون الوسطى تجد في انكلترا البرلمانية ، التي يسمونها دمقراطية ،

عناية أعظم من العناية التي تجدها في آلمانيا الامبراطورية

***

اتجهت انظار العالم مرة أخرى الى موقف فرنسا في (المغرب الاقصى) ، ذلك الموقف الذي سوّي في (معاهدة الجزيرة) . وقد رجاني المستشار أن انتهز الفرصة الملائمة لأفهم رأي الملك (جورج) في مسألة المغرب الأقصى . لذلك سألت جلالته : هل يرى أعمال فرنسا في تلك البلاد تتفق مع معاهدة الجزيرة أم لا ؟ فرد قائلاً ان هـذه المعاهدة اهملت فعلاً ، وأن الأوفق وضعها في سلة المهملات . والحقيقة أن فرنسا لم تنهج في (المغرب الأقصى) غير الخطة التي كان ينهجها الانكليز في(مصر) . لذلك لم يكن في امكان انكلترا أن تقيم المشاكل في وجه الفرنسويين ، بل كانت مضطرة الى تركهم وشأنهم يفعلون ما يشاءون ، فلم يبق بدّ من قبول الأمر الواقع فيما يتعلق بالاحتلال والاتفاق مع فرنسا للحصول على تسهيلات تجارية

وانتهت الزيارة من غير أن يقع فيها ماياباه الذوق ، وأعرب سكان (لندن) على اختلاف طبقاتهم عن عطفهم العظيم على ضيوف مليكهم كلما سنحت لهم الفرص

وعدت أنا والملـكة الى المانيا بعواطف حسنة وآمال كبيرة . وقد أعرب المستشار عن ارتياحه الى التقرير الذي قدمته اليه في هذا الشأن ، واستنتج من عبارات الملك (جورج) ان انكلترا تعدّ معاهـدة الجزيرة مهمـلة ، ولا تعارض في احتلال (المغرب الأقصى)

وحينئذ بدأت وزارة الخارجية تنهج الخطة التي رسمها المستشار نفسـه ، والتي أدت الى حادثة (اغادير) ، آخر عمل مشئوم قمنا به للاحتفاظ بشيء من نفوذنا في (المغرب الأقصى)

واشتدت الازمة في « اسبوع كيال » وقد ابلغني وزير الخارجية انه ينوي ارسال البارجة « پانتير » الى (المغرب الأقصى) ، فرفضت ذلك بشدة ، ولـكني اضطررت الى الرضوخ امام الحاح الخارجية وتشديدها

السر ارنست كاسل وبلاغه الشفهي

في النصف الأول من سنة ١٩١٢ وصل السر (أرنست كاسل) الى (برلين) حاملاً مذكرة شفهية فحواها ان انكلترا تتعهد بالبقاء على الحياد في كل حرب لا تضرم ألمانيا نارها . وذلك مقابل تحديد السلاح البحري الألماني . وكانت انكلترا ترمي من هذه المذكرة الى حملنا على اهمال المشروعات التي وضعناها لتعزيز الأسطول . وقد كان جوابنا على ذلك داعياً الى مواصلة المفاوضات ، وتكليف اللورد (هلدان) اتمامها في (برلين)

ولكن المفاوضات فشلت أخيراً بسبب تشدد انكلترا (السر ادورد غراي) . ثم انتهى الأمر بأن أنكرت الحكومة البريطانية اللورد (هلدان) وسحبت المذكرة الشفهية لأن السر (ادورد غراي) خشي استياء الفرنسويين من الاتفاق الألماني الانكليزي وتعريض التحالف الفرنسوي الانكليزي الروسي الى الخطر

وهذه تفاصيل الحادثة كما وقعت :

فى صباح ١٩ يناير سنة ١٩١٢ وصل (بالين) الى قصر (برلين) وطلب مقابلتي ، فتوهمت انه جاء للمعايدة ولو متأخراً . وما كان أشدّ استغرابي لما قال لي بعد مقدمة قصيرة ان السر (ارنست كاسل) الذي وصل (برلين) بمهمة غير عادية أوفده ليلتمس مقابلتي . فسألت (بالين) هل هذه المهمة سياسية أم لا واذا كانت سياسية فلماذا لم تطلب المقابلة على يد سفارة انكلترا ؟ فقال لي بالين انه فهم من (كاسل) ان المسألة على أعظم جانب من الاهمية ، وان السفير أهمل أمره لان (لندن) لاتريد ان تسويها على يد الساسة الالمان ولا الانكليز . فقلت : اني مستعد لمقابلة السر (أرنست كاسل) في الحال . وزدت على ذلك اني سأضطر الى اعلام المستشار بالمسألة اذا كانت ذات صبغة سياسية لان الواجب يقضي علي بذلك بصفتي ملكاً دستورياً ، ولانه لا يمكنني ان أفاوض ممثل دولة أجنبية خلسة عن المستشار

وخرج (بالين) ثم عاد ومعه (كاسل) الذي قدم لي مـذكرة كتبت « بمعرفة الحكومة البريطانية وموافقتها » . فنظرت الى تلك القصاصة الصغيرة من الورق ، ودهشت اذ رأيتها تتضمن تعهداً ببقاء الانكليز على الحياد اذا أكرهت المانيا على الحرب ؛ ولا يطلب من المانيا مقابل ذلك سوى موافقتها على تحديد السلاح البحري . وسيتم الاتفاق على هذا التحديد في المفاوضات المقبلة التي تسفر عن معاهدة تعقد بين الدولتين

ودعوت (بالين) الى الغرفة المجاورة ، وناولته قصاصة الورق ، فما كاد يتم قراءتها حتى فهنا معاً بعبارة واحدة « انها مذكرة شفهية »

وكانت هذه المذكرة الشفهية موجهة الى القانون البحري الجـديد الذي أردنا عرضه على المجلس ، وتتوخى تأجيله أو احباطه . وقد وجـدت نفسي في حالة فجائية استغربها (بالين) فقد تذكرت موقفي في « كرونبرغ فريدريخسهوف » سنة ١٩٠٨ لما رفضت الطلب الذي عرضه عليّ المستر هردنغ وزير خارجية انكلترا شخصياً ، ولم يقصد منه الامنع نمو الاسطول . واليوم تقدم الى امبراطور المانيا صديق حميم للملك (ادورد السابع) من غير ان يسبقه بيان رسمي ، وهو يحمل مذكرة شـفهية أملتها عليه الحـكومـة الانكليزية وأعطته التعليمات الصريحة بجعل مساعيه خارجة عن دائرة السياسة في البلادين

لقد عرض عليّ حياد انكلترا التام في كل خلاف تنشأ عنه الحرب ، مقابل تعهد المانيا بتحديد اسطولها . وكانت انكلترا هي التي عرضت هذا الاقتراح ، انكلترا وطن « الدستوريين » . ولما لفتُّ أنظار (بالين) الى ذلك قال : « أين أنت أيتها الروح الدستورية ؟ » . وهذا ما يمكن تسميته « السياسة الشخصية المقرونة بالانتقام »

واتفقت مع (بالين) على أن ندعو (بتمن) في الحال وأن نطلعه على هذا الاقتراح ثم نقرر الخطة التي يجب انتهاجها في هذه الاحوال الغريبة

ودعي (بتمن) بالتلفون فلبى الدعوة على جناح السرعـة . وقد أظهر

دهشته واستغرابه في بدء الأمر فكان منظره غريباً ونحن نقص عليه الحديث

واقترح المستشار ان نعلم الاميرال فون (تربيتز) وزير البحرية بالامر وان نفاوضه فيما يتعلق بوزارته من هـذا الاقتراح. وأخيراً تم الاتفاق على اعداد جواب باللغة الانكليزية لايختلف معنى ومبنيً عن مذكرة السر (ارنست كاسل) ليسافر به الى (لندن) في مساء ذلك اليوم عينه. ووقع اختيارنا على اللغة الانكليزية خوفاً من الالتباس أو سوء التفاهم الذي ربما يتخلل الترجمة في (لندن)

ورجا مني المستشار أن اضع المذكرة لاني كنت أجيد الانكليزية، ففعلت بعد تردد. وأسفرت النتيجة عن المشهد التالي: انا جالس امام المائدة في غرفة المرافقين (الياورين) والرجلان واقفان الى جانبي. وكنت أقرأ بصوت عال كل عبارة من عبارات المذكرة الانكليزية، ثم اضع الرد عليها وأتلوه، فتنهال علي الاعتراضات من اليمين واليسار، بدعوى ان في هذه الجملة افراطاً، وفي تلك الجملة حدة؛ فكانت العبارات تكتب ثم تصلح ثم تعدّل وتحسن. وكانت مصيبتي كبيرة بالمستشار الذي استعمل كل فلسفته في وزن الالفاظ ودرس العبارات وتمحيصها، حتى عانيت منه كل ما في النحو والانشاء من العذاب والآلام

واستمرّ هذا العمل ساعات متوالية. ولما انتهت المذكرة، وتناقلتها الايدي مراراً عديدة قرأتها بصوت عال أكثر من ست مرات الى ان انتهى الامر بتوقيعها

وقبل ان نفترق سأل المستشار السر (كاسل) عن الرجـل الذي تنتدبه انكلترا لمفاوضتنا فقال (كاسل) انه سيكون من الوزراء بلا جدال ولـكنه لايعرف من هو وان كان يرجح المستر (ونستن تشرشل) وزير البحرية لان المسألة ذات صلة بالشؤون البحرية

وقد اتفق المستشار مع السر (ارنست) على العمل باسلوب غير رسمي،

واختيار (بالين) لنقل الآراء التي تأتي من انكلترا في هذا الشأن

وشكرنا السر (ارنست) شكراً جزيلاً على مقابلتنا الودية له ، وأعرب بصراحة عن ارتياحه الى فحوى الرد الذي أرسلناه معه

ولما عاد (بالين) بعد مدة الى نزله قال لي : ان (كاسل) كان مسروراً جداً من نتيجة مهمته ، وانه ذهب بعواطف حسنة سيعرب عنها لحكومته

وفاوضت الاميرال (تربيتز) في هذه المسألة فرأيته على اتفاق معي في ان مشروع القانون البحري بات في خطر ؛ وان الواجب يقضي بمضاعفة العناية بشأنه

وقد جمعت بطريقة سرية جميع الوثائق اللازمة للاميرال (تربيتز) في ابان المفاوضات . وكتبت نبذة تاريخية مختصرة عن نقدم اسطولنا ؛ وعن الواجبات العديدة الملقاة على عاتقه . وكان مشروع القانون البحري ينص على الغاية من الاسطول ، وعلى وسائل ترقيته وطرق تنفيذها ، وعلى ضرورة تعزيزه وزيادة عدد قطعاته

ثم عرض مشروع المعاهدة مع التنويه باهميته وطرق تنفيذه . وتم الاتفاق مع المستشار على أن تدور المفاوضة امامي في القصر . واتفقت أيضاً مع الاميرال (تربيتز) على ان يتكلم بالانكليزية بقدر الامكان ، وعلى ان اقوم بمهمة المترجم اذا وردت عبارات صعبة . وقد نظرنا الى جميع الاحتمالات قبل ان نعرف اسم المفوض الانكليزي المنتظر . وكان (بالين) ينقل الينا الاقتراحات المختلفة التي ورد فيها ذكر كثيرين من الرجال ، حتى (ادورد غراي) نفسه . ثم بلغنا في نهاية الامر ان (هلدان) وزير الحربية وأحد المحامين السابقين هو الذي كلف بمفاوضتنا وانه على أهبة المجيء الى (برلين) فوقع ذلك موقع الاستغراب في نفوسنا . وقلنا انه كان في طاقة المانيا أن توفد وزير الحربية — وكان حينئذ الهرفون (هيرنغن) — الى لندن محل الاميرال (تربيتز) للمفاوضة في مسألة بحرية . وتكلمت مع (بتمن) و (تربيتز) عن اختيار (هلدان)

للمفاوضة وحاولنا أن نجد له سبباً . فكان المستشار يرى ان (هلدان) هو في نظر الانكليز الرجل الذي اكتشف (غوت) وعرف الفلاسفة الالمان معرفة تامة وانه لا بد أن يكون معروفاً في المانيا فاختياره للمفاوضة انما هو من قبيل المجاملة

وقال (تربيتز) ان (هلدان) جاء الى (برلين) قبل هذه المرة واشتغل مع الجنرال فون (اينم) في وزارة الحربية نخبر المحيط الذي أرسل للعمل فيه

أما أنا فقلت ان هذه الملاحظات ربما كانت ذات تأثير في انتقاء (هلدان) ولكن لا يبعد أن تكون الحكومة قد اختارته ـ بالرغم من عدم وقوفه على الشئون البحرية الوقوف المطلوب — رغبة منها في اعطاء المسألة شكلا سياسياً بحتاً ، ومن المحتمل أن تكون هذه المسألة كلها موجهة الى سياسة المانيا عامة والى القانون البحري خاصة ، لذلك يجدر بنا ان لا ننسى هذه الملاحظة فنقع في شرك يؤدي الى تدخل الأجنبي في شئوننا ويمنعنا من تنظيم قواتنا المسلحة باستقلال وحرية تامين

مفاوضات (هلدان)

ووصل (هلدان) فحل ضيفاً عليّ . وقد استطاع (بالين) الذي كان يصحبه أن يحل هذا اللغز ، بفضل الأخبار الواردة عليه من انكلترا ، وان يفهمنا السبب في اختيار (هلدان)

لما عاد (كاسل) الى (لندن) ، وبسط للحكومة نتيجة مهمته ، وسلمها المذكرة ، ساد الشعور بملاءمة الأحوال ، ولم يعد أحد يشك بنجاح المفاوضات وابرام الاتفاق . وكان الوزراء ولا سيما (تشرشل) و (غراي) يتسابقون الى شرف المجيء الى برلين لوضع أسمائهم في أسفل الوثيقة التاريخية العظمى التي تقضي على ألمانيا بأن تتنازل عن تعزيز اسطولها

وقد اعلن (تشرشل) انه هو الرجل الذي يجب ان يفاوضنا بصفته وزيراً

للبحرية . ولكن (غراى) و(اسكويث) لم يرقهما السماح لزميلهما بأن يحلق امامهما في جو المجد والفخار

واشتد الميل الى ارسال (غراي) ، وهذا دليل آخر على ان المسألة كانت سياسية أكثر منها مسألة احصاء للبواخر . ولكن الآراء اجمعت في النهاية على أن الاجدر بغراي وهو في هذا المقام أن لا يظهر الا في آخر المفاوضات ليضع توقيعه في أسفل المعاهدة أو ـ كما جاء في المعلومات التي تلقاها (بالين) من انكلترا ـ ليتناول طعام الغداء مع الامبراطور، ويشترك في الاحتفالات ، ويشهد الالعاب النارية ، و ـ بالالماني الفصيح ـ لكي يرى معالم الزينة ..

وبما أن الرجل الذي يبدأ في المفاوضة لا يمكن أن يكون (تشرشل) فمن الواجب ان يقع الاختيار على رجل يعرفه (اسكويث) و (غراي) حق المعرفة ويقبل أن يقوم بمهام المفاوضة حتى يصل بها الى دور الاحتفالات ، ويجب فوق ذلك ان يكون معروفاً في (برلين) وغير غريب عن ألمانيا

والحقيقة أن تشرشل لم يكن مجهولا في ألمانيا ، لانه شهد في بعض الاحيان حفلات عرض الجنود الامبراطورية في (سليزيا) و (ورتنبرغ) بصفته ضيفاً على الامبراطور

وكان مصدر المعلومات التي يتلقاها (بالين) من انكلترا جديراً بكل ثقة، وقد أعلن (بالين) انه يكفل صحة اخباره

ولفت انظار الهر فون (تربيتز) وزير البحرية قبل بدء المفاوضات الى ان (هلدان) ربما يكون استعد لدرس الموضوع ، وان يكن وزيراً للحربية ؛ ولا بد من أن يكون قد تلقى معلومات دقيقة واضحة من وزارة البحرية الانكليزية التي كان الاميرال (فيشر) روحها ودماغها

وكان (فيشر) قد وضع بين المباديء التي يلقنها ضباط البحرية البريطانية عبارة تلفت الانظار ، وتدل على ذهنية الاميرال وذهنية مساعديه وكل ابناء أمته ؛ وهي بالحرف الواحد : « اذا كذبتَ فاثبت على كذبك »

وقد قلت لتربيتز : يجب ان لا ننسى ان الانكليز السكسونيين يتكيفون بسهولة تامة تجعلهم يقبلون الوظائف التي لا تتفق مع حياتهم العادية ومعارفهم . ثم ان الاهتمام العظيم بشئون البحرية في انكلترا يجعل كل انكليزي ـ له شيء من العلم ـ خبيراً بالشئون البحرية

وفي الواقع ان (هلدان) برهن على سعة الاطلاع في ابان المفاوضة ، وكان خصما بارعاً شديد الوطأة ، فاستعمل كل مزايا المحامي ببراعة نادرة . واستغرقت المفاوضة بضع ساعات فأسفرت عن جلاء الامور بوجه عام وعن اتفاق وقتي على تأجيل انشاء البوارج التي كانت في دُور الصنعة

ثم سافر (هلدان) بعد مفاوضات احسن (تربيتز) التصرف فيها ، واشترك (بالين) في بعضها . وقد ابلغني (بالين) ان (هلدان) أعلن ارتياحه الى نتيجة مهمته من كل الوجوه ، وانه يعتقد بامكان اعادة هذا المشروع الينا بعد اسبوع أو اسبوعين

المناورة الانكليزية

وتوالت الايام ودنا الموعد الذي ضربناه لعرض المشروع البحري على الرخشتاغ . وقد اقترح (تربيتز) تعديل هذا المشروع تعديلا ملائما لروح الاتفاق اذا ابلغتنا انكلترا موافقتها على مساعي (هلدان) ، والا فانه يعرض من غير تعديل

ولكن المشروع لم يصلنا من (لندن) ، بل وصلتنا منها مذكرة تتضمن أسئلة عديدة مختلفة وتطلب معلومات متممة . ولم يكن لنا بد من الدرس الدقيق ، والمناقشات الطويلة ، قبل الرد على هذه المذكرة . وقد بدأتُ منذ ذلك الحين أشك في ان الانكليز يرغبون حقيقة في الاتفاق

وكانت الاسئلة تتلو الاسئلة وكنا نرى منهم اهتماماً بامور ثانوية لا صلة لها بالاتفاق . ثم جعلت انكلترا تنقض بالتدريج ما عرضته علينا ، وماوعدتنا

به ، الى أن عدلت عن اعادة مشروع الاتفاق الينا

ونظمت يومئذ حملات شديدة في (برلين) على المشروع البحري وعليّ وعلى (تربيتز). وهذه الحملات وجهت الينا من كل الجهات. وكان بعض القائمين بها من الاندية الرسمية ، وبعضهم من الاندية الشبيهة بالرسمية. أما المستشار فانه كان يملل نفسه بالاتفاق مع انكلترا ، ويستعد لأن يوقع امضاءه في أسفل وثيقة تنقذ المانيا من سياسة « الخنق » ، وتمهد لها سبل التفاهم مع الحكومة البريطانية . لذلك حمل هو أيضاً على المشروع البحري وطلب العدول عنه

ولكن العدول عن المشروع في مثل تلك الاحوال كان يمكن ان يؤوّل بأن المانيا اعترفت لدولة أجنبية بحق التدخل في الشئون التي تتعلق بالدفاع الوطني . فاذا أكرهنا على الحرب بعد ذلك وجدنا سيادتنا القومية وقوانا الدفاعية في خطر ، لذلك يجب على المانيا ان تحصل على ما يعادل التضحية التي تقدمها ، والا فانها تسلم زمام أمورها لالد أعدائها ، وتكون قد فعلت ما تسمح لها انكلترا به خدمة لمصالحها الخاصة

وقد أحدث هذا الموقف المبهم اختلافا في الرأي

واشتدت علينا الحملات القاسية من أناس لا خبرة لهم بالشئون البحرية وليس لهم غاية معينة . وقد نظر الاميرال فون (تربيتز) في ذلك الشتاء ـ الذي كان شديد الوطأة عليه كما كان عليّ ـ الى الحالة الحاضرة بكل ثقة ورباطة جأش كأنه القائد الذي يدافع عن وطنه المحبوب ويستثير حماسة جنوده في ابان المعركة

أما أنا فقد ساعدته جهد طاقتي ، وهل كان يمكنني أن لا أفعل ذلك في الاحوال التي وصفتها ؟ انه لا يجوز لاية دولة اجنبية ان تشترك معنا في تقرير ما يجب علينا أن نفعله دفاعاً عن أنفسنا

وكانت الآمال التي عقدناها على امكان الاتفاق مع الانكليز تضعف يوما فيوماً ، وكان اهتمام انكلترا بالامر يقل بالتدريج ، حتى أنها أنكرت الاقسام

المهمة من « مذكرتها الشفهية » ، فادركنا حينئذ أنا والاميرال (ترپيتز) ان الاقتراح كله لم يكن الا مناورة

الاختلاف على المشروع البحري

واشتد الخلاف على المشروع البحري وتفاقم شره • وحدث مرة انى اجتمعت فى مدينة (كوكسهاڤن) بالدكتور (بورشار) رئيس مجلس أعيان (همبورغ) وكان احترامي عظيما لهذا الرجل الذي كان قدوة الارستقراطيين في مدن الاتحاد الهانسيتيكي [1] كلها ، وقد سبق لي ان استشرته مراراً في امور سياسية خطيرة الشان ، فلما اجتمعت به في هذه المرة أخبرته بتفاصيل « المذكرة الشفهية » والخلاف القائم في (برلين) بين مؤيدي قانون التسليح البحري الجديد ومعارضيه ، ثم رجوت منه أن يعرب لي عن آرائه بكل صراحة كما كان يفعل دائماً ومن غير أقل محاباة ؛ وكنت اريد ان اسمع رأياً جدياً لم تؤثر فيه آراء (برلين) المتناقضة ؛ فرد الدكتور (بورشار) على سؤالي في الحال بما امتاز به من الأساليب الدقيقة الواضحة التي تقنع وتفحم وقال : ان واجب الامبراطور ازاء الشعب والأمة هو الدفاع عن القانون البحري • وكل من يعارض في تنفيذ هذا القانون يسيء الى واجباته الوطنية . ثم قال : « يجب ان نعمل كل ما في طاقتنا للدفاع عن أنفسنا • ولكننا ــ قبل كل شيء ــ لا يمكننا أن نسمح لدولة اجنبية بأن تجرأ على سن القوانين في بلادنا • وليس الاقتراح الانكليزي سوى خدعة ترمي الى حملنا على اهمال القانون البحري . لذلك يجب ان لانهمل هذا القانون مهما اقتضت الحال . والشعب الألماني لا يستطيع ان يفهم كيف يترك حقه في السيادة القومية تحت رحمة الآخرين . فالقانون البحري يجب والحالة هذه أن ينفذ في أقرب آن »

وزاد الدكتور (بورشار) على ذلك فقال انه سيسعى في (مجلس الامبراطورية) لتحقيق هذا المبدأ « وقد القى بالفعل خطبة مؤثرة كلها حجج مقنعة » كما يسعى في (برلين)

(١) انظر ص ٤٩

ثم قال : « ان الانكليز سينقمون بلا جدال ، ولـكن ماذا يهمنا ذلك و؟ ناقمون منذ زمن طويل ؟ انهم لا يعلنون الحرب علينا لهذا السبب . والاميرال (تربيتز) لم يفعل سـوى واجبه ، ولم يقم بغير ما توجبه التبعة الملقاة على عاتقه . ومن واجب الامبراطور أن يؤيده بكل قواه . أما المستشار فالأجدر به أن يمتنع من معارضته والا كان في نظر الشعب صنيعة لانكلترا وعرّض نوافذ بيته لان ترمى بحجارة المتظاهرين »

هذا ما قاله لي ممثل المدينة التجارية العظمى التي تلقى الصدمة الأولى اذا نشبت الحرب مع انكلترا ، وكان يعرب في كلامه عن روح الاتحاد الهانسيتيكي

والغريب في الأمر أن هولندياً أطلعه الانكليز على غايتهم أعرب عن مثل الرأي الذي أعرب عنـه الدكتور (بورشار) . لذلك كنا أنا و(تربيتز) محقين في اعتقادنا بان اقتراح الحياد لم يكن سوى مناورة سياسية

وجعلت أنباء (بالين) ترد على (برلين) معلنة أن الحالة ليست على مايرام فى انكلترا . ودلت المعلومات الاخيرة التي وصلت الينا على أن الخلاف اشتد كثيراً بسبب مشروع الاتفاق . ولم يكن القوم راضين عن (هلدان) بل كانوا يتهمونه بانه وقع في شرك (تربيتز) . وكانت نقمة الانكليز هذه دليلاعلى ان (تربيتز) لم يقع في الشرك الذي نصب له ، وانه أحسن صنعاً بتمسكه بالمشروع البحري ، الذي أراد (هلدان) أن يقدمه للوزارة الانكليزية ، ساخناً على طبق الشاي

والحقيقة ان تهمة الخداع التي ألصقت بألمانيا وان لم تكن في محلها فقد برهنت على أن (تربيتز) لم يكن مقصراً ، كما أن الانتقادات التي وجهها الانكليز الى (هلدان) أيدت ما كنا نعتقده من ان (هلدان) هو الذي تلقى الأمر بان يخدع الالمان . وبما ان مواطنيه أدركوا خيبة آمالهم فن الواجب أن يشكر الاميرال (تربيتز) لدفاعه المجيد عن سلامة الوطن

وبلغ الخلاف بشأن القانون البحري أشده في أواخر مارس ، حتى ان

المستشار جاءني يوم ٢٢ منه وأنا خارج من كنيسة (شارلوتن بورغ) ليقدم الي استقالته ، ثم عدل عن هذا الرأي بعد مابحثت معه ملياً في الأمر ، وأعدت على مسامعه آراء الدكتور (بورشار)

وذهبت بعد ذلك بأيام لزيارة الهر فون (بتمن) فوجدته في حديقة قصره يقرأ تلغرافا من (لندن) ، وقد ضعفت همته وخارت قواه . وكان هذا التلغراف يتضمن انكار الانكليز مذكرتهم الشفهية التي نقلها (كاسل) والغاء اقتراح الحياد وغيره الغاء صريحاً باتا . وفي هذا التلغراف عظات موجهة الي ، ونصائح لي بان أحتفظ بالهر فون (بتمن) الذى تثق به الحكومة البريطانية ثقة خاصة

وبكى المستشار من شدة غيظه وقد رأى آماله تضمحل كالهباء ، وساءه الاطراء الذي وجهته اليه حكومة أجنبية جربتها ألمانيا وجربها هو نفسه تجربة مؤلمة . فعرض علي استقالته للمرة الثانية ، فرفضت قبولها ، وبذلت كل جهدي لتعزيته ثم أمرت بان يسأل سفيرنا في (لندن) كيف أمكنه أن يقبل هذه المذكرة وأن ينقلها الينا

ولم يعد المستشار منذ ذلك الحين الى معارضة القانون البحري ، ووافق عليه بكل اخلاص ، ولكن مع التعديل الذي طرأ عليه عند ما كنا نفكر بامكان الاتفاق مع انكلترا . أما الانكليز فانهم ، على عكس ذلك ، نفذوا مشروعهم بشأن الانشاءات البحرية كما هو

كانت مهمة (هلدان) مظهراً من مظاهر السياسة البريطانية . فان هذه المناورة العظيمة قد دبرت باحكام لمنعنا من تعزيز اسطولنا ، في حين أن أمريكا التي لم يكن لها اسطول تجاري ذو شأن ، وفرنسا التي كانت قطعاتها البحرية تزيد عدداً على قطعات اسطولنا ، وايطاليا وروسيا اللتين كانتا تنشئان البوارج في الخارج — كل هذه الدول كانت تقرر مشروعات عظيمة للانشاءات البحرية من غير ان يصدر من انكلترا أقل احتجاج عليها

على أن ألمانيا « المحصورة » بين فرنسا وروسيا كان يجب عليها أن تكون

قوية لتتمكن من الدفاع عن كيانها تجاه هاتين الدولتين في البر والبحر ؛ فلم يكن لها بد والحالة هذه من تعزيز اسطولها ولم تكن تتوخى من وراء ذلك مزاحمة الاسطول الانكليزي لانه كان يزيد على اسطولها اربعة اضعاف أو خمسة وكان هذا الاسطول يكفل سلامة انكلترا وتفوقها . وقد بلغ درجة من القوة والمنعة لا تخول أحداً من الالمان ان يعتقد بأن في امكاننا الحصول على اسطول معادل له

وكنا فى حاجة الى سفن حربية للمحافظة على شواطئنا والدفاع عن تجارتنا ولم تكن وسائل الدفاع الثانوية كالغواصات والمدمرات والالغام تؤدّي هذه المهمة

ثم ان استحكاماتنا على شواطىء البلطيك كانت قديمة ، وهي مسلحة تسليحاً غير كاف ، بحيث أن مدافع البوارج الحديثة كانت تستطيع تدميرها في أقل من ٤٨ ساعة . فالاسطول كان والحالة هذه ضرورياً جداً لحماية هذه الشواطىء التي لم يكن في امكانها المقاومة

وقد أثبت هذا الاسطول في وقعة (سكاجرّاك) [١] كيف كان ، وماذا يستطيع أن يفعل. ولو أن مجلس (الرخشتاغ) لم يستمر حتى سنة ١٩٠٠ على رفض كل المشروعات التي تؤدّي الى تعزيز قواتنا الدفاعية لكانت معركة (سكاجرّاك) قاضية على انكلترا . حقاً اننا لم نتمكن من أن نعوض الاثنتى عشرة سنة التي اضعناها سدى

***

وقبل ان أنتهى من الكلام عن (هلدان) أود أن اذكر نبذة أخرى من تاريخ نشاطه السياسي. فانه كان قد جاء الى (برلين) سنة ١٩٠٥ باذن من الحكومة الالمانية لدرس النظام العسكري البروسي ، ونظام التجنيد ، ومصالح اركان الحرب ، وغيرها . وكان يشتغل فى وزارة الحربية ، ويتلقى

(١) انظر ص ٥١

بمعلوماته من الجنرال فون (اينام) وزير الحربيـة شخصياً . وقد قضى في (برلين) اسبوعين أو ثلاثة ثم عاد مسروراً جداً الى انكلترا

ولما أعلنت الحرب ، قوطع (هلدان) صديق (غوت) والمحسوب في (لندن) من انصار الالمان ، وعومل معاملة عدائية جـداً ، حتى انه لم يعد يجرأ على الظهور

وقد أراد أن يبرىء نفسه فحمل المستر (بجي) الصحافي الاديب المعروف على أن يصف ما أبداه (هلدان) من النشاط لما كان في وزارة الحربية . فظهر كتاب في هذا الموضوع عنوانه « تبرئة بريطانيا العظمى »

وقد أوضح هذا الكتاب الخدم التى أداها (هلدان) بتنظيم هيئة أركان الحرب العامة حسب الاصول ، واعـداد الجيش البريطاني للحرب العظمى ، ونوّه بمهارة (هلدان) في الاستفادة من الرخصة التي نالهـا للعمل في وزارة حربية پروسيا • فاعترف (هلدان) بانه تعلم فن الحرب في ألمانيا ، وأنه استطاع بما أخذه عنا أن يُعدّ نظام الجيش ونظام اركان الحرب بتفاصيلهما ، تأهباً لحرب قريبة الوقوع مع الألمان الذين رحبوا به وفتحوا له صدورهم

وظهر المحامي البارع المتلوّن بمظهره الحقيقي في هذا الـكتاب الذي ذكر كيف نزل ضيفاً على بلاد أجنبية واستفاد من هـذه الضيافة لدرس الانظمة العسكريه الألمانية . وقد توصل بالمعلومات التي أخذها والمواد التي التقطها الى شحذ سلاحه في وجه الذين أفادوه وعلموه

وقد اهدى هـذا الـكتاب تحيةً لذكرى الملك (ادورد السابع) الذى كان (هلدان) أمين سره وصنيعته وخادم أفكاره

ان (برلين) كانت تعرف ان مهمة (هلدان) هي السعي للتقريب بين ألمانيا وانكلترا تقريباً كانت ألمانيا تطمح اليه على الدوام • ولـكن هذه المهمة لم تكن في الحقيقة الا حملة استطلاع أرسلت الى داخل جدران المنزل الذي يقطن فيه « ابن العمة الالمـاني » وقد كافأتنا انكلترا على جيلنا بخوضها غمار

الحرب العظمى التي ساعد (هلدان) على اعـدادها بكل قواه • فهو اذن قد خدع الالمـان في هذه المرة أيضاً

هذا تاريخ مهمة (هلدان) على ان بعض « أقمار » السياسـة أذعوا بعد ذلك في الصحف وفي الرأي العام ان التقرب بين انكلترا وألمـانيا الذي سعى اليه (هلدان) ، والذي كان يعلل بالآمال العظيمة ، انما حبط لعناد الامبراطور والاميرال (تربيتز) اللذين تمسكا بالمشروع البحرى بكل قواهما ، رغم النصائح التي اسديت اليهما من كل الجهات

البرنس دى فيد أمير ألبانيا

لمـا وضعتْ على بساط البحث مسألة تأسيس حكومة ارنؤطية مسـتقلة أخذتُ أتساءل أنا والدول الأخرى عن الرجل الذي تناط به ادارة هـذه البلاد . وقد سعى لدى الدول كثيرون من محبي التيجان مرشحين أنفسهم لهذا المنصب فلم ينجحوا

ولم تكن هذه المسألة — في ذاتها — من المسائل التي تهمني كثيراً . ومع ذلك فقد كنت مقتنعاً بأن من الضروري في انتخاب الأمير لألبانيا ملاحظة ارتقاء هذه الأمة التاريخي ، وموقعها الجغرافي ، وتقاليدها القومية

تنقسم أمة الأرنؤط الى مسلمين ومسيحيين متساوي العدد . والزراعة هنالك لم تتقدم كثيراً والمعارف في سن الطفولة

وكان كثيرون من الأرنؤط يعملون عند الترك الى حرب البلقان ، وقد تبوأوا هنالك المناصب العليا ، لأنهم قد اعترف لهم بالغيرة والنشاط ومضاء العزيمة

ولقد أردت أن يكون أمير البانيا مسلمـاً ، أو بالحري مصرياً ، فلم تقع مشورتي موقع القبول عنـد الدول التي كانت مشغولة عن مصالح الأرنؤط نفسهم بما هي منهمكة به من البحث عن الفرص للاصطياد بالمـاء العكر

اذن فأنا لم أكن كثير السرور باختيار البرنس (دي ڤيد) لامارة ألبانيا. انني أجل في البرنس صفات النبل والمروءة والكرم، ولكني كنت اعتقد بأنه ليس الرجل الكفء لهذا المنصب، لأن البرنس لم يكن له ذلك العلم بشئون البلقان ولا تلك الصفات اللازمة لولاية مثل هذا العمل الشاق

ولم أستحسن ذهاب أمير الماني الى ألبانيا، لأني كنت أعلم أن دول التحالف ستضع في سبيله العقبات والمشاكل

ولما جاءني ابن عمي ليستشيرني في الأمر أعربت له عن رأيي بكل صراحة، وأفهمته المخاطر التي سيلقاها في طريقه، ونصحت له بأن يمتنع من الموافقة على الاقتراح المعروض عليه

ويوم وافقت الدول على ترشيح البرنس (ويلهلم دي ڤيد) للامارة الأرنؤطية استقبلته أنا بحضور المستشار، ولم يكن البرنس كثير الابتهاج بمنصبه الجديد، بل ظهر لي أنه شديد التردد الى درجة شعرت معها بالشجاعة على استئناف النصح له بأن يرفض الجلوس على عرش ألبانيا. غير ان عنائي هذا ذهب ادراج الرياح لأن زوجة البرنس الشابة الكثيرة المطامع كانت ترى أن آمالها لن تتحقق الا بلبس هذا التاج. ومعلوم أن ارادة المرأة من ارادة الله: ولقد شجعتها (كارمن سيلڤا) على المضي، وانشأت في الصحف مقالة افتتحتها بقولها « ان مملكة الملائكة تطالب بأميرها ... »

ونصحتُ الى الأمير ايضاً بأن لا يذهب الى ألبانيا قبل ان تحل مشاكلها المالية. وكانت هنالك اسباب جوهرية حملتني على اقتراح اختيار الأمير لألبانيا من ذوي اليسار، ولم يكن البرنس (دي ڤيد) صاحب ثروة طائلة، وقد وضع على بساط البحث امداد الدول اياه بالمال. ولما جاء دور اختصاص كل دولة بما يصيبها من هذا المبلغ بدت لنا امور مؤسفة؛ ثم انتهى الأمر بأن يكون الدفع بالتدريج

وكان (اسعد باشا) خطراً عظيما على الأمير الجديد وحكومته، فان هذا

الرجل الجندي الدساس الكثير المطامع كان يحدّث نفسه بالحصول على الامارة، وان لديه قوة لا يستهان بها وأنصاراً يحملون السلاح . وقد ناصب البرنس (دي ڤيد) العداء من اليوم الأول ، وأخذ يرتب المؤامرات في الخفاء مع ايطاليا التي كانت ذات نية حسنة نحو البرنس

ولو أن البرنس اتخذ لنفسه حاشية ممن يثق بهم من الألمانيين الخاصين لكان عمله هذا طبيعياً جداً لا محل لاعتراض أحد عليه ، ولكن البرنس لم يتخذ هذه الحيطة أيضاً ، فعينوا له اشخاصاً من الانكليز والايطاليين بصفة سكرتيرين ، وكان لهؤلاء السادة مهمة واحدة وهي العمل على مايخالف مصلحة الأمير ، وان ينصحوا له نصائح سيئة ، وان ينظموا الدسائس عليه

ذهب الأمير وزوجته الى ألبانيا ، فكان كل شيء يجري على نحو ما كنت متوقعاً . ولم يتمكن البرنس من انقاذ نفسه من (اسعد باشا) وحصل كل ما كنت اخشاه

اجتماعي الأخير بالقيصر في مرفأ البلطيق

اجتمعت بالقيصر سنة ١٩١٢ في مرفأ البلطيق ، وكنت قد قصدت هذا المرفأ بدعوة من نقولا الثاني ، فوقفت سفينتانا جنباً الى جنب ، واتخذت الوسائل لتسهيل الاتصال فيما بينهما • وأظهر لي أولاده وجميع أسرته رقة عظيمة وكرماً متناهياً ، وكنا نتناول الطعام معاً تارة على مائدة القيصر وتارة على مائدتي

وان هذا الاجتماع الذي استقبلني فيه القيصر أعظم استقبال لم يجر فيه ذكر الاتفاق البلقاني الذي كان قد عقد حديثاً

وكانت هذه هي زيارتي الأخيرة لروسيا قبل الحرب العظمى

الفصل السادس

﴿ أعوانى ﴾

فون استيفن والبريد ـ ميخائيلس والاصلاح المالى ـ سكك
الحديد زمن ما يباخ ـ نيلن وبود وبريتبباح ـ استطاعة
دوي التيجان خدمة بلادهم ـ وزارة المعارف ـ
شباب الألمان وشباب الانكليز

فون استيفن والبريد

أريد أن أعرب عن سروري العظيم من اشتغالي مع فون (استيفن) ، وأن أعلن أن علاقتي به كانت دائماً على ما يرام . وهو من رجال المدرسة القديمة ، وكنا نتفاهم أحسن تفاهم . وكان لفون (استيفن) ارادة وعزيمة متينتان كالحديد ، وهو رجل عمل ، وله اليد الطولى في الشئون السياسية والعلمية . ولم أكن أضمر له غير الثقة به ثقة مطلقة . وان صلتي بمستشار له هذا العقل وهذه الحكمة مع السعي والنشاط قد علمتني شيئاً كثيراً . ولقد أرتقت ادارة البريد عندنا في زمن (استيفن) ارتقاء اعجبت به الدنيا كلها . وبمساعيه أخذ يعم استعمال التلفون وبدأ التجار يستفيدون من هذا الاختراع الجديد فوائد واسعة النطاق

ميخائيلس والاصلاح المالى

كان الهر فون (ميخائيلس) من الوزراء الذين احترمتهم وقدرتهم حق قدرهم . فهو الذي أصلح نظام مالية پروسيا لما كان وزيراً للمالية فيها ، ووضع بذلك أساساً متيناً لنهضتها وارتقائها . وكنت أشعر بارتياح عظيم الى صلاتي بهذا الرجل الممتاز بحسن ذوقه السياسي . وقد تعلمت منه أموراً

كثيرة ، وكان احتكاكي به من بواعث الشجاعة لي

وكان فون (ميخائيلس) رجلاً مدهشاً واسع الاطلاع كثير الخبرة في جميع شئون الحكومة . وكان حديثه العذب كله حياة ونشاطاً . فاذا تكلم أوضح لسامعيه المسائل المعروضة على بساط البحث ايضاحاً تاماً ، لانه يعرف كيف يدقق في البحث والاستنتاج . وكان استنتاجه صريحاً ونهائياً ، يظهر بجلاء تام كما تظهر الخيوط الحمراء التي يلقيها الحائك في نسيجه . ولم يكن للهر (ميخائيلس) نظير في الشئون التاريخية . وكان وقوفه على اللغات الميتة باعثاً على الاعجاب الشديد . وقد اعتاد ان يأخذ هيكل خطبه من الكتاب الرومانيين ، وأن يدعم آراءه بعبارات لاتينية لا يستمدها من القواميس بل من خزائن معارفه الواسعة . فالسامع لا يمل كلامه الذى كان كله عظات بل يجد نفسه أسيراً بين يديه

وقد شجعني فون (ميخائيلس) وشد أزري في مشروع ترعة «ميتلاند» الذي عارض فيه المحافظون البروسيون معارضة شديدة بغية احباطه . فشدد عزائم مليكه وحثه على مواصلة الجهاد الى ان يتم لنا الفوز لانه كان مثلي يعرف الفائدة العظيمة التى عادت على هولندا من ترعتها ، والثروة الهائلة التى يمثلها نظام المياه البديع في فرنسا ، ولانه ادرك ان الاقنية تجلب اليها جانباً من البضائع فتخفف ازدحام السكك الحديد الآخذ في الازدياد . ولو كان لنا في ابان الحرب طريق نهري كبير يصل الشرق بالغرب لنقل الذخيرة والجرحى ومعدات الحصار والتموين لتمكنت سككنا الحديدية من ان تضاعف نقل الجنود من ميدان الى آخر ولما كانت مسألة الفحم عقبة كبيرة في سبيلنا . على أن الترعة المقترح انشاؤها هي عمل من اعمال السلم التي تعود عليه بفوائد عظيمة

وكان ميخائيلس مدافعاً متحمساً عن الامبراطورية وعن بيت (هوهنزولرن) ، وكنت أصغى اليه بكل اهتمام عند ما كان يبحث في هذا

الموضوع بما امتاز به من حسن البيان وقد ظل شديد التمسك بالتقاليد القديمة، ولكنه لم يكن يفكر الا في « المانيا العظمى » فينظر نظراً بعيداً واسعاً ، ويقدر مطالب العصر وحاجاته حق قدرها

سكك الحديد زمن (مايباخ)

وكان انشاء السكك الحديد شغلي الشاغل على الدوام ، لاني كنت أعرف من التقارير الواردة الي عن الدفاع الوطني ، ومن تذمر أركان الحرب ، ومن مشاهداتي ومعلوماتي الخاصة ، أن پروسيا أهملت اهمالاً تاماً وان سككها الحديدية لا وجود لها . وهذه الحالة كانت شديدة الخطر ، ولا سيما بعد ان بدأ الجيش الروسي يحتشد بكثرة على طول حدودنا ، وبعد ما أخذت السكك الحديد الروسية تتسع وتنمو بالتدريج

وكان الامبراطور (غليوم الاكبر) قد طلب من الجنرال (مولتكي) تقريراً عن الحالة . وذلك لانه رأى ــ في أواخر سني ملكه ــ ان الجيوش الروسية تنتشر ويتضاعف عددها على حدودنا الشرقية بتأثير فرنسا وتحريضها . وكان في طاقة فرق الفرسان الروسية العديدة ان تهدد (پروسيا) و (بوزن) و (سيلزيا)

وقد اطلعت أنا والكونت (والدرسه) على تقرير المرشال (مولتكي) الذي حملنا على تعبئة جيوشنا في الشرق ، وعلى طلب انشاء سلسلة الخطوط الحديدية التي اهمل أمرها الى ذلك التاريخ

وقد احتاج المشروع الذي وضع في عهد الامبراطور (غليوم الاول) وبديء بتنفيذه في تلك الاثناء الى مدة طويلة من الزمن ، ولا سيما القسم الخاص منه بالانشاءات الجديدة . واضطرت هيئة اركان الحرب الى الدفاع عن الجسور « الكباري » الكبيرة القائمة على نهري (الفستول) و (نوجا) ازاء المعارضة الشديدة التي أبداها بعض رجال الحكومة « مايباخ »

وكانت سكك الحديد معدودة كأنها « محفظة نقود الدولة » فلم تكن الرغبة شديدة الا في انشاء الخطوط التي تعود بارباح اكيدة . وقد قامت صعاب جمة في وجه المشروعات العسكرية اللازمة للدفاع الوطني لان هذه المشروعات كانت عارية من الارقام الجميلة المرغوب فيها . لذلك لم تنجز الاعمال التي تقرر القيام بها في عهد الامبراطور (غليوم الاول) الا في ابان ملكي . والذي يلقي نظره على خريطة السكك الحديد سنة ١٨٨٨ يستغرب اهمال الخطوط الشرقية ، ولا سيما خطوط پروسيا ، وعدم كفاءتها لحاجة البلاد . ويزداد استغرابه اذا قارن بين هذه الخريطة وخريطة سنة ١٩١٤ ، فاننا لو اكتفينا بالخطوط القديمة التي كانت لنا لكنا أضعنا المقاطعات الشرقية في سنة ١٩١٤

ولا ريب في أن الوزير فون (مايباح) خدم البلاد خدماً جلى من وجهة السكك الحديد لانه كان يساعد على توسيع نطاقها . ولانه نظر بعين الاهتمام الى مطالب المقاطعات الصناعية في الغرب تلك المقاطعات التى ارتقت ارتقاء سريعاً مدهشاً مع مراعاة الضرورة العسكرية بقدر الامكان

على ان القسم الشرقي من الامبراطورية لم يكن فيه ما يكفي من الخطوط والجسور « الكبارى » ولا من العجلات والمعدّات . فلو أعلنت التعبئة في عهد (مايباخ) لاضطررنا الى ارسال مئات من قاطراتنا الى الشرق لسد حاجة هيئة أركان الحرب . وكان جسرا (ديرشو) و(مريامبورغ) العريقان في القدم طريق المواصلات الوحيدة الى الولايات الشرقية ، وقد أصرت هيئة أركان الحرب في هذا الشأن اصراراً أدّى الى الخلاف الذي نشأ بينها وبين (مايباخ)

(تيبلن) و (بود) و (بريتنباخ)

أما الوزير (تيبلن) فكان موجهاً عنايته توجيهاً خاصاً الى حاجاتنا العسكرية، ولا سيما انشاء السكك الحديدية في الجانب الشرقي من بلادنا . ومع ذلك

فقــد بقي نقص كبير في الخطوط الشرقية رغم الانشاءات التي تمت فيها . وكان هذا النقص كافياً لعرقلة التعبئة واحباط المناورات

وكانت تلك « الأنفاق الصغيرة » تبعث على القلق . فاجتياز (الرين) الى (ماياس) لم يكن ممكناً الا بواسطة جسر واحد من جسور سكة الحديد . وكذلك عبور (الماين) فانه كان مستحيلا الا من جوار (فرنكفورت) . وقد ألحت هيئة أركان الحرب مراراً بوضع حد لهذه الحال

ومن الاتفاقات الغريبة أن الحاجة الى تحسين المواصلات ظهرت بأتم مظاهرها في تلك المنطقة . فاذا قدم رجل من الغرب قاصداً جهات (تونوس) أوالسكة الواقعه على ضفه النهر اليمني فانه يضطر الى السفر حتى (فرنكفورت) ثم يعود أدراجه من هناك في حين انه لو مر بجوار (ما يانس) لوجد نفسه ازاء (ويسبادن) تقريباً

وكان الوزير (بود) الرجل اللازم للقيام بهــذه المهام المختلفة لأنه تقلد قيادة فرقه السكك الحديد في هيئة أركان الحرب . وكنت قد خبرت مقدرته على العمل وقوته ونشاطه وسرعته في اتخاذ القرارات منذ زمن طويل . وقــد سبق له أن عدد لي غير مرة مساويء خطوطنا الحديدية ؛ ولا سيما من حيث السرعة في نقل الجيوش من الميدانين . وكان يلفت نظري بالحاح الى تأهب روسيا وفرنسا تأهباً يجب علينا أن نقابله بتدابير شديدة في مصلحة الدفاع الوطني

وقد انشئت السكك الحديد في بدء الأمر لتسهيل الصناعة والتجارة وتوسيع نطاقهما . ولم يكن لنا بد من مساعدتهما رغم عجزنا عن سد حاجاتهما التي كانت آخذة في الازدياد لأن الطرق النهرية المعدة لتخفيف العمل عن سكك الحديد لم تكن قد انجزت

وكانت الحرب في ميدانين ـ الحرب التي قام شبحها في وجهنـا ، واشتد خطرها علينا ، الحرب التي لم نكن مستعدين لهـا ، لأن الوسائل الفنية اللازمة لسكك الحديد كانت تنقصنا لأسباب مالية ، تلك الحرب الهائلة المنتظرة ـ

هي التي حملتنا على الاهتمام بالضرورات العسكرية اهتماماً جدياً

لقد كانت روسيا تنشيء بمليارات الفرنسويين شبكة الخطوط الحديدية الكبرى لتستعملها ضدنا ، في حين أن فرنسا كانت تعمل ليل نهار على اتقان خطوطها الحديدية بجعل الخط الواحد ثلاثة خطوط وأربعة خطوط ، مع أن هذا الأسلوب لم يكن معروفاً عندنا

وشرع الوزير (بود) يعمل في الحال . فقام جسر جديد للسكك الحديد فوق الرين بجوار (مايانس) ونصب غيره فوق النهر على مقربة من (كوستيم) وانشئت بعد ذلك الفروع والعقد اللازمة لايجاد المواصلات مع خطوط الضفة اليمنى لنهر (الرين) ومع (ويسبادن) . ثم انجز مثلث (بيابريخ — موشباخ) في آخر الأمر

وبعد وفاة (بود) صار فون (بريتنباخ) عوناً لي في تنفيذ مشروعاتي المتعلقة بالسكك الحديدية ، وكان يعمل يداً واحدة مع أركان الحرب

وانتهت بعد ذلك المجادلات التي قامت حول مشروع (قنال ميتلند) ، وكان انتهاؤها على ما يوافق رغبتي . وتقدمنا في الانشاء بخطوات واسعة في زمن (بريتنباخ) ، وكنا نعمل في الوقت نفسه في توسيع (قنال القيصر ويلهلم) وتعميقه ، وفي انشاء الاقنية البحرية الكبرى في (امدن) . ولاريب أن ما قمنا به في هذه الاقنية البحرية كان أعظم شأناً مما عمل في (باناما)

استطاعة ذوي التيجان خدمة بلادهم

وانما تعرضت لهذه التفاصيل لغرض خاص أرمي اليه . فأنا أريد أن أبين الأمور الآتية :

١ — النفوذ والتأثير اللذين يستطيع صاحب التاج ان يستعملهما ـ بما له من رأي ونشاط شخصي ـ لفائدة بلاده وارتقائها

٢ — استخدام صاحب التاج أكفاء الرجال في كل عمل باستقلاله عن العصبيات الحزبية

٣ — المآثر الكبرى والترقيات العظيمة التي يمكن الحصول عليها اذا عمل الوزراء مع ملوكهم بصدق واخلاص

وزارة المعارف

وكنت على صلة تامة بوزير المعارف والاديان • وقد نشأ اهتمامي بهذه الوزارة عن أسباب لا تخفى على أحد

وكان الهر فون (غسلر) والهر فون (تروت) أعظم الوزراء الذين تعاقبوا في هذه الوزارة أهلية وأكثرهم اقتداراً . وكان مدير المعارف الهر (ألتوف) النابغة أكبر مساعد لهما ، بل الركن الوحيد لهذه الوزارة

وقد أظهرت لى تجارب سنوات الدراسة كثيراً من مساوىء التهذيب في مدارس الجيمناز (الثانوية) ببلادنا ، فان الروح الفلسفية التي سيطرت على المدارس أسفرت عن تعليم ناقص

وكنت قد لاحظت فى سني ١٨٧٤ ـ ١٨٧٧اعجاب الشبيبة في جامعة كاسل بانتصارنا سنة ١٨٧٠ ـ١٨٧١ وبالامبراطورية الجديدة ، مع ان المانيا العظمى ، المانيا الادبية رافعة لواء الحضارة ، لم تكن مفهومة كما يجب . وهذا ما اعلنته وأنا أوجه كلامي الى كرامة شعبي لما وضعت الحجر الاول في قصر (سالبورغ)

ولم يكن فى طاقة معلمى الشبيبة ان يغرسوا فيها هذه المبادىء الطيبة وان يبثوا فى قلب الناشئة العواطف الشريفة النافعة ويشيدوا دعائمها على أساس متين . ذلك لان برنامج الدروس كان مثقلا باللغات الميتة . وكان التاريخ الوطني مهملا الى درجة لا يتصورها العقل ، مع أنه هو الجذوة التي تتقد

حماسة فى قلب الشبيبة ، وهو العامل الوحيد على غرس المبادىء الوطنية فى النفوس ، والمصدر الذي تستمدّ منه فكرة « المانيا القوية العظمى »

وكان الطالب يجهل كل شيء تقريبا من تاريخ القرن الماضي والحوادث التي وقعت بعد سنة ١٨١٥ ، وكانت المدارس تخرج اخصائيين فى علم اللغات ، ولا تخرج وطنيين جديرين بترقية الامبراطورية الشابة الناهضة . أي أنها لم تكن تخرج شبانا المانيين يشعرون بكرامتهم القومية

وكنت احاول مراراً في الاجتماعات الصغيرة الخاصـة بالادب أن أبحث أنا وزملائي فى المدرسة في موضوع « المانيا العظمى » وان اكافح فكرة الانفراد وأقاوم المبادىء التي تمارض « الفكرة الالمانية الـكبرى »

وكان كتاب الاميرال (فارنر) عن الاسطول الالماني من الـكتب النادرة التي تضرم نار الحماسة وحب الامبراطورية في القلوب

شباب الالمان وشباب الانكليز

وقد اتجهت انظاري الى هذه التربية المدرسية الناقصة ولا سيما الى الروح التي كانت تشرف على وضع برامج الشبيبة . فان الغاية التي توختها تلك البرامج كانت مقتصرة على أعداد الموظفين فقط . وهـذه الحالة يمكن تفسيرها بأن الطريقة التي كانت سائدة فى بروسيا القديمة قد تسرّبت كلها الى الامبراطورية الالمانية الجديدة

وما دامت الدولة مؤلفة من حكومة وادارة على ما وصفنا فان اتجاه حياة الشبان الالمانيين الاتجاه الذي تقدم ذكره كان طبيعياً ، لاننا كنا نعيش في دولة من الموظفين ، وكانت مسألة التوظف وسيلة سهلة يتوسل بها كل شاب لخدمة بلاده

أما الشبان الانكليز فكانوا يشعرون بكرامتهم الشخصية ، ويعملون على تقوية ابدانهم بالالعاب الرياضية التي عرفتها في (ايتون) . لذلك كانوا يبحثون دائما في الفتح الاستعماري ، والحملات المرسلة الى البلاد الجـديدة من الـكرة

الارضية ، وتوسيع نطاق التجارة البريطانية . وكانت غاية آمالهم ان يحققوا فكرة « بريطانيا الكبرى » ، بريطانيا التي تزداد قوة ومنعة بعد ماتصيرمحور العظمة والجلال

كانت انكلترا منذ زمن طويل امبراطورية عالمية في حين أننا لم نكن الا دولة موظفين . لذلك كانت آمال الشبيبة الانكليزية وأمانيها أعظم وأسمى من الآمال والاماني التي كنا نجدها في شباننا

على ان الشبيبة كان يجب عليها ان تكيف آمالها وأمانيها بالسرعة الممكنة بعد ما صارت ألمانيا عاملا لا يمكن اهماله في شؤون العالم السياسية والاقتصادية وكثيراً ما كنت أقابل ـ في ابان ملكي ـ بين مواطنيّ الشبان ذوي الوجوه الصفراء والاجسام النحيفة ، والشبان الانكليز أعزاء النفوس الذين يعنون قليلا بدرس اللاتيني واليوناني

نعم ، ان ألمانيا أنجبت رجالا ذوي نشاط واقدام ـ كالذين طبقت شهرتهم الخافقين من أبنائها ـ ولكن سائر أبناء بلادنا لم يفهموا تماماً أنه يجب عليهم أن يخدموا الوطن ليس بالسعي الى الحصول على شهادة رسمية بل بجهاد حر وتزاحم مثمر

واذا اتخذت انكلترا مثالا فذلك لاني فضلت ان انوه بما فيها من الفضائل والمزايا على أن أضع النظارة امام عيني وأطوف باحثا منقباً في أربعة أقطار العالم

ولما اشتدت عزائمي بهذه الملاحظات أقدمت على العمل ، فكنت الامبراطور الذي جاهد أعظم جهاد لتنفيذ الاصلاحات المدرسية خدمة لمصلحة الشبيبة في المانيا ، وذلك بالرغم مما لقيته من المقاومة العنيفة التي ابداها علماء اللغات والآداب في البلاد وفي الحكومة وفي الجامعة. ولكن هذه الاصلاحات لم تتم لسوء الحظ بقدر ما كنت اؤمل ولم تسفر عن النتائج التي كان يمكننا ان نحصل عليها

ومع أننا نتغنى بنشيد « ألمانيا فوق الجميع » فانه لم تظهر « الفكرة

الجرمانية » باتم مظاهرها ولم يتلقنها الشعب الالماني — الذي استولت عليه الدهشة — الا في كتاب الهر (تمبرلان) عن « القرن التاسع عشر » . ولكن هذا التعب كله قد ذهب — وا أسفاه — ادراج الرياح . والدليل على ذلك ما نراه من تفكك عرى الاتحاد بين الشعب الالمانى . فان الرغبة في تنفيذ أوامر العدو قضت بهدم اركان الامبراطورية وتقطيع اوصال الدولة الالمانية

لقد تمكن الجناة القادمون من روسيا من ذر الرماد في العيون مع انهم دوننا بمراحل في كل شيء فطعن الجيش الالمانى بخنجر في ظهره بينما هو يحارب حرب الجبابرة . فلو ان الالمان على اختلاف طبقاتهم ومداركهم قد شبوا وفي قلوبهم عاطفة الابتهاج والتفاخر بجنسيتهم لما كان هذا الذل الاختيارى ممكناً مهما تقلبت الاحوال

على ان هذا الانحطاط لا يسهل تأويله ولو وقع في ساعات مخيفة هائلة ، لان الشبيبة الالمانية سلكت في الحرب سلوكاً لا غبار عليه ؛ فقامت باعمال لا مثيل لها في التاريخ ، مع ان كثرة الكتب خطفت لونها ، ومع ان الالعاب الرياضية لم تعدها للحرب كما اعدّت شبيبة انكلترا

لقد اثبتت الحرب من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨ ماذا يستطيعه الشعب الالمانى اذا احسنت ادارته ، واستخدمت مواهبه العظيمة على أحسن منوال

ان الشبان ظهروا بمظهرهم الحقيقي في ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ ، اولئك الذين جاءوا من كل انحاء الامبراطورية بقلوب كبيرة ، ونفوس عزيزة ، وأنوف شامخة ؛ لافرق بين طبقاتهم ومداركهم ، وعدوا بعد ذلك من أبطال المعارك. انهم اثبتوا — ازاء اخطار الحرب الطويلة ، وازاء الموت — ما يقدر عليه الالمانى اذا عدل عن ان يكون « فريسياً » وحارب بالحماسة التي لم يشتهر بها دائما

فعسى ان لاينسى الشعب الالماني ما اكتشفه في نفسه من المزايا الحسنة وعسى ان يواصل سعيه في سبيل الرقي ، بعد ما تستولى عليه الروح الالمانية الحقيقية التى لايمكن ان تموت

الفصل السابع

﴿ العلوم والفنون ﴾

المدارس العليا — الاستاذ سلابي — الاستاذ شيمان — جمعية القيصر ويلهلم — عنايتي بالآثار الالمانية — اهتمامي بالاثار القديمة وجمعية المستشرقين — الاستاد ليتزشه والآثار الآشورية البحث عن الآثار القديمه في كورمو

المدارس العليا

كنت دائماً شديد العناية بالمهام العظيمة الواسعة النطاق الملقاة على عاتق وزارة المعارف والأديان وبكل ماله صلة بهذه الوزارة من فنون ومباحث علمية وطب وما شاكل ذلك ؛ فبذلت قصارى جهدي في سبيل ترقيتها والسير بها الى الأمام بقدر الامكان

وكنت مسروراً كل السرور بالنجاح الذي نالته المدارس العليا . فان ما بلغته العلوم من المنزلة السامية جعل الشبان يقبلون على هذه المدارس ، حتى غدت الآثار التى أوجدها أساتذتنا ومن تخرج على أيديهم من مهندسينا غرة في جبين الدهر ، ومفخرة للاسم الألماني في هذا العصر

الاستاذ سلابي

كان الاستاذ (سلابي) من أشهر أساتذة (شار تونبورغ) ، وكان على اتصال بي الى أن أدركته الوفاة ، وكان يرسل الي التقارير الضافية عن اكتشافاته الأخيرة

ولم يكن يكتفي بما يفيض علي من معلوماته عند زيارتي له في معمله ، بل كان يأتينا الى قصرنا الذي كان في غابة (مارش) فيبهجني أنا والامبراطورة بأحاديثه اللذيذة

وكانت محبتي للاستاذ (سلابي) ناشئة عن كونه انساناً فحسب ، لا عن كونه عالماً . فقد كان من أعظم ملذاتي الأدبية سماع هذا الاستاذ وهو يذكر وجهة نظره الى أية مسألة من مسائل الحياة .

وبعد أن أدركت أهمية الفائدة التي يمكن الحصول عليها من المدارس العلمية العالية ، وبعد أن شاهدت مآثر أمثال (سلابي) و(اينتش) ،رأيت من الواجب أن يكون لهذه المدارس مكان في مجلس الأعيان اسوة بالمدارس الجامعة . ولكن المدارس الجامعة احتجت على ذلك الى وزارة المعارف والأديان ، ونشأ حينئذ جدال عنيف بين صنوف مختلفة من العلماء في سبيل الكرامة ، وانتهى الأمر بأن أنفذت مرادي بارادة رسمية أصدرتها . وتلقى (سلابي) هذا الخبر وهو يشتغل في معمله فتلا ارادتي الرسمية على تلاميذه الذين قابلوا ذلك بتصفيق حاد . ومن ذلك اليوم استطاعت المدارس العلمية العليا أن تبرهن على كفائتها للمكانة السامية التي رفعت اليها

الاستاذ شيمان

وكنت أثق ثقة أكيدة بالاستاذ شيمان العالم المعروف ، فانه كان بلطيقياً حقيقياً فضلا عن كونه سائساً بعيد النظر ومؤرخاً سامي المكانة ، وكاتباً بارعاً ، وقد دافع عن المصالح الألمانية تجاه دعاوي الصقالبة دفاعاً حسناً

ولقد أفاض علي معلومات كثيرة عن المقاطعات الشرقية . وكان يختلف كثيراً الى منزلي ، وصحبني في رحلتي الى (طنجة) وكنت اذاكره سراً في كثير من شئوننا السياسية قبل ان تخرج من حجاب الكتمان . وقد برهن لي على اني كنت مصيباً في ائتمانه والاعتماد على كتمانه للأسرار

وهذا مثال على اتفاق رأيينا في الشئون الروسية : لما عقد الصلح سنة ١٩٠٥ في (بورتسموث) بين اليابان وروسيا بوساطتي ووساطة الرئيس (روز فلت) كانت الأندية الرسمية في (برلين) مهتمة بمعرفة الخطة التي

ستجري عليها روسيا بعد تلك الحرب • وكان الرأي السائد يومئذ بوجه عام أن روسيا المستاءة من انكسارها ستولي وجهها بعد الآن شطر الغرب، ولا سيما ألمانيا ، فتبحث لها هنا عن متكأ جديد تتكيء عليه . وكانوا يرون ان ذلك هو المخرج الذي يوصل روسيا الى الانتقام من اليابان واسترداد ماخسرته من بلادها ونفوذها . أما أنا فكنت على خلاف ذلك تماماً ، ورأيي هو ان الروس يجب أن ينظر اليهم بأنهم أسيويون وصقالبة ، وبصفتهم اسيويين يمكنهم أن يتفقوا مع اليابان برضى وطيب خاطر ، وصفتهم الأخرى الصقلبية تدعوهم فيما بعد الى أن يحوّلوا وجوههم عن الالمان الى اليابان [1]

ان انديتنا الرسمية كانت تستخف برأيي هذا وتسميه خيالاً . فدعوت (شيمان) في أحد الايام وسألته عن رأيه في هذه المسألة وذكرت له رأيي فيها

وكم كان سروري شديداً عند ما رأيته يفكر في هذه المسألة كما أفكر ويحكم عليها كما أحكم . وبقيت أنا و (شيمان) وحدنا على هذا الرأي مدة طويلة ، وكان الذين يزعمون أنهم على علم صحيح بالروس من (البرلينيين) وأنديتهم الرسمية مخدوعين في هذه المسألة ذات الخطورة في السياسة الخارجية

جمعية القيصر ويلهلم

كان من الواجب قبل كل شيء العمل لاحداث ارتقاء في الاكتشافات الكيماوية ، وقد مكنني وزير المعارف (تروت) ومديرها (ألتوف) من تأسيس (جمعية القيصر ويلهلم) التي كانت عوناً لنا على القيام بأعمال خطيرة . وبواسطة هذه الجمعية استطعت أن أتعرّف بأهم رجال الاخصاء في كثير من العلوم فعقدت الاواصر مع كثيرين منهم ، وكنت أزورهم في بيوت عملهم فأشاهد مساعيهم بنفسي . ولقد أسسنا للجمعية معامل كيماوية ، كما أن أعضاء الجمعية كانوا يمدون غيرهم بالمال تنشيطاً لهم على انشاء مثل هذه المعامل . واني

(١) انظر ص ٦٩

أفتخر كثيراً بتأسيس هذه الجمعية لأنها نفعت الوطن منافع جليلة كما أن أفراد الامة كلهـم استفادوا من اكتشافات علمائها . ولكن الحرب ويا للاسف قد سلبتني اللذة التي كنت أحصل عليها من هذا العمل كما سلبتني غيرها . وها أنا اليوم بعيد عن علمائي الذين هم قوام جمعيتي، وما أشد الألم الذي أشعر به من هذه الجهة ، وحسبي أن أتمنى لهذه الجمعية خلود نفعها للعلم والوطن

عنايتي بالآثار الالمانية

واضطررت في أول عهدي الى أن أعنى ببعض الانشاءات المختلفة . فقد رأيت من الواجب علي أن أنشيء لاجدادي أثراً تذكارياً جديراً بهم ، لان ضريح (شارلوتنبورغ) لم يعد كافياً

ثم ان قصور التاج في (برلين) والولايات كانت من الوجهة الصحية وغيرها في حاجة الى الاصلاح السريع ولا سيما (قصر برلين) . فبعد ما درست حالة هذه القصور درساً دقيقاً عمدت الى العمل على اصلاحها. وقد قضيت في ذلك مدة الثلاثين سنة التي حكمت فيها . وكنت اعمل أحسن ما يمكنني بكل تأن وسرور، مع احترام الآثار التي تركها أجدادي. وكان يساعدني في هذه المهمة بعض المهندسين (ايهن) ورجال الفن . وكان للامبراطورة (فريدريك) بما لها من حسن الذوق الفضل الاكبر في اصلاح قصر برلين واخفاء الخطأ الذي ارتكبه مهندسو العصر الغابر

وكان لوالدتي نظر عام في الشئون الفنية . فقد كانت تقول دائماً « يبقى الطرز الهندسي مهما يكن نوعه جميلاً ومرغوباً فيـه ما دام بسيطاً ونقياً »

اما (ايهن) فكان يسمي النهضه الفنيه التي ظهرت سـنة ١٨٩٠ « شيئاً يشبه الهندسة » . وكانت (دار الصور) آخر آثاره ، لانه توفي لسوء الحظ في عنفوان الشباب

على ان هذه المهمة التي أخذتها على عاتقي لم تنته الا في النصف الاول من

الحرب . وكان قصر آبائي الذي أصلحته بكل عناء وفاخرت به عرضة لرصاص العصابات الثائرة التي استولت عليه ونهبته ودمرته

اهتمامي بالآثار القديمة

والجمعية الالمانية للآثار الشرقية

ان العناية بالآثار الفنية من أقدس واجبات الدولة . وهـذا الواجب لا مناص من القيام به سواء كانت الحكومة فردية أو دستورية أو ديمقراطية. لان الآثار انما هي مظهر من مظاهر رقي الامة يشجع وجودها رجال الفن ويساعد عن اتساع نطاقه .

وكنت أقضي ساعات فراغي في درس الآثار والحفريات . وكانت غايتي معرفة أحوال الفن اليوناني في العصور الخالية ، والوقوف على المنهج الذي نهجه الشرق للتأثير في الغرب . وكان علم آثار (الاشوريين) عظيم الاهمية في نظري لانه يفضي الى ايضاح (العهد القديم) والتثبت من (التوراة) . لذلك قبلت بسرور عظيم ان أرأس (الجمعية الالمانية للآثار الشرقية) . وتوغلت كثيراً في هذه المباحث وبذلت جهدي في شد أزر القائمين بها

وقد حضرت جميع الجلسات العامة التي عقدتها هذه الجمعية وبسطت فيها نتيجة ابحاثها . وكانت صلاتي حسنة جداً بلجنتها الادارية . وكنت أقف دائماً بكل دقة على نتائج الحفريات في (نينوى) و (آشور) و (بابل) و (مصر) و (سورية) وتوسطت مراراً لدى الحكومة التركية طالباً حماية هذه الحفريات وتسهيل مهمة العلماء القائمين بها وتمكينهم من مواصلة أعمالهم

الاستاذ دليتزش

والآثار الآشورية

وقد ألقى الاستاذ (دليتزشه) الذي كان عضواً في الجمعية عدة محاضرات

عن (بابل) وعن (التوراة) . ولكن سامعيه كانوا لسوء الحظ قليلي الخبرة في هذه الشئون ، ولم يكونوا على استعداد تام لادراكها ، لذلك فسرت محاضراته تفسيراً سيئاً وانتقدت انتقاداً شديداً ، وكانت الاندية الكنسية في جملة المنتقدين

أما أنا فحاولت أن أساعد على ايضاح المسألة ، ولما رأيت أن كثيرين من زعماء الاكليروس البروتستان والكاثوليك شديدو الاهتمام بعلم الآثار الاشورية بينما الشعب بأجمعه لا يعيرها الاهمية التي تستحقها عملت بمساعدة صديقي العزيز الكونت (هلس هزلر) على تمثيل رواية (آشور بنيبعل)

ومثلت الرواية بعد استعداد طويل باشراف (لجنة الآثار الاشورية) ودعي اليها جميع علماء الآثار في العالم كله . فكنا نرى في المسرح ساعة التمثيل الاساتذة ورجال الدين الكاثوليك والبروتستان واليهود جنباً الى جنب

وقد شكرني كثيرون منهم لاني أظهرت بتمثيل هذه الرواية ماذا يمكننا ان ننتظر من اعمال الحفر التى بدأنا بها ، ومكنت الجمهور من ادراك أهمية الآثار الاشورية

آثار كورفو

وساعدني الحظ مدة اقامتي في (كورفو) على خدمة علم الآثار القديمة باهتمامي باعمال الحفر . ومكنني اكتشاف تمثال يمثل رأس (غورغون) بجوار مدينة (كورفو) من أن أدير العمل شخصياً . فدعوت الاستاذ (دُرپفلد) الى مساعدتي ، وهو أستاذي في علم العاديات ، والعالم الخبير بشئون اليونان القديمة . وعهدت اليه الاشراف على أعمال الحفر

وصار هذا العالم الجليل الذي كان مثلي مغرماً باليونان القديمة من أعزّ خلاني وأخلص أصدقائي فيما بعد . فقد لقنني معلومات مفيدة عن الهندسة ، وعن طرز البناء عند اليونان القدماء واللاتينيين

ولقد أسفرت الحفريات الاثرية في (كورفو) عن نتائج مهمة، ولا سيما فيما يتعلق بالدور الذهبي الاول، فان الحفريات دلت على وجود صناعة قديمة جداً ترجع الى ذلك الدور. والظاهر أن اكتشاف تمثال رأس (غرغون) ذو فائدة في تعيين الصلة بين آسيا وأوربا، وذلك ما كنت شديد الرغبة في معرفته. وكنت أرفع التقارير الى الجمعية الاثرية بانتظام، وعملت مع الاستاذ (كارو) المشهور في (أثينة)

وأخذت أعدّ محاضرات أثرية لالقيها في الجمعية عند اجتماعها لسنة ١٩١٤ـ ١٩١٥، وكنت أظن أنني سأميط اللثام فى هذه المحاضرات عن كثير من الغوامض التاريخية

ولما كنت في (كورفو) زارني كثيرون من الأثريين الانكليز والامريكيين وهم من قدماء تلاميذ (دُرپفلد)، وكان هؤلاء أيضاً يعملون بنشاط لحل المسائل المشكلة التي كانت تظهر لنا بين حين وآخر، لأنهم سبق لهم البحث عن الآثار في الانضول، واقتنعوا بان لآسيا تأثيراً مهماً في تكوين الفنون اليونانية الجميلة بأول ادوارها. فلما اكتشفت آثار (كورفو) سلموا بتأثير الشرق على الصناعة اليونانية

وفى سنة ١٩١٤ حضر الاستاذ (دوهن) الهيدلبرغى الى (كورفو) ليرى آثارها. وبعد أن درسها طويلاً وافق على رأيي ورأي (درپفلد)

وكنت أشعر بسرور حقيقي لدى سماعي (درپفلد) ينشد اشعار (هوميرس) ويعلق عليها. فانه كان يأخذ خريطة اليونان ويبين فيها مستعمرات (الاخيين) القديمة التي دمرتها هجرة (الدوريين) وذلك استناداً الى وصف الشاعر وبياناته

والظاهر ان أسماء هذه المستعمرات قد نقلها المهاجرون معهم وأطلقوها على البلاد التي نزحوا اليها. لذلك تعذر على العلماء معرفة مركزها الحقيقي. على ان الاستاذ (درپفلد) توصل بفضل (هوميرس) الى كشف كثير منها وتعيين مراكزها بالدقة التامة

وكان يستند الى الاوصاف الجغرافية الدقيقة التي وصف بها الشاعر العظيم تلك الجهات . وكنت وأنا أسمع (درپفلد) أشعر بقوة تدفعني الى اختبار ما يقوله لي بزيارة الاماكن التى سماها . لذلك ذهبت أنا والامبراطورة بصحبة (درپفلد) بحراً الى لوكاه (ايتاك) وزرنا الاماكن التى خلدت ذكرَها (الاوذيسة) واحداً فواحداً . وقرأ علينا (درپفلد) حينئذ وصف (هوميرس) لهـذه الاماكن فاضطررت بدهشة عظيمة الى الاعتراف بأن هذا الوصف ينطبق تماماً على المناظر التي كنا نراها

على أن الحفريات التي قمت بها فى (كورفو) عادت بنتائج عظيمة سأبسطها في كتاب خاص

وبعد فان امبراطور ألمـانيا ـ الذي يتهمونه بأن لا يفكر فى غير الفتح والسلب ، وبأنه متعطش الى الدماء ، وأنه هو الذي أعدّ أسـباب الحرب ـ انمـا كان يشتغل في ربيع سنة ١٩١٤ بمثل هذه الاشـغال . وبينما كنت أنا منهمكاً بحفريات (كورفو) كانت معدات الزحف تعد لنا في روسيا والقفقاس . ولما سئل قيصر روسيا في أوائل سنة ١٩١٤ عن برنامج السياحات التي يريد أن يقوم بها فى تلك السنة قال :

ـ سأبقى فى بلادي هذا العام ، لأن الحرب واقعة ...



الفصل الثامن

﴿ رأيي في الاديان ﴾

الخلاف بين الكاثوليك والبروتستان — اتصالي برؤساء الدين — زيارتي
البابا لاون الثالث عشر — في سبيل اتفاق الكنائس البروتستانية
القسيس درياندر — كتابي الى الاميرال هولمان — الوحي
الدائم والوحي المنقطع — شريعة
موسى وشريعة حمورابي

الخلاف بين الكاثوليك والبرتستان

كانت صلاتي بالكنيسة موضوع بحث طويل استنفد مقادير من الحبر. لقد أدركت وأنا في مدرسة (بون) لما كنت أمير بروسيا ما للخلاف الديني بين الكاثوليك والبروتستان من التأثير السيء في البلاد ، فان شقة الخلاف بين المذهبين بلغت حدها الأقصى من الاتساع ، حتى أن أشراف (الرين) و(وستفاليا) عمدوا الى مقاطعتي عند ما كنت في الصيد والقنص

اتصالي برؤساء الدين

وقد بدأت منذ ذلك الحين أفكر في ايجاد وسيلة تمكن انصار المذهبين من أن يعيشوا معاً بسلام لمصلحة الوطن ، فجعلت أحسن صلاتي بالاساقفة ورؤساء الدين ، ولا سيما بالكردينال (كوب) رئيس أساقفة (سيار) والدكتور (شولت) والبرنس (برترام) أسقف (تيال) والمونسنيور (فولهابر) والكردينال فون (هرتمان)

وكان هؤلاء الرؤساء كلهم من عظماء الرجال ، ازدانت بهم الكنيسة الألمانية التي أظهرت في ابان الحرب العظمى أعظم اخلاص للامبراطور والوطن، وذلك مما يدل على ان الخطة التي نهجتها أزالت سوء التأثير الذي أحدثته جماعة

أعداء الدين ، ولاسيما لأني وعدت الكاثوليك بان أمهد لهم سبل الحياة الطيبة الهنيئة في الامبراطورية

أجل ، لقد كنت دائما على أتم صلة بالبرنس أسقف (برسلو) وبالكردينال (كوپ) الذي خدمني باخلاص تام ، فوضعت به ثقتي ، وجعلته وسيطي المؤثر لدى (الڤاتيكان) . وكان دأبه أن يدافع عن وجهة النظر الألمانية ، ومع ذلك بقي مظهراً للحرمة والرعاية في (رومية)

زيارتي البابا لاون الثالث عشر

لم يعرف الجمهور الا القليل من الصلات الودية المشربة بالثقة التي كانت تربطني بالبابا لاون الثالث عشر . فقد أخبرني أحد أمراء الكنيسة الذي كان يأتمنه البابا على اسراره انني اكتسبت ثقة البابا منذ زرته للمرة الأولى ، وذلك لاستعمالي الصراحة التامة في حديثي معه . ولا فاضتي في ذكر الأمور التي كانوا يكتمونها عنه عادةً

ان حفلات الاستقبال في الڤاتيكان تقام على الدوام باستعداد وبأبهة لا مزيد عليهما . فالجنود السويسريون مرابطون بكثرة في القصر حيث حرس الاشراف يغدون ذهابا وايابا بملابسهم اللامعة ، وحيث اساقفة القصر وموظفوه ورجال الكنيسة مستعدون دائماً لتنظيم هذه الحفلات التي تدل على عظمة الكنيسة الكاثوليكية في رومية . وفي زيارتي الأولى للڤاتيكان اجتزت الدار والمماشي والقاعات التي كانت غاصة بالمستقبلين حتى جلست ازاء البابا ، وكان في مكتب صغير لايدخله النور الامن نافذة واحدة . وان منظر هذا الشيخ الجليل ، الذي كلل الشيب رأسه الجميل ، ودلت نظراته التي تخترق الفؤاد على ما في قلبه الكبير من كنوز الحكمة ، كان له أعظم تأثير في نفسي . وقد بحثنا في مسائل شتى من المسائل التي كانت تشغل العالم في ذلك الحين . وسرني جداً ان اسمع البابا يعرب عن شكره وارتياحه الى حالة الكثلكة

والـكاثوليك في ألمانيا . وقد أكد لي أنه سيفرغ قصارى جهده ليحمل الـكاثوليك الألمانيين على ان يتباروا مع اخوانهم في حب الوطن والاخلاص له

وكان البابا يعرب عن عطفه عليّ ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وهكذا استقبل حاشيتي ورجالي استقبالا خاصاً في احدى زياراتي لرومية . ثم انه ندب المونسنيور (كوب) الاسقف ـ البرنس لحضور الاحتفال بافتتاح الباب الذي اصطنعته لـكتدرائيـة (متز) . وابلغني انه رقى المونسنيور (فيشر) رئيس اساقفة (كولونيا) كردينالاً تذكاراً لهذا الاحتفال

وقد ارسلتُ الى رومية في سـنة ١٩٠٣ وفداً خاصاً لينوب عني في الاعراب عن عواطفي وأمانيّ للبابا في عيده الفضي ، وعهدت الى البارون الجنرال فون (لي) الذي كان صديقا خاصا للبابا في أن يتقدم بهذا الوفد الى الفاتيكان

وزرت البابا لاون الثالث عشر للمرة الثالثة والاخيرة قبل وفاته ببضعة أشهر ، وقد تقدم قداسته لاستقبالي وصافحني بكلتا يديه ، رغم ضعفه وبلوغه الثالثة والتسعين من العمر

وعقب هذه الزيارة التي كانت مشربة بالود الأكيد كتبت ما جرى لي يومئذ في مذكراتي ، وقد وقع نظري على هذه المذكرات منذ أيام قلائل

ومما أعلنه لي البابا في تلك الزيارة أنه لا يستطيع أن يكتم عني اعجابه الشديد بالمبادىء التي أسير عليها في ادارة بلادي . وقد قال : انه رآني وأنا اعمل ، وراقب عملي بعين الاهتمام ، فأدرك بكل سرور ان سلطتي كانت قائمة على اسمى المبادىء المسيحيـة . وزاد على ذلك ان هـذه السلطة مستمدة من المبادىء الدينيـة ، وانه يستمطر بركات السماء عليّ وعلى اسرتي وعلى الامبراطورية الالمانية جمعاء ثم منحني البركة الرسولية . وسمعت بسرور عظيم قول البابا لي « ان المانيا يجب عليها أن تكون سيف الـكنيسة الكاثوليكية »

فأجبته « ان الامبراطورية الرومانية القديمة لم تعد تشمل الامة الالمانية ، وان الحال تغيرت كثيراً » ولـكن قداسته ظل مصراً على رأيه

وأعرب بعد ذلك عن شكره لي مرة أخرى على ما أعانيه في خدمة الجميع ، وفي جملتهم رعاياي الـكاثوليك . وكان القسس قد ذكروا له المساعي العديدة التي بذلتها في مختلف الشئون ؛ لذلك رأى ان ينوّه أمامي شخصياً بما يشعر به ألـكاثوليك نحوي من عواطف الشـكر والامتنان . وقال ان الـكاثوليك الالمان سيخلصون لي في السراء والضراء ويحتفظون على الدوام بهذا الاخلاص الثابت الأكيد . فشعرت بسرور عظيم لدى سماعي هذا الاطراء من رجل عظيم له ذلك المقام السامي . فقلت : اني أعد من أقدس واجبات الملك المسيحي ان يبذل كل قواه لخدمة جميع رعاياه بلا فرق ولا تمييز . ثم أكدت لقداسة البابا من جهتي ان الجميع يستطيعون القيام بواجباتهم ازاء رأس الـكنيسة بحرية تامة ما دمت في منصب الحـكم فى بلادي . وهذا هو المبدأ الذي عزمت على السير عليه فلا أحيد عنه قيد انملة ماحييت

ولما كنت قد أكدت لمواطنيّ الكاثوليك ان لهم أن يقوموا بواجباتهم الدينية في ألمانيا بحرية تامة اطمأنوا لذلك ، وسادت السكينة في الرأي العام ، فأخذ يزول الخلاف بين الـكاثوليك والبروتستان زوالاً تدريجياً

فى سبيل اتفاق الكنائس البروتستانتية

لا أنكر أن امراء الـكنيسة الـكاثوليكية — عدا الـكردينال كوب — كانوا بالرغم من كل ما تقدّم يعتبرونني « ضالاً » . وأعلم ان هـذا الرأي لم يتلاش تماماً من المحيط الـكاثوليكي في جنوب الامبراطورية وشرقها . نعم ، لقد قيل غير مرة ان الـكاثوليك شاموا السعادة في ابان حكمي ، وانهم شاكرون لي ذلك . ولـكن العداء المتزايد الموجه اليّ من كنيسة رومية في مسألة الزواج المختلط وفي سياسة حزب الوسط كان في كل حين يثير على

« ضلالتي » حسّ الخصومة الذي كان يظن أنه قد تلاشى تحت السطح الذي كان يظهر أنه في حالة السكون

من أجل ذلك كنت أتمنى لو تتفق الكنائس البروتستانية الموجودة في بروسيا ثم الموجودة في ألمانيا ثم الموجودة في اوربا كلها . غير اننا لم نتوصل ويالالأسف الى نتيجة ايجابية . وكان اتحاد الكنائس في بروسيا باعثاً على الارتياح غير أن الكثيرين من امراء المملكة كانوا ينكرون حق الكنيسة عليهم ويقاومون فكرة الاتحاد بين الطوائف البروتستانية ، لذلك لم يمكن دوام اتحاد الكنائس البروتستانية الالمانية رغم ما بذلته في سبيل ذلك من جهد، وظهرتْ بمظهر العجز عن مقاومة القوى العدائية التي كانت موجهة اليها

ولم يحصل الاتحاد المنشود الا في حرب الثورة عند ما كانت الكنيسة مهددة بالخطر ، فان عهد الاتحاد عقد في كنيسة (قصر ديتنبرغ) في عيد الفصح سنة ١٩٢٢ ، وكان ذلك باعثاً لي على السرور العظيم

القسيس درياندر

لما كنت اقضي خدمة الجندية للمرة الاولى في (بوتسدام) لاحظت أن الوعظ في الكنائس ليس على ما ينبغي ؛ لانه قاصر على ذكر المراسم الدينية . أما شخص السيد المسيح فقد أهملوا الكلام عنه . ولكني عرفت بعد ذلك القسيس (درياندر) في (بون) فرأيته يعظ الناس بسيرة السيد المسيح ويتكلم على النصرانية العملية ، فدعوت (درياندر) الى برلين وجعلته واعظاً في الكنيسة العظمى وفي القصر . وظلّ (درياندر) باعث السلوة الروحية لي بمواعظه حتّى بعد ٤ نوفمبر « يعني تاريخ انفصاله عن العرش »

وطالما ذاكرتُ (درياندر) في شئون الكنيسة ، وفي واجب البروتستانية ومصيرها، فكنا نتناقش في هذه الموضوعات بتروّ وامعان ، وكان (درياندر) يعرب لي عن آرائه بحرية تامة فأجدني متفقاً معه في الرأي ، وان همه أن ترتقي الكنيسة البروتستانية

وبعد ٩ نوفمبر صار (دريانذر) أيضاً معرضاً للظلم والاضطهاد

كتابي الى الامبرال هولمان

أما آرائي في الدين فقد أجملتها في كتاب أرسلته الى الأميرال (هولمان) على أثر بيان للاستاذ (دليتز) بشأن بابل والتوراة . واني أضرب صفحاً عن القسم الأول من هذا الكتاب وأذكر منه القسم الثاني وهو :

في ١٥ فبراير ، ١٩٠٣

عزيزي هولمان ،

أريد أن أعرب لك مرة أخرى عن آرائي في الكتب المقدسة ، وفي الدين الموحى به . وأنت تعلم يا عزيزي هولمان ما هي تلك الآراء ، لأني أفضيت بها مراراً اليك ، والى سائر أعضاء الجمعية . والذي أعتقده أن هنالك نوعين من الوحي : وحي متواصل دائم ذو صبغة تاريخية ، ووحي ديني بحت قد مهد لمجيء المسيح

وأقول في الوحي الأول ما يأتي : ان الله يتجلى على الدوام في البشرية التي خلقها ، ولا يخامرني أقل شك في هذا الشأن . فان الباري جل جلاله قد نفخ روحاً في الانسان ، أي نفخ فيه جزءاً منه ، وهو يرقب نمو الجنس البشري بعناية الأب . ويسهل هذا النمو بتجليه تارة في شخص حكيم كبير ، وتارة في شخص كاهن أو ملك ، وقد يكون الشخص وثنياً كما يكون يهودياً أو مسيحياً كحمورابي وموسى وابراهيم وهوميروس وشرلمان ولوثيرس وشكسبير وغوت وكانت والامبراطور غليوم الأكبر كانوا كلهم من المختارين . وقد من الله عليهم بمواهب كثيرة ، وتولاهم بنعمته ، ومكنهم من أن يخدموا أممهم الخدم الجليلة الخالدة التي أرادها ، سواء من الوجهة الأدبية أم من الوجهة المادية فكم مرة أعلن جدي أنه آلة بيد الله . وان أعمال عظماء الرجال انما هي هدية يقدمها الله للشعوب لكي تقتدي بها ، وتستنير بنورها في ظلمات هذا العالم واضطراباته

ولا ريب في أن الوحي اختلفت أنواعه باختلاف الشعوب واختلاف منزلتهم من الحضارة والرقى . ولا يزال الوحي مستمراً الى اليوم فكما أننا نطأطىء الرءوس اجلالا لعظمة الخلقة كلما تأملنا فيها ، وكما أننا نقف حائرين أمام عظمة الخالق وقدرته ؛ كذلك ننظر بعين الاعجاب الى القوة الالهية التي تظهر في كل ما يفعله الفرد أو الشعب من الأمور العظيمة السامية . وهكذا نرى آثار العمل الالهي ظاهرة فينا وبادية علينا

أما النوع الثاني فهو الوحي الديني أو التجلي . وقد بدأ منذ عهد (ابراهيم الخليل) ، وظهر فيه تأثير الوحي الالهى بأعظم مظاهره ؛ فأنقذ البشرية من هلاك محقق

لقد كان (ابراهيم) وشعبه وذريته يعتقدون بخالق قدير واحد ، ويقبلون هذا الاعتقاد بكل نتائجه ، ويعززونه في نفوسهم بكل ما اوتوه من قوة الايمان

ثم سحقتهم العبودية في (مصر) ومزقت أوصالهم ، فجاءهم (موسى) بقوة الوحي ، ووثق عرى اتحادهم مرة أخرى . وظل الرب يحيي الشعب اليهودي بتدخله المباشر الى أن ظهر (المسيح) الذي تنبأ عنه الانبياء . والمسيح هو أعظم مظهر تجلى به الرب فى العالم لأنه تجلى في شخص ابنه . فالمسيح هو الله ، الله الذي صار انساناً فحررنا ، وقوى عزائمنا ، ودعانا الى السير وراءه . فنحن نشعر بحرارته في نفوسنا ونستمد القوة من عطفه علينا ، وتخور قوانا من مجرد استيائه منا ، ولكنه يمد الينا يده وينقذنا

ولما كنا على ثقة تامة بالنصر وبكلمته الالهية فاننا نحمل صليبنا ونتحمل آلامنا غير مكترثين بما نعانيه من الشقاء والويلات والاهانات ، حتى نصل الى القبر حيث تتجلى لنا كلمة الله التي لم تكذب قط

هذا هو معتقدي . وان كلمة الله في نظرنا نحن البروتستانت صارت بفضل لوثيرس كلمة الانجيل الخالصة من كل شائبة . وان (دليتز) بصفته عالماً من

علماء اللاهوت لا يقدر أن ينسى أن (لوثيرس) الكبير هو الذي علمنا الانشاد والايمان

ولا ريب عندي في أن العهد القديم (التوراة والزبور والكتب الأخرى) يحتوي على صفحات عديدة كتبتها يد البشر فلا يمكن أن نعدها الاصحفاً من التاريخ لا تتضمن شيئاً من الوحى الالهى . وهذه الصحف هى وصف لحوادث تاريخية ذات صلة بحياة الشعب الاسرائيلي وشئونه السياسية والدينية وأخلاقه وعاداته وأطواره النفسية

فالحالة التي ظهر بها (موسى) يوم أعلن شريعته على (طور سينا) يجب أن تعد من الرموز الموحى بها ، لأن موسى ـ الذي رأى شعبه بلغ من الانحلال وضعف الارادة مبلغاً لا يستطيع معه الوقوف ـ اضطر الى الالتجاء الى الشريعة القديمة « التي يرجع أصلها على الغالب الى شريعة حمورابي » فأخذها وجمعها وسبكها في قالب ملائم لروح ذلك العصر

ويستطيع التاريخ أن يجد صلة كبيرة في المعنى والمبنى بين شريعة (موسى) وشريعة (حمورابي) صديق (ابراهيم) ، ولا يبعد أن تكون هذه الصلات معقولة وان نجد لها ما يبررها . ولكن ذلك لا يؤثر في حقيقتها ، وفي أن الله هو الذي أوحى بها الى (موسى) وانها ظهرت كذلك للشعب الاسرائيلي

وهذا ما يجعلني أعتقد بأن استاذنا المحترم يجب عليه أن يتحاشى البحث في مسألة الأديان في المحاضرات التي يلقيها على أعضاء جمعيتنا من الآن وصاعداً . على أنه يستطيع مع ذلك أن يبحث في أديان (البابليين) وأخلاقهم وعاداتهم في سياق كلامه عن العهد القديم

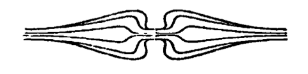
وان ما قدمته يوصلنى الى النتائج التالية :

(ا) أعتقد أن الله واحد

(ب) لكى ننشر هذا الاعتقاد يجب علينا نحن البشر أن نجد له شكلاً يفهمه أولادنا

(ج) وهذا الشكل هو العهد القديم كما وصل الينا
ولكن الابحاث العلمية والحفريات ستحدث تغييراً كبيراً في هذا الشكل فمن الواجب ان لا يهمنا ذلك حتى ولو فقد (الشعب المختار [1]) شيئاً من منزلته ، لأن المغزى والروح يبقيان كما هما : الله وتجلياته
لم تكن الديانة يوماً ما بنت العلم لأنها شعاع يخرج من القلب ومن جوهره الفرد بالاتحاد مع الله
هذا واني أهديك في الختام فائق شكري مع عواطف صداقتي وأنا على الدوام صديقك

غليوم — الامبراطور والملك



(١) هو الاسم الذي يطلق على اليهود في التوراة

الفصل التاسع

« الجيش والاسطول »

صلتي بالجيش - الجيش مدرسة - معداتنا الحربية
الاميرال هولمان والاسطول
الاميرال تربيتز وأعماله

صلتي بالجيش

مامن أحد يجهل صلاتي الحسنة بالجيش ، تلك الصلات التي كنت أعمل دائما على توثيق عراها ناهجاً نهج آبائي وأجدادي . فان ملوك بروسيا لم يسعوا وراء الخيالات البعيدة ، بل كانوا يعرفون عن ثقة أن البلاد لاتنمو الا اذا كان لها جيش قوي يحمي سكانها العاملين ويصون تجارتها . فاذا كنتُ قد أعلنت غير مرة في خطبي ان « البارود يجب ان يبقي ناشفاً والسيف مشحوذاً » فان هذا الانذار كان موجهاً الى الاعداء والاصدقاء معاً . وقد قصدت بهذه الاقوال افهام الخصم بأن الواجب عليه انعام النظر ملياً في عواقب الامور قبل أن يناصبنا العداء

وأردت أيضاً أن أبثّ عواطف الرجولية في الشعب الالماني ، حتى اذا ما أزفت الساعة التي نضطر فيها الى الدفاع عن ثمرة اتعابنا ضد عدوّ غشوم مغتصب نجد لدينا امة قوية باسلة تقف في وجهه وتحول دون تحقيق آماله

وكنت أعلق أهمية كبرى على مهمة تعليم الجيش وتثقيفه ، وأعتقد أن للخدمة الاجبارية تأثيراً اجتماعياً عظيماً لأنها تقرب الغني من الفقير ، وابن الريف من ابن المدينة ، وتعلم الشبان على اختلاف درجاتهم وتباين انواع معيشتهم أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتحابوا

ثم ان الرغبة في خدمة غاية واحدة تجمع بينهم وتوحد آمالهم وأمانيهم.
وقد توصلنا الى نتائج مفيدة من هـذا القبيل ؛ فشباننا الذين اعتلت ابدانهم واصفرّت وجوههم تحولوا بفضل الخدمة العسكرية الى رجال أشداء واكتسبت عضلاتهم القوة والمرونة كأنما خلقوا للالعاب الرياضية

واني استعمل عبارة الملك (فريدريك غليوم الثالث) فأقول: اني ارتقيت من قائد لواء الى عرش المملكة رأساً. ولـكني اجتزت قبل ذلك جميع رتب الضباط حتى بلغت تلك القيادة. ولا ازال أذكر بسرور عظيم ذلك العهد البعيد حينما ظهرت للمرة الاولى على رأس فصيلتي يوم ٢ مايو سنة ١٨٦٩ أمام جدي الامبراطور في ابان مناورات الربيع

وكنت دائما احرص على العلاقات الشخصية وأقدرها اقدرها. وقد احببت ساعات الخدمة لانها كانت تمكنني من تعزيز هـذه العلاقات. واني اذكر على الدوام ما بذلته من النشاط لما كنت قائد بلوك فقائد بطارية مدفعية ثم كولونيلاً

وكنت ـ وأنا بين جنودي ـ اشعر بأني في بيتي ؛ وكانت ثقتي بهم على أتمها ولا تزال كذلك. لان تجارب خريف سنة ١٩١٨ المؤلمة لم تؤثر فيها أقل تأثير

ولا يمكنني أن انسى أن الشعب الالماني قد أصيب بداء شديد على أثر المجهودات العظيمة التي بذلها والآلام الشديدة التي عاناها في أربعة أعوام متواصلة ؛ فلم يعد في طاقته الثبات ازاء دسائس العدو في الداخل والخارج.
على ان خيرة الرجال كانوا قد قتلوا في تلك الاثناء ؛ وذعر الباقون من جراء الثورة الغريبة التي يعجز العقل عن تصوّرها. فلم يستطيعوا ان يلموا شعثهم بالسرعة المطلوبة للقيام بعمل جدّي

الجيش مدرسة

وكانت الخدمة العسكرية ـ في الوقت نفسه ـ مـدرسة أدبية للشعب ؛ وكم أخرجت من رجال ذوي مـدارك وتفكير حر ؛ نبغ من بين الجنود

صغار الضباط ومن بين هؤلاء قواد أكفاء ماهرون مخلصون لواجباتهم تحسدنا الدنيا على مثلهم . وان الاخلاص الذي شاهدته في هؤلاء الرجال الطيبين هو سلوتي العظيمة الآن . وان بلوكي القديم ـ البلوك الثاني من ألاي الحرس الاول ـ الذي صحبني في السراء والضراء لم ينس قط قائده السابق . وقد رأيته للمرة الاخيرة عام ١٩١٣ بمناسبة الاحتفال بمرور ربع قرن على جلوسي ، وكان عدد جنوده ١٢٥ جندياً بقيادة النقيب [1] (هارتمان)

لقد تبوأ الضباط في الحكومة المكانة الخاصة بزعماء الأمة المسلحة ومهذبيها . وكنت اسر بنوع خاص لما بيني وبين الضباط من الصلات المتينة حتى غدوت بمنزلة الاخ الحقيقي لهم

ولا ازعم أنهم كانوا مبرأين من الاهواء المادية المعروفة في هذا الزمان . ولكن التضامن الموجود بين الضباط ، واخلاصهم للواجب، وفكرة السذاجة التي عندهم ـ كل ذلك مما لايوجد بجلاء تام في أهل صناعة اخرى كما هو موجود في الضباط . وهم لا يرتقون الا بعد امتحان دقيق لايوجد مثله في عمل آخر . أما الجنرالات وكبار القواد فلا يكونون الا من ذوي المبادىء والمعارف العالية والكفاءة

وكان رجال أركان حربنا عبارة عن مدرسة عالية لضباطنا . فالمشير (مولتكه) لم يقتصر تدريبه الضباط على تعليمهم واجباتهم العسكرية فقط ، بل قد استطاع ان يخرج منهم رجالا يتحملون مسئولية الاعمال ، ويقومون بالشئون المهمة على انفراد ، ويصدرون الاحكام الصائبة في الحوادث المختلفة بفكر واسع ونظر بعيد . وبالجملة فانه كان يرمى في تهذيب الرجال الى جعلهم « رجال عمل » وقد سار خلفاؤه على طريقته من الكونت (والدرسه) الى الكونت (شليفن) فالجنرال فون (مولتكه) . وقد قام رجال اركان حربنا باعمال جليلة في الحرب كان العالم كله ينظر اليها بعين الاعجاب

(١) النقيب : الباش شاويش

معداتنا الحربية

وكنت قد ادركت منذ البدء أن تنظيم معداتنا الفنية وايصالها الى درجة الكمال من أعظم الوسائل اللازمة للجيش ، فانها تقيه كثيراً من ويلات الحروب، وتمكنه من الاقتصاد في الدماء الثمينة التي تراق فيها. لذلك بذلت كل جهد مستطاع لتعزيز معدات الجنود ووضع الآلات الميكانيكية في خدمتهم. وكانت المدفعية الضخمة أول سلاح جديد أوجدته ، وقد صادفت مقاومة شديدة فى بدء الامر ، وكانت هذه المقاومة من رجال المدفعية خاصة . وقد سررت جداً لاني تمكنت من التغلب عليها وتنظيم المدفعية الضخمة التي يعود اليها الفضل في جميع الاعمال العظيمة فى الحرب الماضية ولا سيما لأن اعداءنا قضوا زمنا طويلا قبل ان يلحقوا بنا ويجارونا فى هذا الميدان

ويجدر بي ان لا انسى المتراليوز الذي صار أعظم قوة فى يد المشاة بعد ما كان من الوسائل الثانوية .فان بندقيات المتراليوز التي حلت محل البندقيات العادية قد زادت قوة النار وقللت الخسائر من الرجال

وكان لاستعمال المطابخ النقالة شأن عظيم ، وقد رأيت هذه المطابخ تعمل للمرة الاولى فى ابان مناورات الجيش الروسى ، وتساعد مساعدة عظيمة على حفظ قوة الجيش وعلى اعطاء الجندي غذاء صحياً ساخناً

ولا ريب فى ان المجهودات البشرية لا يمكن أن تكون كاملة ، ولكني استطيع مع ذلك ان اقول بلا مبالغة ان الجيش الالماني الذي حشد للقتال فى سنة ١٩١٤ كان جيشاً لا مثيل له فى العالم

الاميرال هولمان والاسطول

اذا كنت قد وجدت الجيش الالماني يوم ارتقائي العرش في حالة لا ينقصه معها سوى التمرين والتثقيف وفقاً للمبادىء العسكرية المعروفة فان الاسطول الالماني كان في الحقيقة اسماً بلا مسمى

وقد بذل الاميرال فون (هولمان) وزير البحرية كل المجهودات الممكنة لاقناع (الرخستاغ) صاحب الافكار القديمة البالية بوجوب تعزيز الاسطول تعزيزاً منظماً بالتدريج . ولكن مجهوداته كلها ذهبت أدراج الرياح ؛ لان النائب (ريختر) أحبطها بعبارات هزلية سهلة ، ولان احرار حزب الشمال ـ الذين ساروا سيراً أعمى وراء هذا الرجل ـ أصروا على غيهم ، ورفضوا ان يفتحوا عيونهم للنور . فطلب مني (هولمان) حينئذ أن أبحث عن خلف له . وقد وافقت على ذلك بأسف شديد ، لان هذا الرجل البسيط سليل أسرة من الاسر الكريمة في (برلين) ، وقد اكتسب ثقتي فأحببته لصراحته واخلاصه وحبه للواجب ، وقدرت هذا الرجل حق قدره ، وبقيت على صلة تامة به الى أن أدركه الأجل فجأة

وكنت أتردد دائماً على (هولمان) ، وأجتمع في منزله باعضاء (جمعية العاديات الالمانية للشرق) . وكان هو أيضاً يزورني مع بعض اخصائه . وقد وجدت فيه رفيقاً لا مثيل له فى ابان سياحاتي ، وكنت أعده من أعز أصدقائى وأخلص خلانى . أما هو فقد ظل على الدوام الرجل الذي لا يطلب شيئاً لنفسه . فيالها من مدينة سعيدة تلك المدينة التي تنجب مثل هذا الرجل الذى لا أزال احفظ له أجمل عواطف الود والاحترام

الاميرال ترپيتز

وحل الاميرال (ترپيتز) محل (هولمان) فى البحرية ، وأدرك مثلي منذ أول خطبة ألقاها فى (الرخستاغ) عن القانون البحري أن الاسطول لا يمكن تعزيزه مالم يلجأ الى وسيلة جديدة . لان مقاومة المجلس كانت شديدة لا يمكن التغلب عليها ، وقد عمد الهر (ريختر) الى السخرية فى ابان المناقشة ، وكان مزاحه غير لائق بموضوع عظيم الشأن كهذا الموضوع

لقد كانت الحاجة ماسة الى وجود من يناصر وزير البحرية ، سواء فى

الوزارة أو في الراخستاغ . وذلك يقتضي اقتناع الراخستاغ أولا بضرورة الاسطول وقيمته وخطورته ، ثم يجب لفت أنظار الشعب نحو الاسطول والتأثير على الراخستاغ بواسطة الرأي العام ، ولا يكون ذلك الا ببث الدعوة الواسعة في الصحف على أن يؤازرها في ذلك العلماء اليقظون وأساتذة المدارس العليا الغيورون . وفضلا عن ذلك فان من الواجب أن تعرض شئون الاسطول على الراخستاغ منفردة ، حتى يرسخ في الأذهان ان للأسطول كياناً غير كيان الجيش

وكان عدد الذين يدخلون (المدرسة البحرية) في أول عهدي يختلف في السنة بين الستين والثمانين على الأكثر . أما في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب فكان الشبان يتقدمون اليها بالمئات

على أننا أضعنا ١٢ سنة من أثمن سني تاريخنا بسبب عناد (الراخستاغ) وقد عجزنا عن تعويض هذه السنوات لأن الأسطول كالجيش لا يسهل اعداده بين عشية وضحاها

وان الغاية التي كان يجب أن نرمي اليها مذكورة في باب « خوف المغامرة » من القانون البحري . أي ان اسطول العدو مهما يكن عظيما يجب عليه ان يفكر ملياً قبل الاقدام على مناصبة أسطولنا العداء ، وان الخوف من الخسارة التي يتكبدها في ابان المعركة والتي تتركه غير صالح للقيام بأعمال أخرى يجب ان يمنعه عن مهاجمة الاسطول الألماني . وقد ظهر « خوف المغامرة » بأتم مظاهره في معركة (سكاجراك [1]) فلم يجرأ العدو — رغم تفوقه العظيم — على قبول معركة بحرية ثانية . فنجم « طرف الغار » قد أفل ، والفخر الذي كلل هام انكلترا على أثر تلك المعركة لم يكن ليعرض للخطر مرة اخرى

وكنا قد اتخذنا عدد الوحدات الموجودة أساساً للتقدير الذي اعتمدنا عليه في اعداد القانون البحري ، وقد فكرنا في بوارج الميدان خاصة ، مع ان

(١) انظر ص ٥١

هذه البوارج لم تكن الا حدائد أكلها الصدأ ، هذا اذا استثنينا البوارج الاربع التي من طرازه « براندبواج »

وقد ظن كثيرون ممن لا يبالون بغير الارقام ان القانون الجديد سيمهد السبيل لزيادة اسطولنا زيادة عظيمة ؛ ولكن هذا الظن لم يكن في محله لان ما كانوا يسمونه اسطولا لم يكن له من الاسطول سوى الاسم . وقد صدق (هولمان) فيما قاله بعد استعفائه من ان الاسطول يموت ببطء من ضعف الشيخوخة ، لان بوارجنا كانت أقدم بوارج اوربا كلها

وعمل (تربيتز) بهمة عظيمة على تنفيذ المشروع الذي وافقتُ عليه . فبذل عزماً حديدياً ، وصرف قواه وصحته في تحقيق الآمال التي عقدت عليه حتى تمكن في النهاية من لفت أنظار الرأي العام الى مسألة الاسطول

وكنت قد امرته بالذهاب الى (فريدر يخسروه) لعرض مشروع القانون البحري على (بسمرك) واقناعه بحاجة المانيا الى أسطول قوي

وسعت الصحافة سعياً مشكوراً لحمل الرأي العام على قبول المشروع واعداده للموافقة عليه . ووقف علماء الاقتصاد ورجال السياسة الخبيرون بالشؤون التجارية أقلامهم على خدمة هذه الفكرة الوطنية السامية . وهكذا توصل الجمهور في النهاية الى تقدير أهمية الاسطول وحاجة البلاد الى قوة بحرية كبيرة

وساعدَنا الانكليز في تلك الاثناء على تنفيذ المشروع وحمل الرأي العام على قبوله من غير ان يريدوا ذلك ، فان حرب البوير التي كانت معلنة أوجدت في الامة الالمانية عطفاً عظيما على ذلك الشعب الصغير ، وبلغ الاشمئزاز غايته في بلادنا من المعاملة الجائرة التي عومل بها الشعب البويري

وبينما الحالة على هذا المنوال وردت الانباء بان البورج الانكليزية صادرت باخرتين المانيتين كانتا تتنقلان على شواطيء افريقية الشرقية بلا سبب ومن غير حق فقابلت المانيا كلها هذه الحادثة باعظم مظاهر الحنق والاشمئزاز واتفق

أني كنت والاميرال (تربيتز) في دائرة الكونت (بيلوف) بوزارة الخارجية لما بلغنا خبر مصادرة الباخرة الثانية . فما كاد يقرأ (بيلوف) التلغراف حتى تذكرت المثل الانكليزى القائل « مهما يكن الريح سيئاً فان فيه فائدة لبعض الناس »

فصاح (تربيتز) قائلا : « لقد ساعدنا الريح الآن على ابلاغ زورقنا الى الميناء ، فلم يبق لدي أقل شك في الموافقة على القانون . وكان من الواجب على جلالتكم ان تنعموا بوسام على القائد الانكليزي الذى كفل لنا الموافقة على القانون البحري »

وطلب المستشار زجاجة من الشمپانيا فشربنا نخب القانون البحري والاسطول الالماني العتيد والبحرية الانكليزية التي مهدت لنا سبل النجاح

ذهبت بعد هذا الحادث بأعوام الى الصيد والقنص في املاك اللورد (لونسدال) في (لوتر كاستل) ، وعند عودتي من الصيد مررت على اللورد (روزبري) من كبار الاحرار الانكليز وأحد وزراء الخارجية والكاتب المعروف بابحاثه عن (نپوليون) . وقد تناولت الطعام على مائدته في منزله الجميل في (دالمني كاستل) بجوار جسر (فورث) الكبير على مقربة من البحر وكان بين المدعوين السر (ايان هملتون) أحد الاسكوتلنديين الذين امتازوا في حرب البوير وقد عرفته لما نزل ضيفاً عليّ في ابان المناورات الامبراطورية ؛ ثم حاكم (ادنبورغ) وضابط بحري بريطاني برتبة كاپيتن كان يدير ميناء تلك الجهة

وقد جلس هذا الضابط الى جانب الاميرال البارون (سندن) أي ازائي تقريباً . وقد لاحظت شدة ارتباكه وهو يكلم الاميرال بصوت مخنوق . وقدمه الاميرال لي بعد الغداء فاستغربت قلقه وارتباكه واصفرار وجهه . ولا ريب في انه كان يبحث في شئون بحرية مع الاميرال ، فلما انتهى حديثي معه سألت الاميرال عما به ، فضحك وقال انه اعترف له على المائدة بانه هو الذي صادر الباخرتين الالمانيتين في أثناء حرب البوير وانه يخشى ان يبلغني هذا الخبر . ولكن الاميرال هدأ روعه بقوله :

ـــ اذا عرف جلالته من أنت قابلك بلا ريب أحسن مقابلة . ولا يبعد ان يشكر لك صنيعك

ـ يشكرني ولماذا ؟

ـ لانك ساعدت جلالته مساعدة عظيمة على تقرير القانون البحري

***

كان أهم ما يجب علينا معرفته لانجاح قانوننا البحري ما اذا كان برنامج دور الصناعة البحرية الالمانية صالحاً للعمل به أم لا . وقد برهن الامبرال (ترپيتز) على عزيمة صادقة في هـذا الباب ، حتى غدت دور صناعتنا البحرية من أهم معاهد الجد والعمل ؛ بفضل ما لقينه من تشجيعه وتنشيطه ؛ واستطاعت ان تتفوق على دور الصناعة الاجنبية المنافسة لها . وقد ظهر بذلك امتياز المهندسين الالمانيين بمعارفهم الواسعة ؛ وامتياز عمالهم بمهارتهم الحميدة

ان الاميرال (ترپيتز) الذى لا يعرف التعب معنى لم يكن قط يملّ من القاء الخطب والمحاضرات ، ولا من مواصلتي بالتقارير ، ولا من مراقبة دور الصناعة البحرية . وقد استطاع أن يشاهد بنفسه ثمرات مساعيه و نتائج اتعابه فاستيقظت الامة من سباتها ، وفهمت قيمة مستعمراتنا ، والطريق الموصل الى ارتقاء تجارتنا في المستقبل . وأضحى الشعب مهتما بالعمل ، و بالاسفار البحرية وباعداد وسائل القوة . وان اولئك المستهزئين من المعارضين كفوا عن استهزائهم بعد ان أماط لهم الاميرال (ترپيتز) اللثام عن وجوه القوة فى حملته عليهم . فهو لم يكن يمزح ، ولم يمكن أحداً من أن يمازحه

وأخيراً حل اليوم الاكبر فوافق المجلس بأكثريته الساحقة على القانون البحرى بعد مناقشة وجدال طويلين . ومن ذلك اليوم صار لالمانيا كيان بحري وغدا ممكناً الشروع بانشاء الاسطول . وبفضل اطالة مـدة الخدمة البحرية والانشاءات استطعنا أن نوجد عمارتنا البحرية

وكان يجب ان يسنّ نظام لعمل المناورة بالاسطول ، وادارته ؛ وللمناورات

الجديدة بوجه عام ، وللاشارات البحرية . فانه عند جلوسي على العرش كان عندنا نظام لأجل فرقة بحرية واحدة تتألف من اربع سفن حربية ، اذ ان الاسطول الالمانى العامل لم يكن يزيد على هذا المقدار في ذلك الحين . ولما كانت هذه السفن ستجرد من سلاحها فى الخريف الآتى فالاسطول الالمانى سوف يكون في حالة العدم في الشتاء القادم اذا استثنينا الطرادات الموجودة في البلاد الاجنبية . وعلى هذا فانه سيذهب ادراج الرياح كل التعب الذي بذلناه منذ ستة أشهر لايجاد جنود البحرية وضباطها وقوادها والميكانيكيين والوقادين

وفي الواقع انا اذا جردنا الاسطول من سلاحه بعد الخريف ، ثم جئنا نجمع القرعة الجديدة من جنود البحرية في الربيع نجد أنفسنا مضطرين للشروع بكل شيء من جديد فيحدث طفرة وانقطاع في التعليم البحرى ويكون البحارة جميعاً فى سفائن لم يألفوها . وعلى ذلك أصدرت أمري بأن تبقى السفن العاملة في الشتاء أيضاً لان بقاءها لامناص منه لترقية الاسطول . ولما كنا لا نملك سفناً لأجل خط الحرب فان الاميرال (تربيتز) عني بجمع كل ما عندنا من السفن مهما تكن قيمتها وأخذ يعدها لاستعمالها في تجربة نظام المناورة عند تجديده . ثم دعا جميع الاخصائيين الى الاشتراك في تجديد هذا النظام فعملوا بكل مداركهم لاصلاحه واصلاح الاسطول ، وبذل مثل هذه العناية لتخريج جنود السفن الطربيدية التى هي من أهم الاسلحة البحرية . وفي سنة ١٨٨٧ سررنا واغتبطنا بايجاد أول فرقة طربيدية اخترقت لجج بحر الشمال بقيادة شقيقي الامير (هنرى) للاشتراك في عيد مرور نصف قرن على تتويج الملكة (فكتوريا)

ثم التفتنا الى (هليغولند) ، وكانت من قبل محطة للدوارع الخفيفة والسفن الطربيدية ، ثم للغواصات . ولما أردنا أن نجعلها حصينة منيعة حدث خلاف شديد على ذلك بين (رايخش) و (بروسيا)

وكان تعزيز الاسطول وجعله قوياً يقتضى توسيع (قنال القيصر ويلهلم) ،

فقام الجدال أيضاً حول النفقات اللازمة لانشاء الاقنية والمجاري اللازمة لذلك حتى تكون صالحة للبقاء طويلاً ومناسبة لضخامة سفن الدريدنوط الجديدة

لقد تحقق كل ما كان يقدّره الاميرال ، فكان الثناء على مشروعاتنا في هذا الباب والاعتراف بقيمتها من نصيب رجل اجنبي ، ذلك بأننا رجونا حكومة الولايات المتحدة أن تأذن للكولونل (كوتهالس) ـ الذى أنشأ (قنال پناما) ـ بأن يزور (قنال القيصر ويلهلم) ؛ فلبت حكومة الولايات المتحدة طلبنا في الحال

وبينما الكولونيل (كوتهالس) يتناول الطعام على مائدتي مع الاميرال (ترپيتز) سأله الأميرال عن ابعاد اقنية (پناما) ففهمنا من جوابه انها أصغر من أبعاد أقنيتنا . وحينئذ قال له الأميرال :

— اذن فأقنية (بناما) لا تساعد على مرور سفن الدريدنوط الضخمة التي تنشأ الآن ، اما اقنيتنا فتساعد على ذلك

فقال الكولونيل : ـ نعم ؛ هو ما تقول

واثنى على الانشاءات التي تعمل عندنا

وفضلاً عن ذلك فان الاميرال (ترپيتز) كان قد عمل على اصلاح وتكبير دور صناعتنا البحرية القديمة التي كان يدعوها (ورشات الصفيح) ، فأفرغها في شكل عصري توفرت فيه كل المعدات الحديثة ، واتخذت جميع الأسباب التي تدعو الى راحة العمال ورفاهتهم

وكان النظام الجديد الذي وضع لوزارة البحرية قد أقام في مقام القيادة البحرية العليا رئاستين جديدتين احداهما أركان حربية امارة البحر ، والثانية وزارة البحرية نفسها . وهاتان الرئاستان وضعتا — كالجيش — تحت سلطة القيادة الحربية العليا مباشرة ، وبذلك لم يبق بين الامبراطور وأسطوله حاجز يحول بينهما

ولما بهر الأميرال (فيشر) الانكليزي العالم كله بسفينة الدريدنوط التي انشأها ساد الاعتقاد بأنه قد ضمن للبحرية البريطانية سلاحاً جديداً فاقت

به على أسلحة سائر أساطيل الأمم ، فلن تستطيع أمة بعد الآن أن تضارعها. ولـكن الحقيقة هي أن الدريدنوط لم يكن من بنات أفكار الاميرال (فيشر) بل من ثمرات دماغ مهندس ايطالى اسمه (كوني برتي) فانه نشر كتاباً لقن به جميع العاملين فى الانشاءات البحرية أفكاراً مختلفة . وكنت على رأي واحد مع الأميرال (ترپيتز) في ان قبول الانكليز لطراز الدريدنوط قد ذهب بالأهمية التي كانت للسفن الحربية الأخرى. وكان هذا الرأي يصدق على الأسطول الألماني بوجه خاص لقلة عدد سفائنه

وقال لى الاميرال (ترپيتز) :

— اذا اقتفت الدول الأخرى أثر (فيشر) فان انكلترا ستضطر حينئذ الى اهال كل ما كانت تعتمد عليه من قواتها البحرية غير الدريدنوط وتشرع في انشاء سفن أخرى ضخمة تعدها لمقابلة جميع أساطيل العالم . وان هذاالعمل سيكلفها نفقات طائلة ، لأن المبدأ الذي قيدت نفسها به في أن يكون أسطولها معادلاً لأساطيل دولتين اجنبيتين سيفتح الباب أمامها واسعاً

ولما كانت الطرق التى انشأنا بها سفننا الحربية لا تجعلها صالحة للوقوف في وجه هذه السفن الضخمة فقد كان من رأي الأميرال (ترپيتز) انه لامناص لنا من انشاء مثل هذه السفن . وقد برهنت حرب ١٩١٤ على أن الاميرال كان محقاً في اعتقاده ، لأن جميع السفن التي لم تكن من المدرعات الضخمة لم تصلح في الحرب للعمل

وقامت قيامة بريطانيا العظمى لما انزلنا الى البحر البارجة الاولى من طرز « سوبر دريدنوط » لان الانكليز كانوا يعتقدون ان (فيشر) وجماعته محقون فيما يزعمونه من اَن ألمانيا لن تستطيع فى حالما ان تنشيء بارجة كبيرةمن بوارج القتال ، لذلك كانت خيبة آمالهم عظيمة جداً . والحقيقة أنهم أخطأوا في حسابهم خطأً لم يكن منتظراً منهم ، لا سيما وان دور الصنعة الالمانية كانت قد انجزت عدداً من البواخر التجارية العظيمة التى يزيد محمولها على محمول

بوارجنا والتى جعلت تزاحم البحرية التجارية البريطانية مزاحمة شديدة

ولم تظهر بوارجنا العظمى في (سكاجرّاك) من طينة بوارج العدو فقط بل اثبتت تفوقها عليها سواء بسرعة حركاتها أم بمزايا السباحة والعوم التى تفردت بها

ولم نتمكن قبل الحرب من تعزيز الغواصات كما كنت احب . لان زيادة الميزانية البحرية لم يكن مرغوباً فيها من جهة قبل ان ينفذ القانون البحرى تماماً ولاننا من جهة اخرى احجمنا ازاء التجديد الذي لم يكن قد ايده الاختبار

وكان من رأي (تربيتز) ان الغواصات التى تنشئها الدول الاخرى صغيرة جداً لا يرجى منها أقل فائدة الا في حماية الشواطئ . وقال أيضاً : ان المانيا يجب عليها ان تنشيء بوارج عظيمة تسير تحت الماء وتستطيع ان تظهر فى معركة بحرية حين الحاجة . لذلك يجب احداث غواصات كبيرة تبلغ درجة الكمال مع الزمن . واقتضى تنفيذ هذا المشروع زمناً طويلا وتطلب تجارب دقيقة اجريت في انواع مختلفة من الغواصات . ولهذا السبب لم يكن لدينا الا اسطول صغير من الغواصات يوم اعلنت الحرب سنة ١٩١٤ . على انه كان فى امكان هذا الاسطول ان يشدد الخناق على انكلترا لولا خوف المستشار من ان يدفعها الى درجة اليأس

وزاد عدد الغواصات زيادة سريعة في ابان الحرب وبلغت حداً من الاتقان جديراً بالاعجاب

واذا شئنا ان نقدر عدد الوحدات البحرية في أيام الحرب وجب علينا أن نقسمها الى ثلاثة أثلاث : الأول في ميدان القتال ، والثاني يتنقل من مكان الى مكان والثالث يرم في دور الصنعة

ومع ذلك فان الأعمال الباهرة التي قامت بها الغواصات الألمانية كانت موضوع اعجاب العالم كله . فالوطن مدين لبحارتها بأعظم عواطف الشكر وعرفان الجميل

ويجب ان لا ننسى ان الاميرال فون (تربيتز) هو الذي أوجد مرفأ

(تسنغ تاو) التجاري وان مهارته في الادارة والتنظيم قد ساعدته على بلوغ النجاح في كل ما حاوله من الأعمال . وبمهارته وكفاءته تحول ذلك الموضع — الذي كان لا قيمة له وفي حكم المجهول — الى مرفأ تجاري تبلغ حركة البيع والشراء فيه خمسين الى ستين مليوناً من الماركات

وتمكن الاميرال (تربيتز) — بما له من العلاقات مع اعضاء الراخستاغ ورجال الصحافة والمعاهد الصناعية الكبرى والاندية التجارية — من أن يصير يوماً بعد يوم ذا كلمة نافذة في السياسة ولا سيما الخارجية . وكانت مسائل السياسة الخارجية تجر دائماً الى ما يتعلق بالسفن

وان السياحات التي قام بها هذا الرحل البحري في البلاد الاجنبية جعلته واقفاً على أحوال تلك البلاد ووسعت دائرة أفكاره فصار خاطره يلبيه عند الحاجة . فيصدر الأحكام الصائبة حالاً في المسائل التي تعرض له . ولما كان نشيطاً بالطبع فهو يطالب دائماً الاسراع في تنفيذ ما يقرره في الشئون المختلفة ، ويضيق صدره جداً من معارضة الموظفين له ، ومن حالتهم الروحية البطيئة

وكان فون (تربيتز) قليل الثقة بغيره ، وان خلقه هذا — بما انضم اليه من التجارب — قد حمله على أن يسيء الظن بالناس بالحق والباطل ، وعلى أن ينفرد بالعمل ، فيستاء من ذلك الذين يعملون معه وتخبو جذوة نشاطهم . وقد يتحول عن رأي يكون هو الذي ارتآه ، أو يحدث أمر جديد يدعو الى تغيير وجهة نظره ، فيدافع عن الرأي الثاني بالحماسة التي كان يدافع بها عن الرأي الأول ، وهذا مما يجعل العمل معه شاقاً وغير لذيذ . وفي الوقت نفسه كانت النتائج الباهرة لمساعيه تجعل نفسه كبيرة في نظره ، فلا يكتم شعوره بذلك عن أصحابه

وبلغت هذه الحال بالاميرال (تربيتز) حد الأفراط اثناء الحرب، ثم وقع الاختلاف في الرأي على بعض الشئون فاوجب ذلك استقالته . وذلك أن

المستشار (بتمن هولويغ) شكا الي من أن وزراء الخارجية أصبحوا تبعاً للاميرال (ترپيتز)وانه صار مضطراً الى ادارة السياسة الخارجية بنفسه ، لذلك طلب تنحية وزير البحرية ، ففارقت هـذا الوزير النشيط العامل وأنا شديد الاسف عليـه . واني اسجل هنا شكري الخالد لهذا الرجل الذي لا يعرف للتعب معنى وأذكر له دهاءه العظيم في تنفيذ جميع مشروعاتي مدة اشتغاله معي

والآن فاني أعرب عن أملي في أن القوة التي يمثلها (ترپيتز) تأتي مسرعة لامداد وطننا الغارق في بحر من اليأس والاضطراب ، فان في استطاعة (ترپيتز) ان يعمل بشجاعته مالا يستطيع كثيرون غيره أن يعملوه ؛ وهو أجدر من أي رجل آخر بقول الشاعر

« ان من أكبر سعادة المرء ان يكون ذا ارادة وشخصية »

وبعد فان الاقوال التي انتقدني بها الاميرال (تربيتز) في كتابه لم تبدل رأيي فيه



الفصل العاشر

﴿ اعلان الحرب ﴾

في نروج — لا استعداد للحرب في المانيا — دلائل تأهب الاعداء للحرب
مساعي محفل الشرق الاكبر الماسوني — حماية الالمان
لما في فرنسا من الآثار التاريخية والاملاك الخاصة

في نروج

لما علمت بمقتل صديقي الارشيدوق (فرنسوا فرديناند) تركت أسبوع (كيال) وعدت الى البيت وفي نيتي الذهاب الى (فينا) لاشترك في تشييع نعشه . ولكن بعضهم رجا مني العدول عن هذه الفكرة لاسباب علمت منها فيما بعد أن سلامتي الشخصية أيضاً كانت موضوع البحث .على أن هذا السبب لم أكن لاعبأ به بطبيعة الحال

وقد اشتد قلقي من سير الاحوال وتقلباتها ، فعقدت النية على العدول عن سياحتي في الشمال والبقاء في (برلين) . ولم يكن المستشار ووزير الخارجية على هذا الرأي ، بل رغبا الي في القيام بهذه السياحة لتهدئة اعصاب أوروبا والتأثير فيها تأثيراً حسناً . فقاومت فكرتهما مقاومة طويلة ورفضت أن أترك بلادي وأنا على شك مما يعدّه المستقبل

ولكن المستشار فون (بتمن) قال لي حينئذ ان عدولي عن سياحة أعلن خبرها يجعل الناس يعتقدون بان الحالة اسوأ مما هي في الحقيقة . ومن المحتمل ان يؤدي عدولي عن هذه السياحة الى اضرام نار الحرب والقاء تبعتها علي . فالعالم كله ينتظر الخبر السار الذي يزيل قلقه فيقول انى عمدت الى السياحة بقلب مطمئن رغم اشتداد الازمة

وقد بحثت في هذا الموضوع مع رئيس هيئة اركان الحرب الذي كان ينظر الى الموقف بعين الثقة والاطمئنان حتى انه طلب ان يذهب الى (كرلسباد)

ليقضي اجازة الصيف فيها • فلما رأيت ذلك قررت السفر وأنا في حالة شديدة من القلق والاضطراب

لا استعداد للحرب في ألمانيا

اما (مجلس العرش) الذي قيل انه عقد في ٥ يوليو ، وكثر التحدث به في العالم كله ؛ فقد كان خبره اختلاقاً محضاً أذاعه الاشرار لغاية في نفوسهم• والحقيقة هي أني اجتممت قبل سفري ببعض الوزراء ــ كما كنت افعل دائما ــ لاقف منهم على سير الاحوال في وزاراتهم

وكذلك لا صحة لما قيل عن انعقاد مجلس الوزراء . ولم تعرض مسألة الاستعداد للحرب على بساط البحث في اجتماع ما

وكان اسطولي في مياه نروج ــ كما هي العادة في اثناء رحلة الصيف ــ وكنت في ابان توقفي في (بالهولم) أتلقى الاخبار القليلة من وزارة الخارجية وأطلع بوجه خاص على ما في الصحف النروجية • وقد أدركت منها ان الحالة تتحرج بالتدريج • فأبرقت الى المستشار والى وزارة الخارجية قائلا انى أرى من الصواب أن أعود الى (برلين) ، ولكنهما التمسا مني ان أواصل سياحتي

ثم علمت ان الاسطول الانكليزى لم يسرح بعد استعراض (سبايت هد) بل ظل معيناً خلاف المأمول ، فابرقت الى (برلين) مرة أخرى قائلا : انى لا أرى بداً من العودة . ولكن (برلين) لم تكن على هذا الرأي • وقد علمت من الصحف النروجية ــ لان برلين لم تبلغني شيئاً من ذلك ــ ان النمسا أرسلت انذاراً نهائياً الى صربيا وأن صربيا ردت على هذه المذكرة ، فلم يعد في طاقتي الانتظار ، وأسرعت عائداً الى برلين بعد ما أمرت الاسطول بأن يجتمع في (ولهلمسهافن)

وعلمت وأنا على أهبة السفر ــ من مصدر نروجي ــ ان قوة من الاسطول الانكليزى ابحرت سراً الى المياه النروجية بمهمة القبض عليّ « مع اننا كنا حينئذ في حالة سلم »

ويهمني في هذا المقام ان أدون ما يأتى :

قيل للسر (ادورد غوسشن) سفير بريطانيا العظمى في وزارة الخارجية الالمانية يوم ٢٦ يوليو ان عودتى الفجائية تبعث على الاسف لانها ستكون سبباً في انتشار الاشاعات المقلقة

ولما عدت الى (بوتسدام) وجدت المستشار والخارجية على خلاف مع رئيس أركان الحرب . فان الجنرال فون (مولتكي) كان يعتقد ان الحرب لا مناص منها ، فى حين ان المستشار ووزارة الخارجية لم تتزعزع ثقتهما بأن الحالة لاتصل الى هذا الحد ، وان الحرب يمكن اجتنابها بشرط ان لا أصدر أنا الامر بالتعبئة

واستمر هذا الخلاف في الأيام التالية أيضاً ، الى أن أخبرهم الجنرال (مولتكي) بأن الروس مستعدون لتدمير المنازل القائمة على حدودهم ، وانهم ينزعون الخطوط الحديدية من جميع محطات الحدود وقد وزعوا أوراق التعبئة الحمراء . فحينئذ بدأ ساسة (ولهلمستراس) يفهمون الحقائق ، وقد ضعفت مقاومتهم كما ضعفت قواهم ، لأنهم لم يريدوا أن يعتقدوا بامكان وقوع الحرب

ان هذا كله يثبت بوضوح تام اننا لم نكن مستعدين للقتال في يوليو سنة ١٩١٤ ، فليعدل الناس اذن عن القول بأننا نحن الذين مهدنا للحرب ، وأعددنا العدة لها

وقد سأل رئيس حجاب القيصر جلالته في ربيع سنة ١٩١٤ عن برنامج سياحته في الربيع والصيف فأجابه نقولا الثانى قائلاً « سأبقى حيث أنا في هذا العام لأن الحرب ستقع حتماً »

ويقال ان هذا الجواب وصل الى مسامع المستشار فون (بتمن) ولكني لم أسمع به حينئذ ولم أعرفه قبل نوفمبر سنة ١٩١٨

وكان هذا القيصر عينه هو الذي وعدني بالشرف الملكي مرتين في (بيوركه)

و (مرفأ البلطيق) بأن لا يمتشق حسامه في وجه ألمانيا اذا وقعت الحرب في أوربا ، وأنه لا يخوض غمار الحرب في جانب الانكليز خاصة . وقد عزز جلالته هذا الوعد بهز يدي وتقبيلي . وفعل ذلك اعترافاً منه بما أولاه اياه الامبراطور الألماني من الجميل في خطة الود والاخلاص التي نهجها معه في ابان الحرب الروسية اليابانية في حين أن انكلترا ــ البلاد التي يكرهها ــ هي التي ألحقت بالقيصر وبلاده ضرراً عظيماً جداً بتحريض اليابان على الحرب

وفي تلك الاثناء ، بينما كان القيصر يبسط خططه الحربية لفصل الصيف ، كنت أنا أعنى بالعاديات في (كورفو) ثم سافرت الى (ويسبادن) ثم الى (نروج)

وبديهي ان الملك الذي يريد الحرب ، ويستعد لمهاجمة جيرانه استعداداً يقضي بالتكتم الشديد والتمهيد الطويل لتعبئة الجيوش وحشدها ، لا يقيم أشهراً عديدة في خارج بلاده ولا يسمح لرئيس أركان حربه في قضاء اجازة الصيف في (كرلسباد)

أما الاعداء فقد أعدوا في هذه المدة عدتهم لحرب الهجوم بكل دقة ونظام

وارتبكت الهيئات السياسية كلها في بلادنا ، لأن الجماعة لم يروا الحرب قادمة اليهم . أما وزارة الخارجية التي تمسكت الى النهاية بمبدأ « تجنبوا الحوادث ! » فكانت ثملة بفكرة « السلم مهما يكن ثمنه » حتى انها لم تفكر في أن الحرب يمكن أن تكون وسيلة تتوسل بها سياسة الحلفاء . وهكذا نجد أن السياسة الألمانية لم تقدر نذر الحرب حق قدرها ؛ مما يدل على انها كانت راغبة رغبة أكيدة في السلم . وقد أوجدت آراء وزارة الخارجية معارضة شديدة في البلاد لهيئة أركان الحرب العامة ولوزارة البحرية — اللتين كانتا تنذران بالخطر ، وتريدان الاستعداد للدفاع — ودامت هذه المعارضة زمناً طويلاً . ولم يتمكن الجيش من أن يصفح عن وزارة الخارجية لأنها مكنت العدو من مفاجأته بما اقترفته من الخطأ . اما رجال السياسة فقد أظهروا امتعاضهم لأنهم رأوا الحرب قادمة اليهم رغم ما أبدوه من المهارة . . .

دلائل تأهب الاعداء للحرب

ان وثائق لا يحصيها العد تدل على أن الحرب كانت تنظم في روسيا وفرنسا والبلجيك وانكلترا في صيف ١٩١٤ ، في حين انه لم يكن في بلادنا رجل واحد يفكر في مهاجمة الحلفاء

وقد جمعت ما عثرت عليه من هذه الوثائق الخطيرة الشأن في جدول قارنت فيه بين حوادث التاريخ ونظمته شخصياً . ولا أريد ان اشير في هذا المقام الا الى بعض وثائق مختارة من هذه المجموعة الكبيرة . واذا كنت لا اذكر جميع الأسماء فلا يتعذر على القاريء ادراك السبب الذي حملني على ذلك وقد وصلتني هذه الوثائق في حينها : قسم منها في ابان الحرب ، والقسم الأكبر بعد الحرب

١ — بدأت المصارف الانكليزية بجمع الذهب في شهر أبريل سنة ١٩١٤ أما ألمانيا فقد استمرت على اصدار ذهبها وقحها الى الخارج ولا سيما الى بلاد الحلفاء حتى شهر يونيو من السنة عينها

٢ — أبلغ الكابتن فون (كنور) الملحق البحري الألماني في (طوكيو) في شهر ابريل سنة ١٩١٤ أنه دهش « للاعتقاد التام السائد هناك بان الحرب قريبة الوقوع بين التحالف الثلاثي وألمانيا » وزاد على ذلك « ان في جو ذلك المحيط عاطفة تشبه عاطفة الشفقة التي يشعر بها الناس ازاء حكم الاعدام قبل صدوره »

٣ — القى الجنرال (تشر باتشيف) مدير المدرسة الحربية العليا في (بطرسبرغ) خطبة في اجتماع عقده ضباطه قال فيها ما يأتي :

« باتت الحرب مع الدول الوسطى حاجة لا غنى عنها ، بسبب الخطة التي اتبعتها النمسا في البلقان للاضرار بمصالح روسيا • ويحتمل كثيراً أن تعلن الحرب في فصل الصيف • والشرف يقضي على روسيا بأن تنهج خطة الهجوم في الحال »

٤ — أرسل سفير البلجيك في (برلين) تقريراً عن وصول البعثة العسكرية اليابانية الى (بطرسبرغ) « ابريل سنة ١٩١٤ » جاء فيه ما يأتى :

« سمع الضباط اليابانيون فى أندية الالايات أن الضباط والجنود يبحثون جهاراً في حرب تعلن قريباً على النمسا وألمانيا . ويقولون ان الجيش مستعد لخوض غمار الحرب ، وان الفرصة سانحة للروس ولحلفائهم الفرنسويين »

٥ — جاء في المذكرات التي نشرها المسيو (باليو لوغ) سفير فرنسا السابق في بطرسبرغ في (مجلة العالمين) سنة ١٩٢١ أن الغرندوقة (أناستاسيا) والغرندوقة (شارسكويسيلو) اعلنتا في ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ ان والدهما (ملك الجبل الأسود) أبلغهما بتلغراف رمزي « ان الحرب ستعلن قبل أواخر الشهر على الحساب الروسي - أي قبل أول أغسطس على الحساب الغربي — فتصبح النمسا أثراً بعد عين ، وتستردون الالزاس واللورين ، وتجتمع جيوشنا في (برلين) وتزول ألمانيا من عالم الوجود »

٦ — نشر المسيو (بوكيتشيويتش) معتمد صربيا السياسي سابقاً في (برلين) كتاباً سنة ١٩١٩ عنوانه « أسباب الحرب» أشار فيه الى ما سمعه من المسيو(كمبون) سفير فرنسا في برلين في ٢٦ أو ٢٧ يوليوسنة ١٩١٤ وهو :
« اذا استدرجت المانيا الى الحرب فانها تلقى أمامها انكلترا أيضاً ، فيحتل الأسطول الانكليزي (هامبورغ) عنوة ونسحق الالمان سحقاً »

وأعلن(بوكيتشويتش)أن هذا الحديث أقنعه يومئذ بأن الحرب اذا لم تكن مقررة من قبل فانها ستقرر بعد اجتماع المسيو (بوانكاره) بقيصر روسيا في (بطرسبرغ)

٧ — أخبرني رجل روسي كبير من اعضاء مجلس (الدوما) كان يعرف (سازونوف) معرفة تامة عن مجلس العرش السري الذي عقد برئاسة القيصر في فبراير سنة ١٩١٤ وقد دونت في مذكراتي « مقارنة بين حوادث التاريخ » ما عرفته عن هذا المجلس من مصادر روسية أخرى . فان المسيو (سازونوف)

خطب فيه مقترحاً على القيصر « الاستيلاء على الاستانة . وبما أن دول الائتلاف الثلاثي لاتوافق على ذلك فالحرب تعلن حتما على ألمانيا والنمسا ، وتنفصل ايطاليا عن حليفتيها الجرمانيتين ، وستكون فرنسا حتما الى جانبنا . ومن المحتمل ان تنضم انكلترا الينا أيضاً » وقد وافق القيصر على هذا الاقتراح وأصدر أمره باعداد ما يلزم من المعدات

ورفع الكونت (كوكوزوف) وزير المالية الروسية حينئذ الى القيصر تقريراً عارض فيه هذا المشروع ، وقد أطلعني الكونت (ميرباخ) على هذا التقرير بعد صلح (برست ليتوفسك) . فان الكونت (كوكوزوف) أشار فيه على القيصر بأن يظل صديقاً لألمانيا ، وأنذره بسوء عاقبة الحرب ، وبأنها ستؤدي الى الثورة ، والى انهيار البيت المالك • ولكن القيصر لم يعبأ بهذه النصائح بل ساعد على تعجيل اعلان الحرب

٨ — واخبرني الرجل نفسه انه دعي الى تناول الغداء على مائدة المسيو (سازونوف) في اليوم الثالث لأعلان الحرب فقابله صاحب الدعوة بوجه يطفح بشراً وسروراً ، وقال له وهو يفرك يديه — :

« الا تسلم معى يا عزيزي البارون بأني احسنت اختيار فرصة الحرب ؟ »

فاضطرب البارون قليلاً ، ثم سأل محدثه عن خطة انكلترا فابتسم الوزير حينئذ وضرب بيده على جيبه وقال وقد أبرقت عيناه : —

« لديّ في هذا الجيب شيء تغتبط له روسيا كثيراً بعد بضعة أيام ، ويقف العالم ازاءه موقف الدهشة والاستغراب • لقد أخذتُ من انكلترا عهداً بأنها تحارب ألمانيا مع روسيا جنباً الى جنب »

٩ — أخبر بعض الروسين من الفيالق السيبرية الذين وقعوا في الأسر في پروسيا الشرقية انهم نقلوا بالسكك الحديد الى جوار (موسكو) في صيف سنة ١٩١٣ للاشتراك في المناورات التي قيل ان القيصر سيحضرها ولكن هؤلاء الجنود لم يعودوا الى حيث كانوا بل وزعوا في فصل الشتاء على جهات (ڤيلنا) وقد قيل لهم انهم سيشتركون في مناورات كبيرة أخرى سيحضرها

القيصر . وانتشر هؤلاء الجنود في (ڤيلنا) وضواحيها كالو كانوا في ابان الحرب . ثم وزعت عليهم الذخيرة فجأة وقيل لهم انهم في حالة حرب مع ألمانيا . أما سبب ذلك فلم يستطع أحد أن يقوله

١٠ — نشرت الصحف في شتاء ١٩١٤ — ١٩١٥ مذكرات لأحد الامريكيين ضمنها وصف سياحته في (القفقاس) في ربيع سنة ١٩١٤ وقال فيها انه لما وصل الى (القفقاس) في أوائل مايو سنة ١٩١٤ قابل في طريقه الى (تفليس) فصائل كثيرة من الجنود المختلفي الأسلحة ؛ وكلهم في حالة حرب . وقد خشي ان تكون الثورة قد نشبت في (القفقاس) واستفسر من موظفي قلم الجوازات في (تفليس) عن ذلك فأكدوا له ان البلاد في سكينة تامة ، وانه يستطيع ان يسافر الى حيث يريد لأن ما رآه لم يكن غير مناورة عسكرية

ولما اتم سياحته في مايو سنة ١٩١٤ عزم على ان يركب البحر في احدى موانيء القفقاس) ، ولكنه وجد المراكب كلها غاصة بالجنود ، حتى انه لم يستطع ان يحصل على محل له ولامرأته الا بجهد عظيم . وقد اخبره الضباط الروسيون انهم سينزلون الى البر في (اودسه) ثم يبرحونها الى (اوكرانيا) للاشتراك في المناورات الكبرى

١١ — في صيف سنة ١٩١٨ وصل الى مركز القيادة الألمانية العليا في (بوسمون) الامير (توندوتوف) زعيم القوزاق المقيمين بين (تشاريتشين) و (استراكان) والذي كان مرافقاً للغرندوق (نيقولا نيقولافيتش) لعقد محالفة مع ألمانيا ، لأن القوزاق الذين ليسوا من الصقالبة كانوا من ألد اعداء البلشفك

وقد أخبر (توندوتوف) ان (نيقولا نيقولافيتش) أرسله قبل نشوب الحرب الى مركز القيادة العليا ليخبر الغرندوق بما وقع من الحوادث في هيئة أركان الحرب . فسمع هناك المفاوضات التليفونية الشهيرة التي دارت بين القيصر والجنرال (جانوشكوفيتش) رئيس هيئة أركان الحرب

ووقعت برقية الامبراطور الألماني وقعاً شديداً في نفس القيصر ، فعزم على معارضة التعبئة العامة وأمر (جانوشكوفيتش) تلغرافياً بأن يقفها ويرجع عنها • ولكن رئيس هيئة أركان الحرب لم ينفذ هذا الأمر بل كلم(سازونوف) وزير الخارجية بالتلفون وسأله عما ينبغي له ان يفعل • وكان رئيس أركان الحرب هذا متصلاً بوزير الخارجية منذ أسابيع وشريكاً له في دسائسه ومساعيه لاعلان الحرب

فرد (سازونوف) عليه يقول : ان أمر القيصر خال عن الروية والتعقل وان الواجب يقضي على القائد بمواصلة التعبئة ، وانه سيزور القيصر في اليوم التالي فيعيد اليه رشده ، وهو يعرف كيف ينسيه برقية الامبراطور الالمانى الباردة وأبلغ (جانوشكوفيتش) القيصر حينئذ ان التعبئة قد ابتدأت ولاسبيل الى الرجوع عنها. قال الامير (توندوتوف) : ولكن (جانوشكوفيتش) كان يكذب على القيصر ، لاني رأيت بعيني رأسي أمر التعبئة العامة أمامه على المائدة وكان لم يرسله

ومما هو جدير بالذكر ـ من الوجهة النفسية ـ بمناسبة هذه الحوادث أن القيصر (نقولا) الذي مهد للحرب العالمية ، والذي كان قد أصدر أمر التعبئة ، حاول مرة أخرى ان يعود ادراجه الى الوراء . والظاهر ان البرقية العلنية التى بعثت بها اليه لاحذره من العواقب فتحت عينية للمرة الأولى وأظهرت له بكل جلاء ووضوح التبعة العظيمة التى أخذها على عاتقه باعلانه هذه التدابير الحربية . وهذا هو السبب الذى حمله على الرغبة في توقيف آلة الحرب ، قاتلة البشر ، التي بدأ بتشغيلها . وكان انقاذ السلم محتملا حينئذ لو لم يحبط (سازونوف) المساعي المؤدية اليه

وسألت الامير (تندوتوف) :

ـ هل الفرندوق المعروف ببغضه لألمانيا ساعد كثيراً على اعلان الحرب ؟

فقال : ان الغرندوق حرّض على الحرب ، ولكن تحريضه لم يزد في الامر شيئاً ، لان الضباط كانوا شديدي الرغبة في محاربة ألمانيا . وهذه الرغبة مستمدة من الجيش الفرنسوي، وقد تسربت منه الى الجيش الروسي . على ان اعلان الحرب كان منوياً منذ سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ « بسبب الحاق النمسا مقاطعة البوسنة والهرسك ببلادها » ولكن فرنسا لم تكن حينئذ على استعداد لها

والحقيقة هي ان روسيا لم تكن على تمام الاستعداد للحرب في سنة ١٩١٤ لان (جانوشكوفيتش) و (سوخوملينوف) ـ وزير حربية روسيا يومئذ ـ حسبا انها لا تقع الا في سنة ١٩١٧ . ولكن توقيف (سازونوف) و (ايزفولسكي) لم يعد ممكناً ، كما ان توقيف الفرنسويين صار فوق طاقة البشر . وكان يخشى الأولان ان تنشب الثورة في روسيا ، ويخافان من تأثير الامبراطور الالماني في القيصر اذ يحتمل ان يقنعه بالعدول عن الحرب . أما الفرنسويون فكانوا واثقين بمؤازرة الانكليز لهم ، وقد خافوا ان يضيعوا الفرصة فتتفق انكلترا مع ألمانيا على حسابهم

ولما سألت الامير : هل كان القيصر شاعراً بالميل الحربي السائد في محيطه، وهل كان موافقاً عليه ؟

أجابني قائلاً : « أصدر القيصر على سبيل الحيطة والحذر أمراً لا يخلو من مغزى عظيم ، وهو ان لا يدعى الساسة الالمان ولا الملحقون العسكريون الالمانيون الى تناول الطعام مع الضباط الروس في حضرته »

١٢ — عثرت جيوشنا في ابان تقدمها عام ١٩١٤ على مستودعات كثيرة للمعاطف العسكرية البريطانية على طول خط الحدود البلجيكية شمال فرنسا . وقد أعلن السكان ان هذه المعاطف وضعت في مواضعها هذه في سنوات السلم الاخيرة . وكان معظم الضباط الانكليز الذين أسروا سنة ١٩١٤ بلا معاطف، ولما سئلوا عن السبب قالوا بكل بساطة : « قيل لنا اننا سنجد معاطفنا في مستودعات (موبوج) و (كسنوى) وغيرها في البلجيك وشمالي فرنسا »

وهكذا كانت الحال فيما يتعلق بالخرائط . فان جنودنا عثروا على مقادير كبيرة من خرائط هيئة أركان الحرب الانكليزية للبلجيك وشمالي فرنسا. وقد رأيت عدداً منها، وكانت أسماء القرى مكتوبة باللغتين الفرنسوية والانكليزية، وكانت جميع التعليمات اللازمة للجنود مكتوبة باللغتين أيضاً الى جانب الخريطة. وهكذا يقرأ الانسان في هذه الخرائط : مونين — ميل «مطحنة » ، بون — بريدج « جسر » ، ميزون — هوس « بيت » ، ڤيل — تون « مدينة » ، بوا — وور « غابة » . . الخ . وقد وضعت هذه الخرائط سنة ١٩١١ في (سوث هامپتون)

وقد انشأت (انكلترا) هذه المستودعات بموافقة الحكومتين الفرنسوية والبلجيكية في ابان السلم وقبل ان تعلن الحرب بزمن طويل

فأية عاصفة من عواصف الاشمئزاز لم تكن لتهب علينا في البلجيك ، البلاد المحايدة . وما هي الاشاعات التي ما كانت تنتشر عنا في فرنسا وانكلترا، لو أنشأنا في ابان السلم مستودعات للملابس العسكرية وخرائط اركان الحرب في (سپا) و (لياج) و (نامور) !

ولا ريب في ان عصابة (سازونوف ـ ايزڤوسكي) يجب أن تعد في مقدمة العاملين على اعلان الحرب العالميــة الى جانب (پوانكاره) . ويقال ان (ايزڤوسكي) صرح في باريس ـ وهو يضرب صدره باعجاب ـ قائلاً : « أنا أبو هذه الحرب »

والتبعة الملقاة على (دلـكاسه) عظيمة ، وأعظـم منها التبعة الملقاة على عاتق (غراي) لانه كان روح سياسة « الخنق » بصفته منفذاً لوصية مليكه المتوفى ، ولانه نفذ هذه الوصية باخلاص تام

مساعي محفل الشرق الاكبر الماسوني

وقد قيل لي انه كان للخطة المنظمة التي وضعها (محفل الشرق الاكبر) الماسوني في باريس شأن عظيم في اعداد الحرب العالمية التي تقرر اعلانها على امبراطوريتي الوسط الجرمانيتين . وكانت المحافل الالمانية ـ ما عدا اثنين منها

وقعا في قبضة المتمولين الاجانب وكانت لها صلات سرية بمحفل الشرق الاكبر بباريس ـ مستقلة عن (محفل الشرق) تمام الاستقلال وقد حافظت على اخلاصها وصداقتها الى النهاية اذا صح ما سمعته من المسوني الالماني الكبير الذي أخذت منه كل هذه المعلومات وأطلعني على أمور كنت أجهلها

وعقدت محافل الشرق الأكبر مؤتمراً دولياً في باريس سنة ١٩١٧ تلته على الأثر مفاوضات مهمة في سويسرا • ويقال ان هذا المؤتمر وضع البرنامج التالي وهو فصل النمسا عن المجر وجعل ألمانيا دولة دمقراطية واقصاء (اسرة هابسبورغ) عن العرش وخلع الامبراطور الألماني واعادة (الالزاس واللورين) الى فرنسا وضم (غليسيا) الى (بولندا) وانتقاص سلطة البابا و نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وسائر الكنائس الاوربية

ولم تمكني الاحوال حتى اليوم من تحقيق هذه الأخبار الخطيرة الشأن التي عرضت علي باخلاص تام عن مساعي محافل الشرق الأعظم وخططها . ولا يخفى ان الجمعيات السياسية السرية والعلنية لا تزال منذ أول عهد التاريخ تلعب ادواراً مهمة في حياة الشعوب والدول . وكانت أعمال بعض هذه الجمعيات في مصلحة البشرية ، ولكن البعض الآخر لم يكن في الحقيقية سوى قوة مخربة يعمل أفرادها ويتعارفون باشارات سرية تخشى الظهور الى النور

وأشد هذه الجمعيات خطراً هي التي تعمل بحجة الدفاع عن بعض المباديء السامية كحب الغير ومساعدة الضعفاء والمساكين وغير ذلك مما تتستر به للوصول الى اغراضها الخفية

ومهما يكن الأمر فمن الضروري بذل العناية التامة لدرس أعمال محافل الشرق الأدنى ، لان تقرير الخطة التي يجب ان تتخذ ازاءها لا يتيسر الا بعد الوقوف على حقيقتها

***

ولا أتكلم في هذا الكتاب عن الاعمال الحربية لانى أترك ذلك بكل ارتياح لضباطي وللتاريخ ، لا سيما وان المستندات والوثائق اللازمة لذلك

ليست في يدي . فما يمكنني تدوينه في هذه الحال لا يتعدى المعلومات العامة

***

اني كلما فكرت فيما شعرنا به في سنوات الحرب الاربع وفي هذه السنوات من آمال وآلام ، وفيما نلناه من انتصارات باهرة وما خسرناه من أرواح غالية جداً ، تمثل في ذهني مزايا قومي الألمان الذين تقلدوا سلاحهم للذب عن بيضتهم، فأذكر ذلك لهم بالثناء والشكر

ان بني قومي لم يضنوا بشيء من صنوف التضحية في سبيل انقاذ الوطن ولم يقتصر جيشنا على الوقوف أمام جيوش ٢٨ أمة معادية اتحدت علينا في خلال الحرب التي أرغمنا عليها ارغاماً ، بل أن الجيش الألماني تمكن من احراز الانتصارات الباهرة على جيوش هذه الأمم في البر والبحر والجوّ ، واذا كان الضباب المخيم علينا الآن مانعاً من سطوع شمس هذه الحقيقة فان التاريخ سيبدّد هذا الضباب في المستقبل ويظهر للعالم حقيقة عملنا بجلاله وجماله

وفضلاً عن ذلك فقد كانت جيوش الدول المتفقة معنا كلما ساء حظها في ميدان من الميادين لا تلبث أن تتمتع بالنصر مرة أخرى بنجدة قليلة تأتيها من الجند الألماني . ولا مانع يمنعني من القول بأن جيشنا حارب في كل ميدان من ميادين الحرب الكونية

لذلك كانت الشجاعة التي أبدتها الأمة الألمانية لا تستحق ذلك الخنجر الذي طعنت به من ورائها ، وكان سبب انكسارها . وما برح نصيب الألمان في كل زمان أن ينكسروا بالسلاح الألماني نفسه

حماية الألمان

لما في فرنسا من الآثار التاريخية والأملاك الخاصة

وقبل أن اختم هذا الفصل أريد أن أقول كلمتين في « المظالم الألمانية »

لما دخلت كتائبنا الى البلاد الشمالية من فرنسا أصدرتُ أوامري بحماية الفنون الجميلة والمباني الأثرية . وكان مع كل جيش الماني جماعة من أهل الاختصاص بالفنون الجميلة والعلماء ، وكانت مهمة هؤلاء الوصول الى كل

كنيسة والى كل قصر والى ما يماثل ذلك من المباني ، فينظروا في أمر هذه الأماكن ويسجلوا محتوياتها ويصوروها ثم يكتبوا مذكرة عنها . ومن هؤلاء العلماء الأستاذ (كليمان) الذي ندبته لكتابة التقارير لي عن هذه المباني الأثرية . وهكذا وُضعت البيانات والمجموعات عن المدن ودور الآثار والقصور وغيرها

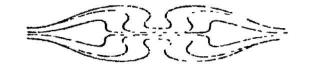
أما المجموعات الأثرية التي كانت معرضة للخطر بسبب الحرب فقد نقلت من أماكنها الى (ڤالانسين) و(موبوج) ، وبذلت العناية هنالك لحفظها ، وكتب على كل قطعة اسم صاحبها

وخاطر الجنود الألمانيون بحياتهم عندما بادروا تحت قنابل المدافع الانكليزية لانقاذ الزجاج القديم في كنيسة (سن كنتن) الكبرى . ومن جهة أخرى فان أحد قسس الكاثوليك الالمان نشر كتاباً معززاً بالصور الفطوغرافية عن تخريب الانكليز هذه الكنيسة ، فأمرته بان يرسله الى البابا

ونزل المقر العام للفيلق الثالث في(قصر بينون) الخاص بالاميرة (دي يوا) التي كانت من قبل بضيافتي وضيافة الامبراطورة في (برلين) ؛ فزرت أنا هذا القصر واخترت الاقامة فيه . وكان الانكليز قد احتلوه قبلنا فأساءوا فيه كثيراً . وبذل الجنرال فون (لوكوف) وأركان حربه كل عناية لاصلاح ما خربه الانكليز في هذا القصر . وطفت أنا والجنرال في الدائرة الخاصة بالأميرة ، وهي الدائرة التي لم نسمح قط لجندي ألماني بأن يدخلها ، فوجدنا جنود الانكليز الذين أقاموا هنا قبلنا قد عبثوا بخزانات ملابس الأميرة ورموا ما فيها من الاردية والقبعات على الأرض . فأمرتُ بجمع هذه الملابس وتنظيفها باعتناء ووضعها في خزاناتها . ورأينا مكتباً خلعت أدراجه ونثرت الاوراق والرسائل التي فيه هنا وهناك ، فأمرتُ بجمع الرسائل واعادتها الى ادراجها واقفالها بالمفاتيح . وبعد مدة وجدنا الاواني الفضية الخاصة بالاميرة مدفونة في حديقة القصر ، وعلمنا من القرويين أن الاميرة أمرت بدفن هذه الاواني في التراب من أوائل شهر يوليو ، وهذا يدل على أن الاميرة كانت

من قبل نشوب الحرب على علم بقرب نشوبها . فأمرتُ بأن تكتب قائمة بهذه الاواني وأرسلناها الى مصرف (اكس لاشابل) لتكون وديعة فيه حتى تنتهي الحرب . ثم أرسلت الى الاميرة خبرا بواسطة البارون فون (ريخشتماخ) — المارشال الأكبر للقصر — أعلمها بما اتخذناه من التدابير للمحافظة على قصرها وأوانيها وما تملكه ، غير أنها لم تجبني على ذلك بكلمة ، وفضلا عن ذلك فانها نشرت في الصحف الفرنسوية كتاباً مفتوحاً زعمت فيه أن الجنرال فون (كلوك) سرق أوانيها الفضية

وبعد فانه بفضل الاهتمام الذي بذلته أنا شخصياً ، وبفضل المساعي التي قام بها العلماء والاخصائيون ورجال الجيش من الألمان ، استطاع الفرنسويون أن يملكوا من الاشياء والمباني الأثرية ما تساوي قيمته بضعة مليارات هكذا فعل (الهونيون) و(البوش)



الفصل الحادي عشر

﴿ البابا والصلح ﴾

حديث مع المونسنيور باتشللي

القاصد الرسولي في كروزناخ

سنة ١٩١٧

زارني المونسنيور (باتشللي) القاصد الرسولي ونائبه في صيف سنة ١٩١٧ في (كروزناخ) . وكان القاصد في مظهره الخارجي قدوة أمراء الكنيسة الكاثوليكية ، ذكي الفؤاد ، قريباً من القلب ، لطيف المعشر ، متحلياً بأجمل الصفات

وكان يعرف اللغة الالمانية الى درجة تمكنه من فهم الحديث من غير أن يجيد التكلم بها . لذلك دار الكلام بيننا باللغة الفرنسوية . وكان القاصد يستعمل بعض العبارات الالمانية بين حين وآخر . أما النائب الذي ينقن لغتنا فكان يتدخل في الحديث من غير أن يدعى اليه خوفاً من ان تؤدي استنتاجاتي الى استدراج القاصد

وقد دار البحث حول التوسط ومفاوضات الصلح. وكانت قد تقدمت ذلك مشروعات واقتراضات في هذا الباب ثم أهملت بعد مناقشات دارت حولها. وفي ديسمبر سنة ١٩١٦ على أثر رفض اقتراح كنت قد اقترحته قلت ان من الواجب على البابا أيضاً أن يقوم بسعي . فقال لي القاصد الرسولي ان من المتعذر على البابا أن يقوم بسعى جديد ، بعد أن أخفقت مساعيه السابقة . وزاد على ذلك أن البابا لا عمل له الآن غير التفكير في الوسائل التي تنقذ أوربا المتمدنة من كارثة الحرب . وعلى ذلك فان كل مسعى يبذل في هذا السبيل يكون له وقع حسن في الفاتيكان

فقلت : ان البابا يجب عليه ـ بصفته رئيساً للكاثوليك ولجميع الكنائس الرومانية ـ أن يوجه دعوته في بدء الامر الى قسسه وكهنته في جميع البلاد

ليحاربوا الحقد الذي كان متمكناً في القلوب، والذي هو أعظم عقبة في سبيل الصلح. على أن اكليروس الحنفاء كان لسوء الحظ من تلك الطغمة التي « تحمل الحقد » ولا عمل لها الا تحريض الشعوب على مواصلة القتال. وقد ذكرت له بهذه المناسبة التقارير العسكرية العديدة التي وضعت في ابان الحرب وأثبتت أن كهنة وقسساً وخوارنة كثيرين وقعوا في قبضة يدنا وهم حاملو السلاح. ثم وصفت دسائس الكردينال (مرسيه) واعمال الاكليروس البلجيكي الذي دخل كثيرون من أفراده في سلك الجاسوسية. واشرت بعد ذلك الى الخطبة التي ألقاها (اسقف لندن) البروتستاني ومجد فيها قتلة (بارالونغ) من اعلى المنبر الكنسي. فاذا تمكن البابا من حمل الاكليروس الروماني في مختلف البلاد على الاقتداء بالاكليروس الالماني في مقاومة البغض والحقد، سواء بواسطة الخطب والمواعظ، أم بالمنشورات الاسقفية والبيانات الكنسية، فان الخطوة التي تخطوها الى السلم تكون واسعة جداً

ووجد (باتشللي) هذه الفكرة حسنة وجديرة بالبحث ولكنه قال: « ليس من السهل ان يقبل بها بعض الاساقفة »

فقلت اني أعرف النظام الشديد وسلسلة المراتب السائدين في الكنيسة الرومانية. ولذلك كنت افهم بصعوبة كيف ان بعض الاساقفة يأبى ان يعظ الناس بالصفح عن العدو واحترامه اذا أصدر البابا بذلك أمراً رسمياً حازماً الى أمراء الكنيسة. اليست الكنيسة بصفتها الدينية فوق الاحزاب؟ أوليس حب الغير والصفح عن الاهانة من اصول الديانة المسيحية؟ أفلا ينبغي التشديد بمراعاة هذه الأصول والعمل بها؟

وقد سلم (باتشللي) معي بذلك ووعدني بفحص هذه الفكرة فحصاً دقيقاً وعرضها على (الفاتيكان)

ثم سألني القاصد الرسولي عن رأيي في خير الاساليب السياسية التي يمكن أن يلجأ اليها البابا المتوسط في ابرام الصلح من غير أن يكون لها صلة بالمساعي الدينية التي أشرت اليها

فقلت : بما ان ايطاليا والنمسا من الدول الكاثوليكية فالبابا يستطيع ان ان يؤثر فيهما تأثيراً عظيماً ، وقداسته هو ابن احدى هاتين الدولتين ، وفيها مقره ، وشعبها يجله ويحترمه ، فيمكنه ان يلقنه المباديء التي يريدها . اما الدولة الثانية فهي النمسا التي يحكمها ملك يلقب نفسه « بالكاثوليكي » وهو على صلة دائمة بالفاتيكان ككل أفراد أسرته ويعد من أخلص أبناء الكنيسة الرومانية »

فرد (باتشللي) على ذلك قائلا ان الفاتيكان لاصلة له بالحكومة الايطالية، وان نفوذه معدوم في وزارة الخارجية ، وان من الصعب حمل (الفاتيكان) على قبول هذا الرأي . ثم ان الحكومة الايطالية ترفض من جهة أخرى كل دعوة الى المفاوضة

وهنا اشترك النائب في الحديث فقال انه يستحيل على (البابا) ان يقدم على مثل هذا العمل الذي يؤدي على الغالب الى عواقب شديدة الخطر على الفاتيكان ، لان الحكومة تبادر في الحال الى تحريض الرعاع على الفاتيكان الذي لا يستطيع أن يعرّض نفسه لهذا التهديد

ولما رآني النائب لم أعلق أهمية على اعتراضه قال بحماسة اني لا أعرف شعب (رومية) الذي يصبح مخيفاً اذا استسلم الى المحرضين ، وهياج السوقة على الفاتيكان من الحوادث الوخيمة العواقب التي تؤدي الى مهاجمة (كنيسة القديس بطرس) وتهديد حياة (البابا)

فقلت : اني أعرف الفاتيكان معرفة تامة ، فليس له ان يخشى الرعاع ولا السوقة . ثم ان للبابا أنصاراً عديدين في الاندية وبين الشعب يهبون في الحال للدفاع عنه

وقد وافقني القاصد على هذا الرأي . ولكن النائب لم يرتبك ، بل استمر يصور لنا خطر السوقة بألوان قاتمة ويصف الاخطار التي تهدد حياة البابا

فأجبته : ان احتلال الفاتيكان لم يتيسر الا بمدافع المترااليوز والمدافع الضخمة وحشد قوات منظمة من الجنود للهجوم والقيام بحرب حصار طويلة.

ولكن السوقة ليس لديهم شيء مما تقدم ؛ لذلك لا يحتمل ان يجرأوا على مثل هذا العمل . وزدت على ذلك فقلت : ان الفاتيكان — على ما سمعت — قد استعد لمثل هذه الطوارىء وأعد عدته لها • فسكت القسيس حينئذ ولم يحر جواباً

واستأنف القاصد الكلام فقال : انه يصعب على البابا ان يقوم بسعي عملي مؤثر في سبيل السلم من غير ان يغضب ايطاليا الرسميـة ويحدث فيها نوعاً من انواع المعارضة الخطرة « فالكرسي الرسولي ليس حراً لسوء الحظ • فلو كان للبابا بلاد أو مقاطعة ذات سيادة تامة يستطيع ان ينهج فيها الخطة التي يريدها لتغيرت الحالة تغيراً كبيراً . والاب الاقدس مرتبط الآن بمدينـة (رومية) الجسمانية ارتباطاً لا تمكنه من العمل كما يريد »

فقلت : « ان واجب اعادة السلم الى العالم هو أقدس الواجبات وأسماها ، فيستحيل أن يهمله البابا لاسباب مادية ، لاسيما وان صفتـه الدينية تقضي به عليه • فاذا فاز فيه قام العالم كله وأيد مطاليب الفاتيكان لدى الحكومة الايطالية »

وقد وقع هذا البرهان وقعاً عظيماً في قلب القاصد ، فسلم بان الحق في جانبي ، وانه يجب على البابا ان يحاول القيام بعمل ما

فلفتّ حينئذ انظار القاصـد الى المسألة التالية قائلاً : « انكم لا تجهلون المساعي العظيمة التي يبذلهـا اشتراكيو العالم كله لتشجيع كل فكرة ترمي الى السلم » وأشرت الى اننا سمحنا للاشتراكيين الألمانيين بالذهاب الى البلاد المحايدة ليعرضوا مسألة الصلح على بسـاط البحث في المؤتمرات . وذلك لأني كنت أعتقد بأن الاشتراكيين واقفون على آمال السواد الأعظم من الشعب • وأن الذين يريدون ان يخدموا قضية السلم باخلاص وحسن نية لا يجدون ما يعترض سبيلهم في بلادنا ، فضلاً عن أن هذه الاماني السلمية بدأت تنتشر في بلاد الحلفاء ولا سيما بين الاشتراكيين . وقد رفضت الحكومات المتحالفة اعطاء هؤلاء الاشتراكيين جوازات السفر ، ومنعتهم من الاشتراك في المؤتمرات التي عقدت في البلاد المحايدة . ولكن ذلك لم ينقص الميل الى السلم ؛ بل بالعكس ، فان تعطش الشعوب اليـه كان يزداد بالتدريج . فاذا لم تقدم

حكومة من الحكومات على شد أزر هذه المساعي — وكان اقتراحي قد رفض لسوء الحظ ـ قامت الشعوب وأخذت المسألة على عاتقها » .

وزدت على ذلك فقلت : « وهـذا التاريخ أمامنا يثبت لنا ان مثل هذه الامور لا يتم بلااضطرابات وانقلابات قد تضر بالكنيسة والبابا معاً . فماذا يفكر الجندي الكاثوليكي حينما يسمع أن المساعي السلمية لا يبذلها غير الاشتراكيين وان البابا لم يقم بأقل عمل لانقاذه من ويلات الحرب . فاذا احجم البابا عن العمل فمن المحتمل ان الاشتراكيين يكرهون العالم على قبول الصلح فيقضون بذلك على نفوذ الكنيسة والبابوية حتى في نظر الكاثوليك أنفسهم »

وقد تغلبت هذه الحجة على معارضة القاصد وتردده ، فقال انه سيعرض هذا الرأي في الحال على الفاتيكان ويفرغ قصارى جهده لحمل البابا على الاهتمام بقضية السلم اهتماماً جدياً

وبلغ قلق النائب اشده في تلك الاثناء ، فتدخل في البحث مرة أخرى ، واعلن ان البابا سيعرض نفسه لاخطار عظيمة ، وأن السوقة يمرون على جسده

فقلت حينئذ « أنا بروستاني المذهب ، أي هرطوقي في نظركم . ومع ذلك فاني مضطر الى التسليم بما يأتي : ان الكنيسة الكاثوليكية بل العالم كله يعد البابا ممثل المسيح على الأرض . ولما كنت أدرس الكتاب المقدس حاولت كثيراً أن أنفذ الى شخصية السيد المسيح فأتقمصها . ان السيد المسيح ـ مع أنه لم يكن مخفوراً بحرس مدجج بالسلاح ، ولا معتصماً بقصر منيع كالقلعة — ما خاف السوقة في يوم من الأيام ، بل كان يعيش بينهم دائماً ، واليهم وجه خطابه الأخير ، ولأجلهم مات رغم عداوتهم له

ومع انك يا حضرة القسيس تعرف هذا كله تحاول أن تقنعني بأن ممثل السيد المسيح على الأرض يخاف الموت والهوان في سبيل اعادة السلام الى أم الأرض التي تسفك دماؤها . . . يخاف . . . وممن يخاف ؟ من السوقة الذين يسترون عوراتهم بالخرق البالية . . . اذا كان حقاً ما أسمع فاني كنت

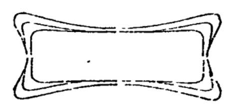
مخدوعاً بقسس الطائفة الـكاثوليكية ، وكنت أتمثل للبابا في ذهني مكانة فوق المـكانة اللائقه به • وأي أمل يجب أن يكون للبابا أعظم من ذلك الأمل العظيم وأعني به السلام ، حتى لو حالت دونه مخاطر حقيقية تلوح له في الأفق ، بل لو مات فى سبيل ذلك وهو يعاني الألم والعذاب ؟ »

ولما قلت هذا القول رأيت وميض السرور يلمع في عيني القاصد الرسولي ، فقبض على يدى ، وقال لي بلسان متهيج :

— انك على حق ، هـذا هو الواجب على البابا ، فما عليه الا أن يقوم بواجبه ويجعل العالم مديناً لشخصه بالسلام • واني سأعرض أقوالـكم هذه على الأب الأقدس

فأشاح النائب بوجهه ، وهز رأسه قائلاً يخاطب نفسه :

— آه من السوقة ، آه من السوقة !



الفصل الثاني عشر

﴿نهاية الحرب والتنازل عن العرش﴾

مجلس الامبراطورية وقرار الصلح — تلاشي النمسا — لودندورف — التقهقر الاول — الانسحاب الى خط انفرس والموز — حكومة البرنس دي بادن — الحكومة تكرهني على التنازل عن العرش — مجلس ٩ نوفمبر — اشاعة تنازلي — أسباب سفري الى هولندة

مجلس الامبراطورية
يقرر المفاوضة في شأن الصلح

دعوتُ مجلس العرش الى الاجتماع في ٨ أغسطس سنة ١٩١٨ للبحث في ايضاح الحالة ، وارشاد الكونت (هرتلنغ) الى الخطة السياسية التي يجب أن يسيرعليها ، ووافقتِ القيادة العليا على هذه الفكرة ، فكرة تمكين المستشار من استخدام الوسائل اللازمة للسعي في سبيل التفاهم ، بشرط أن نستدرج العدو الى خطوط (سيغفريد) وان نهزمه أمامها انهزاماً تاماً . وحينئذ يمكن الشروع في مفاوضات الصلح . وقد أمرت المستشار بأن يتصل باحدى الدول المحايدة — هولندة — وان يعجم عودها ليعلم هل تخطو الخطوة الأولى في سبيل التوسط أم لا ؟

ومما زاد هذا السعي صعوبة ان النمسا رفضت ان توافقنا عليه كما رفضت أن تسلمنا التصريح الذي طلبناه منها في هذا الشأن . وكنت قد قررت الاجتماع بالامبراطور (كرلوس) ، ولكن جلالته أجل هذا الاجتماع مرة أخرى بعد موافقته عليه ، وذلك لأنه كان يعمل بتأثير (بوريان)

وردّت هولندة علي — وكنت قد سألتها رأيها شخصياً — قائلة انها تضع نفسها تحت تصرفنا . ولكن النمسا قامت خلسة عنا وعرضت الصلح المنفرد للمرة الأولى ، فأقامت بذلك العقبات في سبيلنا

وكان الامبراطور (كرلوس) قد عمل سراً ومن تلقاء نفسه على الاتصال بالحلفاء ، وكان قد قرر التخلي عنا من زمن طويل ، ونهج خطة وصفها لرجال حاشيته بما يأتي ، قال :

« حينما اكون مع الألمان أقول اني على اتفاق معهم في كل الشئون ، ولكني اذا رجعت الى بيتي لا أفعل الا ما أريده ! »

هكذا كانت (ڤينة) تخدعنى وتخدع حكومتي على التوالي . ولم نكن نستطيع القيام بأقل عمل يقينا شرها ، لأننا كنا نسمع منها دائماً ما يأتي :

« اذا احدثتم لنا شيئاً من المشاكل تركناكم وشأنكم ، وامتنع جيشنا عن القتال في جانبكم »

اننا كنا مضطرين الى درء هذا الخطر في الأحوال التى اكتنفتنا ، لأسباب عسكرية وسياسية

تلاشي النمسا

نشأت الأزمة الألمانية عن تلاشي النمسا والمجر . ولو تمكن الامبراطور (كرلوس) من أن يضبط نفسه ويسكن أعصابه ثلاثة أسابيع أخرى لتغيرت الحال تغيراً كبيراً . ولكن الكونت (اندراشي) ـ وقد اعترف هو بذلك ـ كان قد بدأ يفاوض الحلفاء في سويسرا خلسة عنا . وقد توهم الامبراطور (كرلوس) انه يكتسب عطف الدول المتحالفة بهذا العمل

لودندورف

وأعلن الجنرال (لودندورف) بعد فشلنا في ٨ أغسطس انه لم يعد يكفل انتصاراً عسكرياً ، لذلك لم يبق بد من الشروع في مفاوضات الصلح . ولكن السياسة لم تتمكن من الشروع في مفاوضات تعلل بآمال كبيرة ، وكانت الحالة العسكرية قد تحرجت كثيراً بسبب الدعوة الى الثورة ، فطلب لودندورف في ٢٩ سبتمبر ان نسعى لعقد الهدنة بدلاً من السعي لمفاوضات الصلح

التقهقر الاول

في هذه الساعة العصيبة التي بات فيها توقيف الحرب ضرورة لا غنى عنها قامت في البلاد حركة ترمي الى تأليف حكومة جديدة • ولم أكن لأستغرب هذه الحركة ، لأن الحكومة التي كانت في دست الأحكام لم تستطع في خلال سبعة أسابيع ـ من ٨ أغسطس الى اواخر سبتمبر ـ ان تبدأ بمفاوضات للصلح تبعث على الأمل بالنجاح

وجاء الجنرال فون (غالويتز) والجنرال فون (مودرا) لمقابلتي في تلك الأثناء — وكانا من قواد الميدان الغربي — فوصفا لي حالة الجيش المعنوية وصفاً يؤخذ منه أن عدد الذين يقتلون وراء الخطوط أخذ في الازدياد ؛ وان حوادث التمرّد والعصيان بدأت تتضاعف ، وان العلم الأحمر ظهر بين الجنود العائدين من الاجازة من ألمانيا

وقال القائدان : ان السبب في هذه الحال هو التأثير السيء الذي أحدثته في الجيش الروح السائدة في البلاد . وقد تسربت الرغبة العامة في توقيف القتال والرجوع الى حياة السلم من وراء الخطوط الى المخافر . ثم بدأت تدب في بعض فصائل الميدان

الانسحاب الى خط انفرس ـ الموز

وقد حملت الأسباب الآنفة البيان هذين القائدين على الاشارة بوجوب سحب الجيش الى خط انفرس ـ الموز ؛ فأمرتُ المارشال هندنبورغ بذلك تلفونياً ، وأشرت عليه بوجوب الاسراع في سحب الجيوش الى وراء الخط المعين • واذا كان لتقهقر جيوشنا — التي انهكها التعب بلا جدال ، ولكنها لم تُغلب في ميدان من ميادين القتال ـ معنى في نظر العالم فهذا المعنى هو انها تراجعت الى خط أقل اتساعاً وأكثر ملائمة للدفاع ، ولو لم يكن قد انشيء فيه شيء من الاستحكامات الجديدة ، وكانت الحاجة ماسة الى استرداد الحرية

في الحركات الحربية . وكنت أرى أن الحصول على ذلك ليس بالأمر المستحيل .
وقد سبق لنا الانسحاب غير مرة في أثناء الحرب رغبة في الانتقال الى مواضع
أكثر ملاءمة للتعبئة والقتال

ولست انكر أن جيشنا في هذه الأيام الأخيرة لم يكن في حالته التي كان
عليها في بداية الحرب ، فان النجدات التي أرسلت الى الجيش سنة ١٩١٨ كانت
تحت تأثير كثير من مذاهب الدعوة الى الثورة والانتقاض ، وكثرت حوادث
انسلال هؤلاء الجنود من خط النار تحت جنح الظلام هاربين الى المنازل .
غير أن السواد الأعظم من جيوشي حاربوا حتى الدقيقة الأخيرة بعزم وثبات
محتفظين بالروح العسكري والنظام التام ، وكانت قوتهم المعنويه أعظم من قوة
الاعداء المعنوية رغم تفوق الاعداء في العدد والاسلحة والمهمات والتنكس
والطيارات . وعلى هذا فان جيوشنا الأولى كانت على صواب في كتابتها على
راياتها : « نحن لم نُغلب لا في بر ولا في بحر »

ان ما قام به الجيش الألماني في معارك أربع سنوات ونصف كان فوق
كل ثناء . ولست أدري أي حالتيه أسمى وأمجد : أهجوم الشبان المشاة سنة
١٩١٤ على العدو ببسالة واقدام دون أن ينتظروا من مدفعيتنا تعضيداً ، أم
سهرهم في الليل وهم يحفرون الخنادق رغم سوء غذائهم واستماتتهم في النهار
بهجومهم على مدافع العدو وطياراته وسياراته المدرعة واستمرارهم على ذلك
أربع سنوات متواصلة

ان هذا الجيش الذي يعتبر منهك القوى استطاع أن يقوم بالهجوم مرات
عديدة بعد حرب دامت أربع سنوات مع أن العدو لا يستطيع أن يدّعي
لجيوشه مثل هذه الدعوى

وبعد فانه لم يكن معقولاً أن نطلب من جيشنا أموراً فوق طاقة البشر ،
وان جيشاً هذا شأنه يحق له أن ينسحب الى الوراء ترويحاً للنفس

وعارض الفيلد مرشال (هندنبرغ) في أمر التقهقر بكل قواه فقال :

« يجب علينا ان نبقى حيث نحن لأسباب سياسية كثيرة منها المفاوضة في شأن الصلح ، فضلاً عن أن سحب المعدّات والذخائر لا يتيسر من غير تمهيد ، وما شاكل ذلك

وقد قررتُ – حينئذ – اجابةً لرغبة الجيش – أن أذهب الى ميدان القتال لأقيم بين جنودي المشتبكين مع العدو في أعظم ملحمة ذكرها التاريخ، ولكي أدرس الحالة الروحية وموقف الجيش في المكان الذي يجب درسهما فيه

وكان تنفيذ هـذا القرار سهلاً عليّ ، ولا سيما لأن الحكومة الجديدة والمستشار لم يريا في وقت من الأوقات ان الحاجة ماسة الى وجودي في (برلين)

وقد بحث (سولف) ووزارة الحرب ومجلس الرخستاغ في بيانات (ولسن) والرد عليها في جلسات طويلة لم أطلع على شيء مما جرى فيها . حتى انني اضطررت في النهاية – بعد وصول مذكرة ولسن الأخيرة – ان أعلن (سولف) بواسطة رئيس ديواني أني أريد أن أقف على الرد قبل ارساله

ووصل (سولف) يحمل اليّ المذكرة وهو يفاخر بالأسلوب الذي قارن به بين مطالبة (ولسن) ايانا بالتسليم وبين الهدنة التي اقترحناها نحن . فلفتُّ نظر (سولف) الى الاشاعات التي تتناقلها الألسنة عن تنازلي عن العرش وطلبت أن تتخذ وزارة الخارجية خطة في الصحف لقمع الحملة الدنيئة التي حملها بعض الجرائد

فقال (سولف) : ان الناس يبحثون جهاراً في الشوارع في مسألة التنازل عن العرش ، وان أعظم الأندية السياسية تشير اليها كثيراً كما تشير الى أمر بسيط . ولما أعربت عن اشمئزازي قال (سولف) – كأنه يريد أن يعزيني : –

« اذا تنحيتم جلالتكم فأنا أيضاً أتنحى لأني أرى البقاء في منصبي من المحال في مثل تلك الأحوال »

ولكني تركت أنا العرش ، أو بالأحرى خلعتني حكومتي ، أما سولف فقد بقي في منصبه

حكومة البرنس (ماكس دي بادن)

ومهما يكن من الأمر فقد أفرغ البرنس (ماكس دي بادن) المستشار قصارى جهده لاقامة الصعاب في سبيلي ، بعد ما علم بعزمي على السفر الى ميدان القتال . وقد سألني عن السبب الذي يحملني على ترك (برلين) فقلت : اني أرى عودتي الى ميدان القتال من أقدس واجباتي ، بصفتي قائداً عاماً للجيش ، ولا سيا لأنه مضى عليّ شهر وأنا مفصول عن جيشي الذي يحارب حرب الجبابرة

واعترض المستشار على ذلك قائلاً أن بقائي في (برلين) ضروري جداً . فقلت : اننا في حرب ، وان الامبراطور هو ملك جنوده . ثم قطعت الحديث بقولي : انني سأسافر على كل حال

ألم يكن من الضروري بعد وصول مذكرة (ولسن) بشأن الهدنة أن تدرس هذه المذكرة في مركز القيادة العليا الى جانب الجيش ، وأن يأتي المستشار نفسه الى (سپا) للاشتراك في درسها وتمحيصها ؟

لذلك سافرت الى ميدان (فلاندر) بعد ما أصدرت الى أركان حرب (سپا) أمراً آخر بالتقهقر الى خط انفرس ـ الموز بأسرع ما يمكن ، ليستطيع الجنود الخارجون من المعركة أن يستريحوا قليلاً . وقد بقيت مصراً على هذا الأمر رغم الاعتراضات التي قدمت الي وجاء فيها أن ذلك يحتاج الى وقت طويل ، وأن المواقع لم تكن قد أعدت ، وان المهمات يجب أن تسحب قبل الجيش .. الخ . ومن ذلك الحين ابتدأ التقهقر

وفي (فلاندر) قابلت مندوبي كثير من فرق الجيش ، وتكلمت مع أفراد الجند ، ووزعت الأوسمة ، واستقبلني الجنود والضباط بالابتهاج والسرور في كل مكان ، ولا سيامستودع المجندين الجدد من أبناء (سكسونيا) ، فانهم استقبلوني بأعظم حفاوة ، ولما عدت الى القطار كانوا يصفقون لي تصفيقاً حاداً ، وعند ما كنت أعلق الأوسمة على صدور جنود احدى فرق الحرس طار

خوقنا اسطول من طيارات الأعداء والقى القنابل في جانب قطاري الخاص

وكان قواد الجيش يصرحون لي جميعاً بأن الحالة المعنوية في جيوش الجبهة الحربية حسنة ويمكن الاعتماد عليها • ولكن الحالة لم تكن كذلك في الكتائب الخلفية ، فالدعوة السيئة كان ينقلها الى الكتائب الخلفية اولئك الجنود الذين يعودون من اجازاتهم الى ميدان القتال ؛ أما المجندون الجدد الذين في مستودعات التجنيد فحالتهم حسنة

وفيما كنت ذاهباً الى (سپا) كانت الأخبار متواصلة من المانيا عن ازدياد الهياج ؛ وانقلاب الرأي العام على الامبراطور ، وعن تهاملها الحكومة وتركها الحبل على الغارب ، فهي واقفة كالمتفرج بلا عزيمة ولا ارادة ، حتى اطلقت الصحف عليها عنوان (نادي المناقشات) . أما الصحف التي كانت ترمي الى فكرة معلومة فقد كانت تسمي البرنس (ماكس دي بادن) باسم (رئيس وزارة الثورة)

وعلمت بعد ذلك أن المستشار لزم فراشه مدة عشرة أيام بالنزلة فلم يتمكن من مباشرة الأمور بنفسه ، وانما كان يتولى ادارة الأمور فون (پير) و (سولف) بالاتفاق مع وزارة الحرب التي كانت في حالة اجتماع دائم • وفي اعتقادي أن سفينة الحكومة لما تكون مهددة بالأخطار كما هي في هذه الأزمة لا يجوز أن تدار الأمور بأيدي وكلاء الحاكم المسئول الذين لا يملكون ما يملكه هو من سلطة ونفوذ

وكان الحل الوحيد الذي يستدعيه الواجب يومئذ هو أن يتولى ادارة البلاد رجل ذو شخصية أقوى من شخصية البرنس (ماكس دي بادن) ، وبما أن بلادنا خاضعة للنظام الدستوري فقد كان في استطاعة الاحزاب أن تسعى لذلك فتقترح عليّ اقامة من يخلف البرنس (ماكس دي بادن) ولكنها لم تفعل

الحكومة تكرهني على التنازل

وبدأت الحكومة والمستشار بعد ذلك يسعيان لحملي على التنازل عن العرش فجاء وزير الداخلية (دروس) لمقابلتي في (سبا) كمندوب للمستشار ، بحجة اعلامي بحقيقة الحال ، فوصف لي الحوادث المعروفة التي وقعت في الصحف والجمهور وبين كبار المتمولين ، وأعلن أن المستشار لم يعين خطته ازاء مسألة التنازل ، ومع ذلك فقد رأى من الواجب أن يوفد اليّ وزيره . فاستنتجت أن مهمة (دروس) كانت اقناعي بالتنازل عن العرش من تلقاء نفسي لكي لا يظهر للعالم ان الحكومة ضغطت علي

وعلى ذلك وصفتُ للوزير العواقب الوخيمة التي تنشأ عن تنازلي ، وسألته كيف يستطيع ـ وهو موظف بروسي ـ ان يوفق بين الانذار الذي يحمله اليّ وبين يمين الاخلاص التي حلفها لمليكه

فاضطرب (دروس) واعتذر بأنه تلقى بذلك أمراً من المستشار الذي لم يجد من يقبل هذه المهمة سواه • على أني أبلغت فيما بعد أن (دروس) كان في مقدمة الوزراء الذين تكلموا عن تنازل الامبراطور

وقد رفضت في النهاية ان أتنازل عن العرش ، وأبلغت (دروس) اني سأجمع جنودي وأعود معهم لمساعدة الحكومة على توطيد دعائم الأمن

وعلى أثر هذا الاجتماع زار (دروس) المرشال (هندنبرغ) والجنرال (غرونر) خلسة عني ، وبسط لهما المهمة التي كلفه بها المستشار • ولكن القائدين قابلاه مقابلة غير لطيفة . وأرسلاه باسم الجيش ليبحث فيما يعنيه

وكان (غرونر) خاصة قد وصف البرنس (ماكس) وخطته وصفاً مؤلماً اضطرني في النهاية الى أن أسلي الوزير وأسكن روعه . اما الفيلد مارشال فقد لفت انظار (دروس) الى أن الجيش لا يقاتل بعد تنازلي عن العرش ، بل يختل نظامه ، ويستعفي قواده ، ويصير الجنود بلا رؤساء

وأبلغني أحد أولادي بعد مدة أن المستشار كلفه بمثل المهمة التي كلف

بها (دروس) فرد ابني على ذلك بكل اشمئزاز قائلاً انه لن يقترح على والده التنازل عن العرش

وكنت في تلك الأثناء قد أرسلت الهر فون (دلبروك) رئيس ديواني الملكي الى (برلين) ليعرض على المستشار بياناً من البيانات اليومية أعددته للنشر محل الخطبة التي القيتها في الوزارة الجديدة ، ولم يشأ المستشار اذاعتها

وكان هذا البيان ـ الذي أوضحت فيه الحالة تماماً ـ يعين موقفي ازاء الحكومة وازاء تيار السياسة الجديدة بكل دقة ووضوح . ولكن المستشار أهمل نشر هذا البيان في بدء الأمر ، ولم يقرر اذاعته الا بعد مرور بضعة أيام عليه ، وعلى أثر كتاب أرسلته الامبراطورة اليه كما قيل لي فيما بعد

وقد أبلغني الهرفون (دلبروك) أن هـذا البيان وقع أحسن وقع في (برلين) وفي الصحف ، وانه سبب انفراج الحال ، واعاد السكينة الى البلاد فتنوسيت فكرة التنازل ، واضطر اشتراكيو اليمين انفسهم الى ارجاء البحث فيها

لكن الأخبار المقلقة عادت فراجت كثيراً في الأيام التالية لسوء الحظ ، وكانت تنبيء بأن الاشتراكيين عقدوا النية على اضرام نار الفتنة في (برلين) فبلغ قلق المستشار اشدّه من جراء ذلك • ثم ان التقرير الذي رفعه (دروس) الى الحكومة بعد عودته من (سبا) أحدث فيها أعظم تأثير . فان هؤلاء السادة كانوا يريدون الانفصال عني ولكنهم خافوا من عواقب هذه المغامرة

وكانت آراؤهم أقل وضوحاً من خطتهم ، لأنهم عملوا كأنهم لا يريدون الجمهورية ، غير أن اعمالهم كانت تؤدي الى الجمهورية رأساً وان كانوا لا يشعرون ،فاتخذ الناس خطتهم دليلاً على رغبتهم في انشاء جمهورية في البلاد

ويعتقد كثيرون ان البرنس (ماكس) لم ينهج الخطة التي نهجها ازائي ولم يعمل على ابعادي الا رغبة منه في ان يعلن رئيساً للجمهورية بعد ما يعين نائباً عن الامبراطور . ولكن هـذا الاعتقاد اهانة للبرنس (ماكس) لأن

مثل هذه الحسابات لا تليق بسليل بيت عريق في المجد من اقدم البيوت الحاكمة في المانيا .

وذهب الجنرال (غرونر) الى (برلين) للوقوف على الحالة ، فعاد منها وقد خابت آماله من جراء الروح السائدة في الحكومة وفي الاهلين ، واقتناعه بان البلاد تسير الى الثورة بخطوات واسعة

واشتد الخلاف بين أعضاء الوزارة واستفحل أمره ، فتعذر عليهم القيام بأي عمل جدي . وكان الشعب يريد الصلح مهما يكن ثمنه . وقد تلاشى نفوذ الحكومة ، واتسع نطاق الحملة المنظمة ضد الامبراطور ، حتى ضعف الرجاء بتلافاة التنازل عن العرش

أما جنود الداخلية فلم يكونوا ممن يصح الاعتماد عليهم . ولو قامت الفتنة لفوجئنا على الغالب مفاجآت مؤسفة ؛ فقد عثر البوليس في حقيبة سفير السوفيات على وثائق خطيرة الشان تدل على ان الثورة البلشفية المنظمة على الطراز الروسي قد وجدت الوقت الكافي لان تعمل بدقة تامة وبكل سكينة وهدوء على يد سفير روسيا وبمساعدة جماعة سپارتاكوس . وقد تم ذلك كله تارة بعلم من الخارجية وتارة خلسة عنها . فان هذه الوزارة كانت تتلقى المعلومات الوثيقة في هذا الشان وتغض الطرف عنها بحجة انه لا يجوز اغضاب البلشفيك . وقد فعلت ذلك على مرأى من البوليس ، فغلت يده وجعلته ـ باصرارها على هذه الخطة ـ عاجزاً عن العمل

وعاد الجنود الموبوءون من اجازاتهم ينثون السم في الجيش الذي ظهرت فيه عوارض الداء

مجلس ٩ نوفمبر

لقد بتنا نخشى امتناع الجيش عن محاربة الثوار بعد ما يتوارى شبح الحرب أمامه ويعود الى وطنه. لذلك لم يكن لنا بدّ من قبول الهدنة في الحال، مهما تكن شروطها قاسية ، لان الجيش لم يعد في طاقتنا الاعتماد عليه

ان الوطن كان يرى الثورة منتصبة أمامه !

وفي صباح ٩ نوفمبر أبلغني المستشار البرنس (ماكس دي بادن) مرة أخري ـ تأكيداً لما قاله يوم ٧ منه ـ أن الاشتراكيين والوزراء الاشتراكيين أنفسهم يطلبون تنازلي عن العرش. وقد انضم اليهم سائر الوزراء الذين لم يكونوا قبل الآن على هذا الرأى . وان حزب الاكثرية في الرخستاغ يرى ذلك أيضاً • فرجا مني المستشار ان أعلن تنازلي في الحال ، والا قامت في شوارع (برلين) فتنة تراق فيها الدماء سدى ، وكانت هذه الفتنة قد ظهرت بوادرها حينئذ في بعض الاحياء

فطلبت المرشال (هندنبورغ) والجنرال (غرونر) الى مقابلتي حالاً ، فصرح لي الجنرال (غرونر) بأن الجيش لم يعد يريد القتال ، وانه لا يطمح الا الى الراحة والسلم : فمن الواجب والحالة هذه أن نقبل الهدنة بأسرع ما يمكن ، لان المئونة الموجودة تحت تصرف القيادة العليا لا تكفى الجيش اكثر من ستة أيام الى ثمانية أيام ، ولان مخازن التموين صارت كلها بيد الثوار الذين احتلوا جسور الرين وقطعوا طريق التموين

وهنا وقعت حادثة لا يدركها العقل ، فان لجنة الهدنة التي سافرت من (برلين) الى فرنسا وفيها الهر (ارزبرغر) والسفير الكونت (اوبرندورف) والجنرال فون (ونترفلد) اجتازت خطوط العدو الامامية ، ولكنها لم ترسل الى مركز القيادة العليا أقل نبأ عن الشروط المعروضة علينا

ووصل ولي العهد ومعه الكونت (شولنبورغ) رئيس اركان حربه واشترك في المفاوضات

وبينما نحن نبحث في الامر وصلتنا عدة اشارات تليفونية مستعجلة من المستشار تنبيء بأن الاشتراكيين تركوا الحكومة وان الحالة باتت شديدة الخطر . وقال وزير الحربية ان فريقاً من حامية (برلين) انضم الى الثوار ، وذكر الالاي الرابع عشر من الرماة ، والفصيلة الثانية من ألاى (الكسفور) وبطارية (غوتربوغ) الثانية . ولم يكن قد وقع شيء في الشوارع الى ذلك الحين

وأردت ان أحقن دماء شعبي وأمنع وقوع الحرب الاهلية ، فوافقت على التنازل عن مقامي الامبراطوري منذ الدقيقة التي رأيت فيها ان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لحقن الدماء . ولكني تمسكت بمركزي كملك بروسيا رغبة في البقاء الى جانب جنودي بهذه الصفة . ألم يقل كبار القواد ان تنازلي التام يجعل الضباط يتركون ميدان القتال ، فيصبح الجيش بلا قواد ، ويتدفق جنوده على ألمانيا تدفق السيل فيلحقون بها اضراراً عظيمة ويعرضونها لاخطار فادحة ؟

وقد أجبنا المستشار بأن المسألة يجب أن تدرس بدقة تامة ، وأن يفرغ القرار في صيغة حسنة ، ثم يرسل اليه

شيوع الاخبار الكاذبة في برلين

عن تنازلي

لم يكد يصل هذا الرد الى المستشار حتى تلقينا منه جواباً مدهشاً . وهو ان قراري وصل متأخراً ، وان المستشار أعلن من تلقاء نفسه تنازلي عن العرش ـ مع أني لم أكن قد قررته بعد ـ كما أعلن تنازل ولي العهد الذي لم يستشره أحد في الامر

أودع البرنس (ماكس دي بادن) الحكومة في يد الاشتراكيين ، ودعا (ايبرت) الى منصب المستشار . وقد أذيعت هذه الاخبار في كل مكان بالتلغراف اللاسلكي وغيره ، وعرفها الجيش في حينها

وهكذا حال جماعتي بيني وبين القرار الذي يمكنني من البقاء أو السفر

ومن التنازل عن عرش الامبراطورية والبقاء على عرش بروسيا

وجازت الاكاذيب على الجيش، فتوهم ان مليكه تركه في الساعات العصيبة، فخارت قواه وتسرّب اليأس الى صميم فؤاده

واذا نظرنا الآن نظرة اجمالية الى سياسة المستشار البرنس (ماكس دي بادن) رأينا ما يأتي :

بدأ اعماله باصدار بيان رسمي تعهد فيه بأن يقوم هو والحكومة بالدفاع عن العرش . ثم حال دون نشر بلاغ مني لو نشر في حينه لغير سير الحوادث . وترك بعد ذلك الامبراطور في عزلة . وألغى المراقبة فحملت الصحف على الامبراطور حملة عنيفة جداً . وقد ختم هذا كله بما بذله من السعي لحمل الامبراطور على التنازل عن العرش . ثم أعلن خبر هذا التنازل بالتلغراف اللاسلكي على غير علم من الامبراطور

وتدل هذه الحوادث كلها على أن (شيدمان) ـ الذي جعل المستشار آلة في يده ـ كان يلعب دوراً شديد الخطر على الدولة . وقد ترك (شيدمان) زملاءه الوزراء على جهل تام بحقيقة آرائه ، وجعل يقود البرنس خطوة خطوة وهو يقنعه بان العامة لم تعد تنقاد الى الزعماء . وهكذا حمله بالتدريج على ترك امبراطوره وأمرائه وبلاده . وجعله « مخرب الامبراطورية الالمانية »

ولما حقق (شيدمان) هذه الآمال أنزل البرنس (ماكس دي بادن) السياسي الضعيف عن منصة الحكم

أسباب سفري الى هولندة

وتفاقمت الحال بعد وصول التلغراف اللاسلكي عن تنازلي عن العرش . وكانت فصائل الجند قد دعيت الى (سپا) لتمكين القيادة العليا من مواصلة عملها بالطمأنينة اللازمة . ولكن المارشال رأى انه لا يصح الاعتماد التام على هؤلاء الجنود ، ولا سيما اذا وصلت فرق ثائرة الى (سپا) قادمة من (اكس لاشاپل) أو من (كولونيا) . لأن جنودنا سيجدون أنفسهم حينئذ مضطرين

الى مقاتلة اخوانهـم . لذلك أشار عليّ بترك الجيش والبحث عن بلاد محايدة أقيم فيها درءاً لمثل هذه الحرب الاهلية

وشعرت حينئذ في صميم فؤادي بأعظم نزاع نفسيّ : فكنت من جهـة اثور ثورة الغضب لدى تفكري بأني ـ أنا الجنـدي ـ أترك جيوشي الباسلة التي حافظت على اخلاصها لي . ثم أذكر من جهة أخرى ان العـدو أعلن انه لا يبرم معي صلحاً تتحمله ألمـانيا . وأذكر أيضاً أن حكومتي أكدت لي مراراً أن الحرب الاهلية لايمكن اجتنابها الا اذا تركتُ البلاد الى الخارج

وقد صرفت النظر في هـذا النزاع عن كل ملاحظة شخصية ، وضحيت بشخصي وعرشي عن طيبة خاطر في سبيل وطني المحبوب . ولـكن هذه التضحية ذهبت سدى ، لان سـفري من ألمـانيا لم يخفف شيئاً من شروط الهدنة والصلح المفروضة علينا ، ولم يمنع الحرب الاهلية ، بل زاد الموقف حرجاً ، لانه استعجل تمزيق الجيش والبلاد

لقـد كان الجيش عنوان مجدي وافتخاري مدة ثلاثين عاماً . فأني عشت من أجله ، وشقيت من أجله . ولـكنه بعد حرب أربعة أعوام ونصف كلها مفاخر وانتصارات ، وبعد ما رأى الصلح على مقربة منه ولمسه بيده ؛ أصيب في ظهره بخنجر الثائرين فخرّ مضرجاً بدمه . . .

ولمـا سمعت ان أسطولي المجيد ـ الذي هو صنع يدي أيضاً ـ قد شعر باشمئزاز شديد في بدء الامر ، ثارت عواطفي وبلغ التأثر أشده في نفسي

وقد كثر اللغط بسبب انسحابي من الجيش وسـفري الى بلاد محايدة . فقال فريق من الناس : كان الواجب على الامبراطور أن يسير على رأس فرقة من جيوشه وينقضّ على العدو محاولاً أن يموت في معركة أخيرة . ولـكني لو فعلت ذلك لمـا اقتصر الامر على استحالة عقد الهدنة التي أشتد ميل الشعب اليها ، وأرسلت (برلين) لجنة لمفاوضة الجنرال (فوش) في شأنها ، بل لضحينا ـ بلا فائدة ـ حياة كثيرين من الجنود ومن أشدهم مراساً واكثرهم اخلاصاً

وقال آخرون : كان يجب على الامبراطور أن يعود الى المانيا على رأس جيشه . ولكن مثل هذا العمل ما كان يتم بصورة سلمية ، لان الثوار احتلوا جسور الرين ومراكز اخرى منيعة وراء الجيش . نعم كان في امكاني المرور في مقدمة جنودى المخلصين القادمين من الميدان ، ولكني لو فعلت ذلك لقضيت على المانيا القضاء المبرم ، لان الحرب الاهلية تضاف حينئذ الى الحرب مع العدو الذي يحاول بلا جدال ان يزحف ورائي على البلاد

وقال غيرهم : كان يجب على الامبراطور أن ينتحر . ولكن اعتقادي الديني الوثيق كان حائلاً بيني وبين هذه النتيجة التي لو وقعت لصاح كثيرون قائلين :

« ياله من جبان ! لقد تخلص الآن من التبعة بالانتحار »

ثم اني لم اعمد الى هذه الخطة لاعتقادي باني قد أستطيع أن أخدم أمتي وبلادي في ابان المصائب المحدقة بهما . فضلا عن أني كنت واثقاً بان مسألة التبعة التي دخل البحث فيها حينئذ في دور جدّى ، والتي كانت المحور الاكبر لمصيرنا ومستقبلنا ، ستدعوني حتما الى الدفاع عن مصالح شعبي ، لاني أستطيع أكثر من كل انسان أن أثبت حسن نية ألمانيا ورغبتها الأكيدة في السلم

فاذا كنت قد عقدت النية على ترك الوطن الى بلاد أجنبية ، بعد نزاع نفسيّ شديد في صميم فؤادي ، وبعد النصائح المؤثرة التي أسداها اليّ اناس كانوا حينئذ مستشاريّ المسئولين ؛ فما ذلك الا لاني صدّقت تلك النصائح ، واعتقدت بأني أقدم لبلادي بعملي هذا أعظم خدمة . وقد أيقنت بأن تنازلي عن العرش سيمكنها من أن تنال شروطاً حسنة للهدنة والصلح ، ويمنعها من تقديم ضحايا جديدة في الرجال ، ويدرأ عنها غائلة الحرب الاهلية وما تؤدي اليه من المصائب والويلات



الفصل الثالث عشر

﴿ محكمة الاعداء ، ومحكمة المحايدين ﴾

غرض الحلفاء من طلبهم محاكمتنا — هل كان في تسليمي نفسي فائدة لامتي ؟ — كيف يمكن تعيين تبعة الحرب ؟ — لا يكون الخصم حكما — كتاب المارشال هندنبرغ — جوابي على كتاب هندنبرغ

غرض الحلفاء من طلبهم محاكمتنا

لما علمت بعزم دول الحلفاء على أن تطلب محاكمتي ومحاكمة قواد الجيوش الالمانية جعلت أحاسب نفسي أمام ضميري . وتساءلت عما اذا كان مفيداً لوطني تسليم نفسي برضا مني ودون وقوع طلب من أمتي الالمانية ومن حكومتها . وكان ظاهراً لي بكل وضوح أن الحلفاء يريدون تقويض سلطة الامة الالمانية وحكومتها تقويضاً أبدياً ، بما يطلبونه من تسليم الاشخاص الذين يريدونهم ، لئلا يكون لنا بعد اليوم مكان في الصف الاول من صفوف الامم ، ولئلا نتمتع معهم فيما يتمتعون به من الامتيازات ، ولنكون محرومين من الحرمة والكرامة ومن عقد اتفاقات تضمن لنا الحرمة والكرامة

هل كان في تسليمي نفسي فائدة لامتي ؟

لقد كنت مدركاً الواجب المحتم علي ، لذلك لم أكن راضياً بتضحية شرف ألمانيا وكرامتها . والشيء الذي كان ينبغي أن أعلمه هو ما اذا كان ثمة فائدة تعود على أمتي من تسليم نفسي في مقابل الاضرار التي أشرت اليها آنفاً . ولو أني وجدت لذلك فائدة واحدة لما ترددت قط في تقديم هذه التضحية واضافتها الى ما ضحيته من التضحيات العديدة من قبل . واني أعلم بأن بعض الاندية الالمانية السليمة النية فكرت بكل جد في مسألة تسليمي نفسي . ولكن الرضى بحل المشكلة بهذه الطريقة قد يكون ناشئاً عن فهم الاحوال النفسية

فهماً سيئاً ، واذا كانوا يستحسنون مني أن أقدم على تلك الخطة فلا ريب أنهم يجهلون بأن ما أرتضيه حينئذ لنفسي من المهانة والانحطاط لا يفيدنا عند الحلفاء شيئاً ولا معنى له غير احتمال العذاب العقيم . ويكفي لاظهار ذلك أن نعيد النظر الى الاسباب الحقيقية التي حملت الحلفاء على المطالبة بما أشرت اليه ، اننا اذا فعلنا ذلك نصل الى نتيجة بديهية جداً وهي أن من الواجب علي الامتناع من تسليم نفسي

لو كنت أظن أن الاقدام على هذه التضحية يجعلني في نظر العالم متفرّداً في حمل تبعة كل القرارات المتعلقة بالحرب ، وفي حمل تبعة جميع أعمال حكومتي ، ويخفف عن عاتق بني قومي شيئاً من عبء مصيرهم ، لكان لي في هذا الامر شأن آخر ؛ ولم يكن يحول حينئذ بيني وبين تحمل التبعة كون القانون الاساسي للامبراطورية قد حصرها في شخص المستشار دون الامبراطور . ولكني لم أكن أظن أن في هذا العمل مثقال ذرة من التأثير في اصلاح موقف ألمانيا ، ولو ظننت فيه مثقال ذرة من فائدة لأقدمت عليه بلا تردّد . واني قد برهنت على استعدادى لقبول التضحية باصغائي الى ما مناني به بعضهم[1] من الاماني الباطلة ـ من منع نشوب الثورة في وطني ، وعقد الصلح بشروط حسنة لبني قومي ـ ففارقت حدود بلادي ، وتنازلت عن عرش آبائي . فانهم زعموا أن الثورة لا تنشب في ألمانيا اذا أنا خرجت منها ، فخرجت منها ولم يتحقق ما زعموه . والآن فاني في ريبة من أن في تسليم نفسي أية فائدة لأمتي ، بل أجزم بأن هذا العمل لا ترجى منه للالماذ فائدة قط

(١) . . هؤلاء الماشال هندنبرغ نفسه كما سيأتي في ص ٢١٦

كيف يمكن تعيين تبعة الحرب ؟

ان تعيين تبعة الحرب لا تستطيع محكمة فى الدنيا أن تصدر فيه حكماً عادلاً ما لم تحصل على جميع أوراق كل الدول المتحاربة ومستنداتها . أما ألمانيا فقد أظهرت للميدان كل ما يختص بها من الاوراق الرسمية . ولكن من هو ذلك الرجل الطيب القلب الذي يصدق بأن دول الحلفاء ترضى بأن تقدم الى محكمة العدل كل ما لديها من المستندات السرية التي كتبت بعد معاهدة (فرساي) ؟

اذن فقد كان واجباً عليّ ان لا أسلم نفسى ، وان أربأ بها عن الاقتداء بعمل (فرش جيتوريكس) الذي كان يرجو خيراً لأمته من تسليمه نفسه الى ايدي اعدائه

لا يكون الخصم حكما

ان أطوار وحركات اعدائنا في أثناء الحرب والمفاوضات كانت تدعو الى الظن بأنهم سيكونون أكرم من (قيصر) . ومعلوم ان قيصر قيد يدي (فرش جيتوريكس) بالحديد ثم لم يمنعه مانع من استعباد قومه بعده

وأريد بوجه عام أن ألفت الانظار الى ان من الخطأ الاصغاء الى النصيحة التي تأتي من العدو ورسم الخطط بحسبها . ومن المؤكد أن الاندية الالمانية التي تذهب الى ضرورة تسليم نفسي انما كانت حسنة النية ، غير أنها انخدعت بزاعم الاعداء على غير علم منها . لاجل ذلك وجب عليّ ان لا أعمل بنصائحهم

ان الحلّ الوحيد لقضية تبعة الحرب هو ان يعهد بها الى محكمة دولية محايدة تحكم في كل الاضرار التي نشأت عن الحرب الكونية لا في الاضرار التي لحقت بأشخاص معدودين . ويجب على هذه المحكمة — بعد أن فتحت ألمانيا جميع أوراقها — ان تدقق النظر فى جميع افعال وحركات الدول المتحاربة ، وتصدر احكامها مؤيدة بالأدلة والمستندات الصحيحة . ان ألمانيا

توافق على هذا الحل تمام الموافقة ، وكل من يتردد في قبوله يكون قد وجه الى نفسه تهمة الاشتراك في المسئولية

* * *

ولقد شرحت وجهة نظري هذه في كتاب لم ينشر بعد بعثت به الى الفلد مارشال (فون هندنبرغ) رداً على كتاب شكر أرسله الي بعد ما أهديته نسخة من كتابي (مقارنة بين حوادث التاريخ). ولاجل ان يكون كتابي مفهوما أثبت هنا كتاب المارشال ثم اتبعه بكتابي :

كتاب المرشال هندنبرغ

هانوره : ٣٠ مارس ، ١٩٢١

ألتمس من جلالتكم الامبراطورية والملكية أن تتقبلوا ما اشعر به من عواطف الشكر والامتنان لما ابديتموه من الاهتمام بالمرض الذي أصاب قرينتي ولا يزال حتى الآن باعثاً على القلق

ليس هناك موضوع يسرني الكلام فيه عن الوطن ، فالاضطراب في ألمانيا الوسطى أشد خطراً مما اعترفت به حكومة پروسيا . ورجاؤنا أن تخمد الثورة عن قريب

ان العبء الذي يتحمله عاتق الامة الالمانية بمعاهدة (ڤرساي) ما برح يزداد ثقلاً عند التنفيذ . وفي كل يوم تظهر للعيان نية أعدائنا في ابادتنا . والمحور الذي تدور حوله سياسة الضغط على الشعب الالماني هو الخرافة التي يكررونها بأن ألمانيا مسئولة عن الحرب . ومع أن المستر (لويد جورج) ـ وهو ترجمان أفكار اعدائنا المتحالفين ـ كان قد صرح في ٢٠ يناير من السنة الماضية بأنه لم يكن ولا واحد من رجال الحكومات يرغب في صيف سنة ١٩١٤ بوقوع الحرب ، وأن الامم كلها قد انجرّت الى الحرب بالتدريج حتى هوت في هوّتها السحيقة ، فانه رجع في (مؤتمر لندن) يوم ٥ مارس فزعم

بخطاب بارد أن ألمانيا هي المسئولة عن الحرب العظمى

فالاساس الذي شيدوا عليه بناء معاهدة (ڤرساي) هو هـذه التبعة التي يوجهونها الى الالمان ، ولولا اتخاذهم ذلك قضية مسلمة لسقط حكم المعاهدة المذكورة .

ان ممثلي الالمان في (ڤرساي) جاروا القوم — على خلاف اعتقادهم — في هذه المسئولية الموهومة التي يتهمون بها ألمانيا ، ونحن الآن نعاني العقوبة الهائلة جزاء تلك المجاراة التي اضطر مندوبونا اليها بضغط الحلفاء . وكذلك فتحمل نحن العبء الذي وضع على كاهلنا بقبول الوزير (سيمون) في(مؤتمر لندن)كون ألمانيا مسئولة عن الحرب « مسئولية خفيفة »

انا متألم مع جلالتكم من كل قلبي ، فقد نلت السعادة والشرف بالعلاقة الشخصية التي كانت لي مع جلالتكم مدة حياتي العسكرية الطويلة . واني أعلم شدة حرصكم على الاحتفاظ بالسلم طول مدة حكم جلالتكم ، وأشعر بمبلغ كدركم وحزنكم لأنكم ممنوعون من الاشتراك في العمل مع الساعين لاجل الوطن

ان كتابكم (مقارنة بين حوادث التاريخ) الذي تفضلتم بتأليفه واهدائي نسخة منه قد أوضح سبب الحرب وفند كثيراً من الامور التي كانت مبنية على الخطأ . واني آسف لأن هـذا الكتاب الذي نشرتموه جلالتكم قد تداولته ايدي قراء محدودعددهم . وأرى ـ بعد المعلومات الناقصة التي اذاعتها الصحف الاجنبية عن الكتاب ـ أن ينشر بواسطة الصحف الالمانية

ولقد سررت جداً بما علمته عن تحسن صحة جلالة الامبراطورة في المدة الاخيرة ، فأرجو لها من الله الشفاء العاجل

وتقبلوا ياصاحب الجلالة احترام عبدكم المخلص الشاكر

الفيلد مارشال

فون هندنبورغ

جوابي على كتاب هندنبرغ

دورن : ٥ ابريل ، ١٩٢١

عزيزي المرشال ،

أشكرك شكراً جزيلاً على ما ورد في كتابك المؤرخ في ٣٠ مارس فانه الحق كله فى جانبك . والذي يؤلمني اكثر من ذلك هو اضطراري الى الاقامة في بلاد الاجانب ارقب بقلب يتفطر أسى مصير وطننا العزيز الذي خصصت له كل سني حياتي ، ثم أرى نفسي الآن غير قادر على مؤازرة الذين يعملون لانقاذه

لقد كنتَ الى جانبي في الساعات العصيبة التي اجتزناها سنة ١٩١٨ . وأنت تعلم أنى لم اتخذ القرار المؤلم الخطير الشأن الذي قضى علي بمغادرة الوطن الا بناء على الحاحك والحاح الرجال الذين كانوا معي . وقد اكدتم جميعكم لى ان تركى البلاد هو الوسيلة الوحيدة التى تمكن شعبنا من الحصول على شروط حسنة للهدنة، ومن حقن الدماء الزكية التي تراق في حرب أهلية هائلة . ولكن هذه التضحية ذهبت سدى . لان الاعداء كانوا ولا يزالون يريدون ان يكفر الشعب الالماني عن الجناية المزعومـة المسندة الى « المانيا الامبراطورية »

واني اتوخى في كل عمل من أعمالي ان اضحي بمصالحي الخاصة على مذبح المانيا المحبوبة ، لذلك تجدني صامتا ازاء ما يحيط بي من الـكذب والنميمة التى اكتنفني بهما الاعداء . واني أرى الرد على الاكاذيب والاهانات من الامور التي تحط من مقامي

وقد راعيت هذا التحفظ في كتابي (مقارنة بين حوادث التاريخ) الذي اشرت اليه في رسالتك ولم أظهره الا لعدد قليل من معارفي . فبأية وسيلة « أو بأية سرقة » أذيعت محتويات هذا الـكتاب ؟ ذلك ما لم أتوصل الى معرفته . كانت غايتي وأنا أؤلف هذا الـكتاب كما يأتي : جمع المعلومات التاريخية

بصرف النظر عن الحوادث وعرضها على القارىء ليرسم في مخيلته صورة حقيقية لما كانت عليه الحالة قبل الحرب • ولا بد لي من الاشارة في هذا المقام الى ان أحسن المصادر التي استقيت منها معلوماتي والتي أخذت منها الادلة المقنعة انما هي الآداب التي ازهرت بعد الحرب عند اعدائنا . لذلك سررت كثيراً لعلمي بانك رأيت ان هذا العمل التاريخي الصغير لا يخلو من الفائدة ، وقد أشرت علي بنشره في الصحف الالمانية ، فاشكرك على ذلك ، وسأفعل حسب اشارتك

ولا ريب في ان الحقيقة ستظهر للعيان بقوة العاصفة . والذين لايدعون معرفة كل شيء يسارعون الى الاعتراف بها ، ويعتقدون بان سياسة المانيا الخارجية لم تكن ترمي طول مدة حكمي التي دامت ٢٦ سنة حتى الحرب ، الا الى المحافظة على السلم العام . وقد توخت غاية واحدة هي وقاية أرض الوطن المقدسة من كل تهديد يأتيها من الغرب أو الشرق وضمان نمو التجارة والصناعة الوطنيتين نمواً سلمياً

ولو ان الحرب كانت تخطر على بالنا لاقدمنا عليها سنة ١٩٠٠ حينما كانت انكلترا منهمكة بحرب البوير وروسيا بحرب اليابان . فان النصر كان حينئذ يبسم لنا ويترامى في احضاننا

وعلى كل حال فاننا لم نكن نختار سنة ١٩١٤ لاعلان الحرب بعد ما رأينا قوات هائلة تتكاتف ضدنا . ولا ريب في ان كل رجل بعيد عن التحيز يعترف بان المانيا لم تكن تتوقع شيئاً من الحرب . أما العدو فكان على عكس ذلك ينتظر منها كل شيء لتحقيق اغراضه الصريحة المقررة منذ زمن بعيد ، والتي كانت ترمي الى القضاء علينا قضاء مبرماً

وان المجهودات العظيمة التي بذلتها أنا وحكومتي في الايام العصيبة التي اجتزناها في شهري يوليو واغسطس سنة ١٩١٤ تجد ما يؤيدها ويثبتها بادلة قاطعة في الآثار الادبية والوثائق الرسمية التي نشرت في المانيا وفي بلاد الاعداء خاصة

والعبارة التي فاه بها (سازونوف) هي من اكبر الادلة على ما تقدم فقد قال : « ان حب السلم الذي تحلى به الامبراطور الالماني أكبر ضمان لنا على اننا نستطيع ان نقرر ميعاد اعلان الحرب متى شئنا ذلك » فهل من حاجة الى شهادة أخرى لاثبات براءتنا ؟ ان هـذه العبارة تدل على الرغبة في مفاجئة خصم لا يفكر في شيء من ذلك . والله يشهد على اني فعلت اقصى ما أستطيعه لاجتناب الحرب، وخاطرت كل مرة لم تكن فيها المخاطرة اهمالا لواجبي الذي هو ضمان طمأنينة وطني المحبوب والدفاع عن سلامة املاكه

فالقول بان المـانيا هي المجرمة قول لا يمكن سماعه . ويستحيل اليوم ان يكون في العالم رجل واحد يشك بان الاعداء المتحالفين هم الذين نظموا الحرب وأعدوها واعلنوها وان المانيا لم يكن لها يد في ذلك

ولـكي يخفي الاعداء عملهم هذا عن العيون انترعوا ـ في ساعة العار التي ابرمت فيها المعاهدة ـ الاعتراف الكاذب بجناية المانيا واصروا على محاكمتي امام محكمة معادية . وانت تعرفني حق المعرفة يا عزيزي المرشال وتعلم اني لا أستعظم التضحية مهما تكن عظيمة اذا كانت في سبيل وطني المحبوب • ولـكن محكمة يظهر فيها مجموع الاعداء بصفة قضاة وخصوم لا يمكن ان تكون اداة للعدل بل للاستبداد السياسي المنظم

ولا ريب في ان حكم هـذه المحكمة لا يكون في جانبي وان هذا الحـكم يعد مبرراً لشروط الصلح الجائرة التي اكرهنا على قبولها

أما أنا فكان من واجبي ان أرفض طلب الاعداء بطبيعة الحال ولـكن ظهوري امام محكمة محايدة تؤلف حسب الاصـول ليس موضوع البحث بالنسبة الي . فاني استناداً الى الدستور ، وبصفتي امبراطوراً وملـكا — أي ممثـلا دستوريا غير مسئول للامة الالمـانية — خدمت بلادي على أحسن أسلوب رأيته ، أرفض الرضوخ لحكم كل محكمة بشرية مهما تكن سامية . لاني لو فعلت غير ذلك لوضعت شرف الامة الالمـانية الممثل بشخصي تحت رحمة الاعداء

فكل تهمة تعزى الى رئيس دولة محاربة وكل عقاب ينزل به ينتزعان من تلك الدولة حق مساواتها بالدول الاخرى كما ينتزعان منها السلطة التي تتمتع بها بين الامم

واذا نظرنا الى التأثير الذي شاء الاعداء ان يحدثوه ، أدركنا انهم كانوا يعملون في كل ماله صلة « بمسألة التبعة » كما لو لم يكن في العالم سوى أمة واحدة يمثلها رئيس واحد

فيستنتج من ذلك أن الحكم في مسألة « التبعة » حكما بعيداً عن الهوى لم يكن ممكناً الا اذا شملت الاجراءات القضائية رؤساء الحكومات المعادية وأعاظم رجالها وعرضت أعمالهم على بساط البحث والتنقيب . لان موقف دولة واحدة في ساعة الحرب لايمكن تقديره والحكم عليه مالم ينظر في موقف الدول الاخرى المعادية وتدرس أعمالها درساً دقيقاً خالياً من الغرض

والبحث الحقيقي في مسألة التبعة يهم المانيا كما يهم أعداءها ولكنه لايعد ممكناً الا اذا أنشئت له محكمة دولية محايدة خاصة لا تصدر أحكامها على بعض الافراد بمقتضى قانون الجنايات بل تنظر في الاعمال التي أدت الى الحرب كما تنظر في الاحوال التي وقعت فيها حوادث الاعتداء على حقوق الشعوب لتصدر بعد ذلك حكما عادلا على الرجال المسئولين من الفريقين

وقد عرضت المانيا هذا الاقتراح الشريف رسمياً بعد الحرب ولكن الاعداء ، على ما أعلم ، رفضوه أو انهم لم يجدوه جديراً بالرد

ثم ان المانيا فتحت دفاترها بعد الحرب بلا حذر في حين ان أعداءها أحجموا عن اقتفاء أثرها الى الآن . ولم يعلن من أوراقهم السرية سوى الوثائق الروسية التي تطبع اليوم في أمريكا

فهذه الخطة التي نهجتها الدول المتحالفة تكفي وحدها للدلالة على الفريق المسئول عن الحرب ، فضلا عن التهم العظيمة التي تؤيدها . أما المانيا فيهمها

قبل كل شيء ان تفرغ قصارى جهدها لجمع كل الوثائق التي لها صلة بمسألة التبعة ، وان تدرس هذه الوثائق وتنشرها ، وتزيح الستار عن الاسباب الحقيقية التي أدت الى الحرب

هذا وقد ساءت صحة جلالة الامبراطورة لسوء الحظ واستولى القلق علي . فليكن الله معنا المخلص غليوم

الفصل الرابع عشر

﴿ تبعة الحرب ﴾

رخاء المانيا وغناها

وأسباب تكوين « التحالف »

لم يذكر التاريخ حرباً تضارع حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ أو تقاس بها . وليس في التاريخ أيضاً حرب اضطربت الاسباب التي أدّت الى نشوبها كاضطراب الاسباب التي نشأت عنها هذه الحرب

الحرب الكونية حادثة كبيرة تحير الالباب من حيث وقوعها على مرأى جيل من البشر تهذب تهذيباً سياسياً راقياً ، وتحلى بالعلم والنور ، ومن حيث ظهور اسبابها ظهوراً ساطعاً . أما الاضطراب الظاهري لأزمة يوليو سنة ١٩١٤ فانه لن يخدع أحداً عن رؤية الحقيقة

وهنالك أهمية عظمى للرسائل البرقية التي دارت بين وزارات الدول وملوكها ، ولمساعي الرجال غير الرسميين والرسميين الذين كانوا يتفاوضون مع رجال دول الحلفاء . فان كل كلمة ينطق بها رجل مسئول أو يطيرها على جناح البرق لا ريب أن لها معنى ثابتاً ومدلولا قاطعاً

ولكن دواعي الحروب ـ في مظاهرها العامة ـ لم تتغير عما كانت عليه من قبل ، بل لا تزال هي هي . فاذا نشبت حرب مّا فيجب على البصير أن لا يخاف قط من استخراج هذه الدواعي بسكينة وانصاف ، وتجريدها من كل ما يحيط بها من الامور المبهمة

لقد كان الموقف العام للامبراطورية الالمانية في السنوات التي تقدمت الحرب موقفاً ناجحاً فيزداد رونقاً وبهاءً يوماً بعد يوم ، ولهذا السبب وحده كانت بلادنا مقبلة على دور كثير المصاعب في سياستها الخارجية

وكان ارتقاء ألمانيا في الصناعة والتجارة والاعمال العامة قد صار ينبوع سعادة ورخاء للامة الالمانية بما لم يسبق له مثيل . غير أن هذا الارتقاء ، وما نتج عنه من نجاح الالمان وتفوقهم حتى تمكنوا بحقّ من أن يستولوا استيلاء سامياً على أسواق العالم ، لم يرق في أعين بعض الامم القديمة وفي جملتها انكلترا

هذا أمر طبيعي جداً ، ولم يكن سراً من الاسرار . ومن ذا الذي يسرّه ظهور رقيب ينافسه في استمالة زبائنه القدماء وصرفهم عنه ؟ وعلى هذا فانا ليس لي ما أعترض به على امتعاض انكلترا من فلاح ألمانيا وبسط نفوذها في أسواق العالم

وكانت انكلترا تستعمل حقها لو أرادت أن تتغلب على الالمان بسلوك طرق تجارية أقرب الى النجاح ، فان أمهر الخصمين وأعظمهما كفاءة هو الذي يتغلب على خصمه من هذا السبيل . وليس عيباً أن تنافس أمة أمة أخرى منافسة تستند الى الوسائل السلمية ويظهر أثرها في حياة الامتين ، لأن الامتين تتسابقان في هذه الحال الى ما فيه نفعهما

أما اذا عمد أحد المتنافسين الى استعمال القوة لمنع خصمه من منافسته ، وتوسل بالوسائل الحربية للقضاء عليه فان المسألة تدخل حينئذ في طور آخر غير طورها الاول

اذ موقفنا لم يصبح حرجاً الا منذ اضطررنا الى انشاء اسطول نحافظ به على

رخائنا وثروتنا اللتين لا تستندان الى صادرات ألمانيا ووارداتها البالغتين ١٩ ملياراً

ولا حاجة الى القول بأننا لم ننشىء أسطولنا لنكسر به الأسطول الانكليزي ، لأننا اذا نظرنا الى النسبة الحقيقية بين الاسطولين لو تقابلا وجهاً لوجه لا نستطيع أن ندعي بأن في امكاننا احراز النصر على الانكليز في البحر

ومن جهة ثانية فان نجاحنا في اسواق العالم كان سائراً في طريق التقدم سيراً مطرداً بحسب ما نريد ، ولم يكن هنالك مايدعونا الى التذمر والشكوى. اذن فلماذا نعمل على تعريض مساعينا السلمية المثمرة للتهلكة والخطر ؟

أما في فرنسا فكانوا يبثون روح الانتقام منذ سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ • وهم يربون هذا الشعور وينمونه بكتاباتهم الأدبية وبمقالاتهم السياسية والعسكرية ، وبين ضباط الجيش ، وفي المدارس ، وفي الجمعيات

تلك حالة نفسية كنت على علم بها . واذا نظرنا الى الأحوال من وجهة الفكرة القومية ومبلغها من الصواب نحكم بأن سعى الأمة لتلافى خذلانها واصلاح فسادها محترم في نظر الناس ، وبعكس ذلك ايثارها الخمول ورضاها بالخذلان

ان (الألزاس واللورين) وطن ألمانى منذ عصور ، وكانت فرنسا قد قد اغتصبته منا فاسترجعناه عام ١٨٧١ • وعلى ذلك فان حرب الانتقام التى تعلن للاستيلاء على بلاد مابرحت ألمانية منذ زمن طويل انما هى حرب جائرة ومنافية للاخلاق . وأيما تساهل يصدر منا في هذا الباب كان من شأنه أن يمس عواطفنا القومية القائمة على مبدأ العدل . وما دام انتزاع (الألزاس واللورين) من أيدينا لن يكون برضى منا فان نتيجة ذلك هي أن أمنية الانتقام التى تضمرها فرنسا لن تتحقق الا بالحرب ، وكانت ألمانيا لا ترغب في أن تعرض للخطر ثمرة انتصارها عام ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، لذلك بذلت هي جهدها لأن تعيش مع فرنسا بسلام ، ولا سيما بعد ان ظهر في الأفق ذلك البرج الذي

أنشيء من عدة دول وأخذ يزحف على الاتفاق الألماني النمسوي

وكانت دولة القياصرة في روسيا موجهة أنظارها الى السواحل الجنوبية باحثة لها عن منفذ على البحر ، وتلك أمينة لا غبار عليهـا . غير أن هنالك منافسة بين النمسا وروسيا على بلاد الصرب بوجه خاص ، وهي منافسة جديرة بالاعتبار . وبمـا أن ألمانيا حليفة النمسا فقد كان لها علاقة بذلك الى درجة مّا. ومن جهة أخرى فان روسيا القيصرية كانت تتمخض في داخلها بالثورة في كل آن ، فكانت كل وزارة روسية تبحث عن مشاكل خارجية تشغل البلاد بها عن المشاكل الداخلية ، وكان ذلك الوسيلة الوحيدة التي تتوسل بها حكومة روسيا لتقرير الامن

ثم ان القرض العظيم الذي كانت روسيا في أشد الحاجة اليه قد وجدته في فرنسا ، وبذلك انتقل الى روسيا عشرون ملياراً من الفرنكات الذهب بشرط أن يكون لفرنسا شيء من الرأي في كيفية انفاق هذا المبلغ

ولم تكن روسـيا مكبلة من فرنسا بسلاسلها الذهبية فقط ، بل كانت — في الوقت نفسه — آلة لفكرة الانتقام الفرنسوية أيضاً . وهكذا كانت انكلترا وفرنسا وروسيا تسيران في طرق مختلفة الى غاية واحدة وهي مناصبة ألمـانيا العداء . أما انكلترا فقـد اندفعت الى هذه الغاية من طريقي السياسة والتجارة . وأما روسيا فكانت تقصد هذه الغاية تبعاً لفرنسا ، ثم استرسلت في ذلك بدافع من مشاكلها الداخاية ، وبرغبتها في منفذ على البحار الجنوبية . وهذه السياسة التي اشتركت الدول الثلاث في اتباعها للوصول الى تلك الغاية الواحدة هي التي نسميها نحن « سياسة الخنق » ، يضاف اليها « اتفاق الاشراف » الذي تكلمت عليه في الفصل الثالث الخاص بالمستشار (هوهنلو[١]) وهو الاتفاق الذي علمته أخيراً وكنت أجهله طول مدة حكمي . فلما علمت به بادرت الى الاستفهام عنـه من فون (بتمن) فأجابني جواباً مبهماً فهمت منـه انه ربمـا كان بين أوراق وزارة خارجيتنا شيء من المعـلومات عن هذا الاتفاق

(١) انظر ص ٦٢ — ٦٥

وفي الواقع ان فون (هولن) سفير ألمانيا في (واشنطون) كان قد أرسل بعض الاخبار السرية في هذا الشأن ، ولكن وزارة الخارجية لم تعبأ بما أرسله اليها ولم تطلعنى على ذلك ، لأن السفير لم يذكر المصادر التي استقى منها أخباره . وعلى ذلك فان هذا الاتفاق لم يحدث قط تأثيراً في السياسة الألمانية ، غير أن العالم الانغلو سكسونى شرع يناصبنا العداء منذ سنة١٨٩٧ . والآن صرنا نفسر بهذا الائتلاف ماكان يقع من المشاكل الكثيرة لألمانيا ، وفهمنا به سبب الخطة التى سلكتها الولايات المتحدة في اثناء الحرب العظمى

أما التحالف الودي المعروف بالاتفاق الثنائى [1] فكان — على عكس ذلك — معروفاً عندنا من حيث المبدأ والغاية وكان له تأثير حقيقي على شئون السياسة

ولم يكن اتحاد الفرنسويين والانكليز والروس ليؤثر في موقف ألمانيا الا تأثيراً واحداً من الوجهة السياسية، فكان الواجب علينا أن ندرأ التهديد الخارجي الذي يتوقف عليه مصير ألمانيا الى أن نبلغ اقتصادياً وحربياً — في البحار وفي السياسة العالمية — منزلة تجعل الأعداء يفكرون مرتين في الأمر قبل أن يقدموا على المجازفة بعمل فاصل • وحينئذ يضطرون الى الموافقة على اشترا كنا في استثمار ما بقى من الكرة الارضية ،من غير أن يحاولوا انتزاع القسط الذى تمكننا مواهبنا من المطالبة به • واننا لم نرد ولم نكن لنريد أن نعرّض للخطر هذه النتيجة التي احرزناها بجهد طويل

وصفوة القول ان الحالة ظهرت بمظهرها الحقيقي كما يأتي : ان اغراض الحلفاء لا يمكن أن تنال بغير الحرب ، أما أغراض المانيا فلا تتحقق الا اذا ساد السلم

وهذه هي الفكرة الجوهرية التي يجب العناية بها ، لأنها تدل على حقيقة الحال أكثر من كل دليل آخر . ولا يهمنى الآن ان أبحث في الحوادث الفردية ولا في البيان البلجيكي وغيره من البيانات ولا في التلغرافات التى

(١) أنظر ص ٦٤

تبودلت قبل الحرب مباشرة ،لأني أريد أن اترك تدقيق هذه المسائل الخاصة الى مجهودات المؤرخين

وقد عملنابما يقضي به هذا الموقف علينا بعد ما قدرنا حالتنا حق قدرها

ولكي أتكلم عن انكلترا مرة أخرى أقول: اننا أفرغنا قصارى جهدنا وفعلنا أكثر مما نستطيع للوصول الى اتفاق معها. وقد قبلنا مبدأ تحديد القوات البحرية كما ذكرت في اثناء بحثي عن زيارة (هلدان) الى (برلين)[1] وكنت أحاول الاستفادة من صلات القرابة التي تربطني بالاسرة الانكليزية ، ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً ، لأن خطة الملك (ادورد السابع) كانت خطة الملك الانكليزي الذي يعمل على تحقيق برنامج حكومته . أضف الى ذلك أطماع هذا الملك الذي ارتقى عرش المملكة متأخراً

لقد بذلنا كل ما في الطاقة في سبيل مصادقة انكلترا ، ولكن مساعينا كلها ذهبت ادراج الرياح ، لأن تجارتنا الخارجية كانت آخذة في النمو ، ولانه لم يكن في امكاننا توقيف مجهوداتنا التجارية اكراماً للانكليز

على أن الذين اهتموا بتدقيق سياستنا ازاء الانكليز انتقدونا كثيراً لرفضنا التحالف الذي جاءنا به المستر (تشمبرلن) وزير المستعمرات البريطاني في أواخر سنة ١٨٩٠ . ولكن هذه المسألة اذا نظر اليها من قريب ظهرت بغير الشكل الذي يتوهمه الانسان لأول وهلة . وذلك لأن (تشمبرلن) كان يحمل كتاباً من اللورد (سالسبوري) رئيس الوزارة الانكليزية الى البرنس فون (بيلوف) جاء فيه : ان (تشمبرلن) يعمل من تلقاء نفسه ، وان الوزارة الانكليزية ليست على رأيه

ورب قائل يقول ان هذا الكتاب ربما يكون من المناورات السياسية العادية التي ترمي الى عدم تقييد الوزارة الانكليزية التي تتوقف اعمالها على البرلمان . على انه ثبت لنا فيما بعد ان حزب الاحرار الانكليزي — الذي يرفض كل اتفاق بين انكلترا وألمانيا — كان معارضاً لهذا المشروع منذ ذلك الحين

(١) انظر ص ١٠١

وبما ان هذا العمل كان على الغالب من المناورات السياسية . وبما ان الحكومة الانكليزية التى أوفدت (تشمبرلن) الى (برلين) ارادت ان تحفظ لنفسها حرية العمل ، فان البرنس (بيلوف) دخل بالاتفاق معى في مفاوضة طويلة مع المستر (تشمبرلن) فاتضح لنا حينئذ ان هذا التحالف الألماني الانكليزي سيوجه الى روسيا . وقد بحث تشمبرلن بكل صراحة في الحرب المقبلة التى تعلنها انكلترا وألمانيا على الروس . ورفض البرنس بيلوف بادب — ولكن بشدة وبالاتفاق التام معي — ان يعمل على تعكير صفو السلم في أوربا . وكانت خطته هذه مستمدة من روح المستشار الأكبر لان البرنس (بسمرك) كان قد وضع المبدأ التالى — وقد سمعته مراراً يصرح به في محيط الأسرة البسمركية — : « ان ألمانيا يجب عليها ان لا تكون سيف انكلترا في البر »

وهكذا واصلنا خطتنا السياسية وفقاً للبرنامج الذي وضع لها . أي اننا رفضنا الموافقة على كل عهد قد يعكر صفو السلم ويدفعنا الى حرب لا يكون سببها الاساسى الدفاع عن أرض الوطن . وان رفض اقتراح (تشمبرلن) لمن الأدلة الكثيرة على حب ألمانيا للسلم

وقد حاولنا ان نجعل علاقاتنا مقبولة مع فرنسا . ولكن ذلك كان صعباً جداً علينا ، لاننا كنا في نظر الفرنسويين اعداء بلادهم الالداء منذ القدم . وبديهي انه لم يكن في طاقتنا ان نوافق على مطالب سياسة الانتقام . على اننا توصلنا مع ذلك الى تسوية مشكلة (المغرب الاقصى) تسوية سلمية ، من غير ان يفكر رجل واحد في ألمانيا بامكان وقوع الحرب بسببها . وقد قبلنا حينئذ من أجل السلم ان تعزز فرنسا مركزها وفقاً للمنافع المتبادلة التى ذكرت في معاهدة (مصر — مراكش) والتى ابرمت سراً مع انكلترا بصرف النظر عن المصالح العظيمة التى كانت لالمانيا في (المغرب الأقصى)

ولكن (مؤتمر الجزيرة) كان من النذر الاولى للحرب العظمى

ولم يكن من المستحسن أن نلتزم سياسة التقهقر في هذه المرة أيضاً كما التزمناها في مسألة (المغرب الاقصى) ، غير أننا وضعنا رغبتنا فى المحافظة على السلم العام فوق أي اعتبار آخر فآثرنا التضحية في هذه المسألة أيضاً ، وكانت نتيجة ذلك أن فرنسا أساءت تفسير الكياسة واللين اللذين أظهرناهما للوصول الى هذا الغرض

وأريد أن أشير هنا الى رحلة والدتي الامبراطورة (فردريك) الى (باريس) . فقد كنا نظن انهم سيحسنون هنالك وفادتها مدة اقامتها بينهم لأنها أميرة انكليزية ، وقد قصدت باريس لتشاهد ما فيها من الفنون الجميلة بصفتها من أهل الاختصاص في هذه الفنون . وكان قد سبق لي زيارة الامبراطورة (اوجينى) مرة في قصر (فارن بوروخ) عند عودتى من (الدرستون) ومرة فى يختها الراسي في مياه نورو ج اذ كنت يومئذ هناك ، وكنت أرى هذه المجاملات من الامور الطبيعية

ولما جاء الجنرال (بونال) الفرنسوي الى (برلين) دعي مع جميع ضباطه الى تناول الطعام على مائدة الاي الحرس الثانى، فحضرت أنا أيضاً هذه المأدبة وشربنا نخب الجيش الفرنسوي ، ولعلهم لم يكونوا يتوقعون أن أجاملهم هذه المجاملة

وقد كنت أؤمل ذلك عن حسن نية . واستدعيت الى بلادنا بعض المتفننين من الفرنسويين رجالاً ونساء . ومع أننا كنا نفعل ذلك بمقتضى السياسة الكبرى فان هذه الاعمال لم تكن تخلو من الدلالة على حسن نيتنا

أما روسيا فقد عانيتُ في سبيلها أعظم المشاق ، ورسائلي التي كانت تنشر بين حين وآخر لم أرسلها بالطبع الا بعد موافقة مستشاري الامبراطورية عليها . وقد بعثت بها بعد استشارتهم بل بالاحرى بعد اصرارهم علي بارسالها. ومن المحتمل ان روسيا ما كانت لتخوض غمار الحرب ضد ألمانيا في عهد القيصر (اسكندر الثالث) لأن هذا القيصر كان رجلا أميناً واثقاً بنفسه .

اما القيصر (نقولا) فقد كان على عكس ذلك ضعيفاً ومذبذباً . يرى الحق دائماً في جانب آخر رجل يكلمه . ولم يكن في امكانى بطبيعة الحال ان اكون هذا الرجل على الدوام

على أنى أفرغت قصارى جهدي مع هذا القيصر لتوطيد الصلات الودية التقليدية التي كانت تربط ألمانيا بروسيا . وكان الوعد الذي صدر مني لجدي وهو على فراش الموت من أكبر العوامل التى حملتنى على نهج هـذه الخطة بصرف النظر عن جميع العوامل السياسية

وقد نصحت للقيصر (نقولا) غير مرة باجراء الاصـلاحات الحرة في داخل امبراطوريته ودعوة المجلس المسمى (مجلس الدوما الاكبر) وهو الذي كان موجوداً في عهد ايفان البطاش . ولم أكن أتوخى من هـذا العمل أن أتدخل في شئون الروس الداخلية ولـكنى كنت أسعى ـ لمصلحة ألمانيا ـ في درء اخطار الثورات الداخلية التى تؤدي في أغلب الاحيان الى مشاكل خارجية ، وفي تحسين حالة روسيا الداخلية المشربة باخطار الحرب

وقد أقدمت على ذلك بكل سرور ، ولا سيما لانى كنت أعلم انى أخدم القيصر وأخدم روسيا معاً

على أن القيصر لم يكن ليريد ان يسمع شيئاً ، وقد دعا مجلس الدوما الجديد إلى الاجتماع من غير ان يمكنه من القيام بالمهام الملقاة على عاتقه . ولو أنه دعا مجلس الدوما القـديم لتمكن على الاقل من ان يفاوضه شخصياً ، وان يناقش كل مندوب من مندوبى امبراطوريته الواسعة ، فيعيد بذلك الثقة الى البلاد

ولما قرر القيصر اعلان الحرب على اليابان أبلغته انى سأمنع خصومه من أخذه من الوراء وأقيم الصعاب في وجه من يحاول ذلك . وقد برّت ألمانيا بوعدها هذا

وسارت الحرب سيرها الطبيعي فلم يلق القيصر ما كان يرجوه منها .

ووقف الجيشان وجهاً لوجه بضعة أسابيع من غير ان يقدما على عمل حربي كبير . فاضطربت لذلك الحكومة الروسية . وجاء الغرندوق (ميخائيل) شقيق القيصر لزيارتي في (برلين) ولم نكن نعلم ماذا يبتغيه الغرندوق منا . وقد طلب مني البرنس (بيلوف) ـ وكان حينئذ مستشاراً ـ ان اسأل الغرندوق عن حالة روسيا ، لان البرنس كان قد تلقى أخباراً سيئة عنها وفكر بان الوقت قد حان لتضع روسيا حداً للحرب

وقمت بالمهمة التي كلفني بها المستشار ، وظهر الغرندوق كأن صخرة كبيرة أزيحت عن صدره لما كلمته بصراحة ، فأكد لي ان الحالة سيئة جداً . فقلت ان القيصر يجب عليه ان يفكر في الصلح لان المعلومات التي تلقيتها من الغرندوق نفسه والتي دلت على ان الحال المعنوية في الجنود والضباط لا يمكن الاعتماد عليها هي في نظري شديدة الخطر كبوادر الهياج التي ظهرت في داخلية البلاد

وكان الغرندوق (ميخائيل) مرتاحاً الى الفرصة التي سنحت له ودعته الى الكلام . فقال لي ان القيصر متردد شأنه في كل حين ، وان الواجب يقضي عليه بابرام الصلح ، وهو لا يحجم عن ذلك اذا اسديته هذه النصيحة . ثم رجا مني أن اكتب كلمة بهذا المعنى ينقلها هو الى القيصر

وقد وضعتُ باللغة الانكليزية مسودة لهذا الكتاب وذهبت الى بيلوف لابسط له خلاصة ما دار بيني وبين الغرندوق من الحديث ، ولكي اطلعه على مسودة الكتاب . ففكر البرنس ملياً في الامر ثم استصوب فكرتي

وقد أخبر الغرندوق الكونت(اوستن ساكن) السفير الروسي في (برلين) بما جرى ، ثم كرر شكره لي ، وعاد الى القيصر رأساً يحمل كتابي . وحينئذ بدأ القيصر بمفاوضات الصلح

وقال الكونت (اوستن ساكن) حينما اجتمع بي للمرة الأولى بعد هذه الحادثة اني خدمت القيصر وخدمت روسيا اعظم خدمة . فسررت حينئذ

من هذا القول لأنى ادركت ان الجماعة فهموا خطتى ، ورجوت أن تتحسن العلاقات المقبلة بين روسيا وألمانيا • وكنت بهذا العمل قد أبعدت اخطار الثورة الروسية عن حدودنا : لأن هذه الأخطار كانت عظيمة لو وقعت الثورة في ابان الحرب الروسية اليابانية

على أن المانيا لم تقابل بما تستحقه من عرفان الجميل . وقد كانت خطتنا في ابان الحرب الروسية اليابانية أعظم دليل على حبنا الحقيقي للسلم • وكنت دائماً اسعى لتوطيد اركان هذا السلم فى العالم • لذلك القيت شبكة المفاوضات التى أسفرت عن مقابلة « بجوركه » — يوليو سنة ١٩٠٥ — حيث بحثنا في عقد تحالف بين ألمانيا وروسيا وجعلنا باب التحالف مفتوحاً لحلفاء الفريقين ولسائر الدول • ولكن هذا المشروع لم تتم الموافقة عليه بسبب معارضة الحكومة الروسية « ايزولوسكى »

ولدي الآن بضع كلمات اقولها عن امريكا صارفاً النظر عن « اتفاق الاشراف » الذي ورد ذكره فيما مضى وكان يقضى مبدئياً على امريكا بمساعدة انكلترا وفرنسا اذا وقعت حرب عالمية • فاذا استثنينا هذا الاتفاق فان امريكا لا تعد من دول التحالف الودي الذي انشأه الملك ادورد تنفيذاً لأوامر حكومته . لذلك يمكن أن نؤكد ـ على قدر ما تسمح لنا الوثائق المعروفة ـ بأن امريكا لم يكن لها يد في اضرام نار الحرب • وكل ما يمكن ان يقال في هذا الشأن هو أن الجواب غير الودي الذي أرسله الرئيس (ولسن) الى الحكومة الألمانية في بدء الحرب كان ذا صلة « باتفاق الاشراف » الذي تقدم الكلام عنه

وهذا لا يعنى ان امريكا بدخولها في الحرب ، وبما كانت ترسله من المقادير الهائلة من الذخيرة ، قد اضعفت آمال دولتي الوسط بالنصر

على ان الانتقادات التى اساسها العواطف لا يمكن أن توجه الى امريكا أو الى غيرها من الدول ، لان السياسة العليا لا تعرف غير العوامل الحقيقية ،

وأمريكا كانت بالرغم من (اتفاق الاشراف) تستطيع ان تبقى حرة محايدة كما تستطيع ان تخوض غمار الحرب معنا أو مع الحلفاء . وليس في العالم من يستطيع ان ينتقد أمة فيما تقرره بشأن الحرب أو السلم الا اذا كان هذا القرار مخالفاً لعهود قطعية ثابتة وليست هذه حالة امريكا . ومع ذلك فمن المناسب ان نشير في هذا المقام الى ان المستر (جون كنيت تورنر) اثبت في كتابه (هل تتكرر ؟) الذي سبقت الاشارة اليه[١] أن جميع الحجج التي ادلى بها (ولسن) لتبرير دخوله في الحرب لم تكن الا حججاً وهمية ، أما الحقيقة فهي ان الرئيس قد عمل مدفوعاً بمصالح كبار المتمولين في « وال ستريت » . ومن أكبر الادلة على الفوائد المادية العظيمة التي جنتها امريكا من الحرب انها جمعت في خلالها أكثر من خمسين في المئة من ذهب العالم كله. وهذا ما جعل الدولار يحل الآن محل الجنيه الانكليزي ويدير حركة القطع في العالم

ولكن هل يمكننا ان نحقد على أمريكا من أجل ذلك ؟

ان كل أمة تجد نفسها في مثل هذا الموقف الذي تغبط عليه لا تحجم عن أن تسعى بكل سرور في أسواق العالم لتكسب هذه الثروة الطائلة وهذا النفوذ العظيم . اما نحن فلا نستطيع الا أن نأسف لان امريكا لم تفضل الاتجار مع دولتي الوسطى

وبعد فان لألمانيا الحق في أن تحتج على دول الحلفاء لمقابلتهم مساعيها السلمية بالسلاح الحربي ، كما أن لها الحق في أن تحتج على الولايات المتحدة لما ارتكبته نحوها في أواخر الحرب من الأمور المخالفة للحقوق

* * *

(١) ص ٦٥

تبعة الرئيس ويلسن
لا تقع على أمريكا

أنا مقتنع بأن أمريكا لا تقع عليها تبعة شيء من هذه الأعمال . ولو ان نساء أمريكا على الخصوص استنارت لهن الحقيقة في حينها لعارضن الرئيس (ويلسن) من الساعة الأولى التي حاد فيها عن مبادئه الأربعة عشر

وقعت أمريكا — أكثر من كل بلد آخر — في شرك الدعوة الانكليزية الكاذبة • وهذا هو السبب الذي جعل الرئيس (ويلسن) يقوم في باريس بمفاوضات واسعة النطاق كأنه الحاكم المطلق حتى أدى ذلك به الى الانحراف عن قواعده وايصال بلاده الى أحرج المواقف

وكما أن مستر (ويلسن) تغاضى ـ فيما بعد ـ عن الحصار الانكليزي الذي كان احتج عليه من قبل كذلك فعل في مبادئه الأربعة عشر التي وافقت عليها ألمانيا رغم ما فيها من الشدة . وان الحلفاء أيضاً وافقوا على هذه المواد اذا استثنينا مسألة حرية البحار

ومع أن (ويلسن) قد ضمن هذه المواد الأربعة عشر فاني لا أرى منها في معاهدة (فرساي) غير المواد الموافقة لآمال الحلفاء الاستبدادية ، وهذه أيضاً لم تدخل في المعاهدة الا بعد أن اصيبت بالتحريف والتسحيف

ان ألمانيا جلت عن بلاد الأعداء التي كانت تحتلها ، وألقت سلاحها من يدها دون ان تدافع عن نفسها ، وذلك كله اعتماداً على الضمانات التي أعلنها الرئيس (ويلسن) . وما موقفنا الحاضر الا نتيجة الثقة العمياء التي وثقناها بالرئيس (ويلسن) من جهة وظهور الثورة الألمانية من جهة أخرى . ويرى (تورنر) ان مواد (ولسن) الأربعة عشر كان المقصود منها حمل ألمانيا على ترك السلاح منذ عقدت الهدنة ، فلما حصل المقصود منها تناسى (ولسن) هذه المبادىء . وان فريقاً كبيراً من الامريكيين وقفوا للرئيس (ولسن) موقف المعارضة لئلا يصيبهم ما أصابه من الفشل

واني لا أطمع في أن تنبري الولايات المتحدة الى مساعدة ألمانيا من تلقاء نفسها ، ولكني واثق بما للأمريكيين من حسن البصيرة ، وسيأتي يوم يدركون فيه ما يجب عليهم من تلافي الخطأ الذي ارتكبه رئيسهم السابق بعدائه للالمانيين • واذا حل اليوم الذي تناقش فيه المسائل السياسية الكبرى فسيذكر الناس ـ ليس في ألمانيا فقط بل في كل الدنيا ـ ان الثقة التي نالها رئيس الولايات المتحدة كانت مبنية على الخطأ . وان الغلطة التي كان يجب أن تسجل في قائمة أعمال رئيس الجمهورية وحده ستقيد في حساب الأمة الامريكية جمعاء ، ولن تربح أمريكا شيئاً في مقابل ذلك . وأي فائدة ترجى من سياسة طبعت بطابع عدم الوفاء بالعهد ؟ ان الناس لن يذكروا المستر (ولسن) اذا أصدروا حكمهم في المستقبل على السياسة التي اتبعتها أمريكا ، وسينسون أن (لويد جورج) و (كليمنسو) خدعا هذا الرجل

لقد اتيحت لي فرصة الاجتماع بكثير من الرجال والنساء الأمريكيين ولاسيما في أسبوع (كيال) . والامريكيون لا يوافقون على لعبة كاللعبة التي صدرت من مستر (ولسن) ، واني عظيم الأمل بأن أمريكا ستقف في يوم ما موقفاً ملائماً لوطننا ألمانيا

واني أضيف هنا الى ما قلته عن اهمال مواد (ولسن) الأربعة عشر أن أمريكا كانت أول من طلب ابعاد (آل هوهنزولرن) بدعوى أن ذلك مما يضمن للألمان شروط صلح حسنة . وكان يجب على وزارة البرنس (مكس دي بادن) ـ قبل ان تطلب الي التنازل عن العرش ـ ان تحصل من المستر (ولسن) على ضمانات حقيقية في هذه القضية التي كانت السبب الأول في موافقتي على الانتقال من ألمانيا الى بلاد أجنبية ، لأني قنعت يومئذ بأني أديت بعملي هذا خدمة لبلادي ، فآثرت هذه الخدمة على مصلحتي الشخصية وعلى مصلحة أسرتي بعد جدال اليم قام بيني وبين نفسي ، ثم ما لبثت أن تأكدت من أن القابضين على أزمة الأمور في ألمانيا لم يكونو

حاصلين على شيء من الضمانات الحقيقية ، ولم يكن لدي الوقت الكافي لاعلم مبلغ أقوال المستشار من الصحة في ذلك الوقت الذي كانت الحوادث تجري فيه بسرعة ، فتلقيت أقوال المستشار كأنها قضية مسلمة

ان الحلفاء الذين كانوا قد اتخذوا الرئيس (ولسن) ترجماناً لأفكارهم قد تبين الآن غرضهم من المطالبة بابعادي • فهم كانوا متأكدين من أن ابعادي عن البلاد الألمانية يدعو الى حدوث ازمة سياسية وعسكرية فيها فيسهل عليهم وضع الشروط القاسية عليها لا تخفيف الشروط كما كان يقال . اذ من المؤكد عندهم أن بقائي على عرشي أنفع لألمانيا من نزولي عنه . وهم على صواب في رأيهم هذا الذي أنا أشاركهم فيه • أما حكومة البرنس (مكس دي بادن) فانها لم تكن تستند الى اساس صحيح عند ما كانت تقول ان تنازلي عن العرش يضمن لألمانيا شروطاً أصلح لها

ان قوانين حماية العمل التي منحتها لبلادي دليل على أن سياستنا الداخلية كانت قائمة على مباديء السلم منذ ارتقيت عرش الامبراطورية . ومن هذه المباديء استوحينا قوانيننا الاجتماعية التي جعلت ألمانيا في مقدمة أمم الارض من حيث التضامن الاجتماعي

ولقد تقدمنا في هذه السياسة السامية خطوات واسعة حتى كان جيشنا قليل العدد بالنسبة الى عدد الشعب والى كون التجنيد اجبارياً . وان الامبراطور وحكومته وافقوا على التخفيض الذي قرره (الرخشتاغ) في الجيش وفي الاسطول . وقد وضع نواب الالمان حدوداً وقفت عندها أهمية الاسطول الحربي الالماني ، وما هكذا تكون خطة الدولة التي تريد الحرب وتستعد لها

وعندما كانت سياسة العداء والخنق تظهر لنا من دول الحلفاء ظهورا واضحاً كانت وظيفتنا منحصرة في تقوية الوسائل للدفاع عن رخائنا وسعادتنا . وهذا القلق الطبيعي الذي كان يحملنا على تنظيم اسباب الدفاع عن كياننا قد ساقنا في النهاية الى اتخاذ تدابير غير ذات بال، بقصد الذب عن قوميتنا . وان

الرأي العـام السلمي في ألمـانيا قد حال بيننا وبين تكوين قوة لنا في البر وفي البحر تناسب قوتنا المـالية وتعداد شعبنا . وهذا الذي نتحمله الآن ليس نتيجة ما ينسبونه الينا من الميول الحربية بل هو نتيجة حبنا للسلم حباً لايكاد يصدّق ، واخلادنا الى الثقة والطمأنينة اخلاداً أعمى

ولقد أوضحتُ فيما تقدم المباديء السياسية لدول الحلفاء المخالفة لسياستنا تماماً ، وأشرت الى المساعي التي قمنا بها لدى كل واحدة منهن رغبة في مجاملتهن وحسن معاشرتهن . وأريد بهذه المناسبة أن لا أهمل الاشارة الى أمور بالدرجة الثانية قمنا بها تخفيفاً لروح العداء التي كان الحلفاء قد ضربوها علينا نطاقاً كان أسبوع (كيال) يأتينا بالضيوف من كل البلاد . فكنا نقف في جانب الحياد من ميدان الالعاب الرياضية .فنمثل دور التوسط في الصلح في هـذا الميدان أيضاً . وكذلك لم نخرج عن هذه الخطة في الميدان العلمي عند تنظيم مبادلة الاساتذة . وكنا نتفانى في اعداد وسائل التسهيل والمساعدة لـكل من رغب ــ من الضباط الاجانب ــ في فهم أوضاع جيشنا وتشكيلاته . ولعل عملنا هذا يعدّ اليوم غلطة من الغلطات ، ولكنه أحد الامثلة التي تدل على ميولنا السلمية

ولم تعمل ألمانيا قط لانتهاز أية فرصة تؤهلها للحصول على ضمانة النصر في حرب تخوض غمارها . وقد ذكرت آنفاً موقفنا الحميد تجاه الحرب الروسية اليابانية . ولما دخلت انكلترا في الحرب مع البوير كان في استطاعتنا أن نحاربها أو أن نحارب فرنسا التي لم يكن حصولها على مساعدة انكلترا ممكناً في ذلك الحين ، فلم نفعل شيئاً من ذلك

ولا أعود الى ذكر الازمة المراكشة التي أفضتُ الكلام عليها من قبل[١] وانما أقول اننا رفضنا يومئذ باشمئزاز كل فكرة ترمي الى اعلان الحرب ، وكذلك برهنا على ميولنا السلمية في خلال الازمة التي نشأت عن الحاق

(١) انظر ص ٩٠ـ٩٣

(البوسنة والهرسك) بالنمسا

ان الذي يمعن النظر في مجموع هذه الوقائع السياسية الصريحة جداً ، ويلاحظ التصريحات التي أعلنها (بوانكاره) و (كليمنسو) و (ايزفولسكي) و (تارديو) وغيرهم من ساسة الحلفاء ، لا بد أن يتساءل عن معاهدة الصلح كيف قامت على قاعدة أن ألمانيا هي المسئولة عن الحرب الكونية . ان قراراً كهذا مبنياً على الكذب لن تتجاوز محكمة التاريخ عن سيئة الذين أصدروه

قال أحد الفرنسويين ، وهو المسيو (لويس كيتان) مندوب (جمعية حقوق الانسان) في (ليون) : « يجب علينا أن نبصر الأمور كما هي بلا تعصب ، وأن لا نبالي بعد ذلك الى أي زاوية من زوايا الأرض يوصلنا حظنا

اننا اذا فعلنا ذلك نتوصل أولاً الى أن حرب سنة ١٩١٤ نشأت عن حرب سنة ١٨٧٠ ، لأن عاطفة الانتقام الخفية في نفوسنا لم تنقطع عنا قط ـ قليلاً أو كثيراً ـ منذ حرب سنة ١٨٧٠ التي أرادتها وأعلنتها الحكومة الفرنسوية بتحريض حزب التوسع الاستعماري والفئات الدينية المتعصبة . وكانت الامبراطورية الفرنسوية في حاجة الى هذه الحرب لتنقذها من المشاكل الداخلية ومن الاستياء العام . وكان (غامبتا) خطيب المعارضة المفترس يقول يومئذ : اذا اعطتنا الامبراطورية الساحل الأيسر من نهر (الرين) فاني اصالحها

فحرب سنة ١٨٧٠ كانت حرب فتح بكل معنى الكلمة : فلم نكن نبالي برأي اهالي البلاد التي سنفتحها ، بل كنا نرى ان الانتصار سيملي عليهم ارادتنا ويرغمهم على الاذعان لها

ولكن الفرصة أضيعت . فان البرنس (ليوبولد) أعلن تنازله عن حقه حينما رأى ان ترشيحه قد أدى الى ما أدى اليه من المشاكل السياسية واخطار الحرب ، وهكذا لم تبق في يدنا وسيلة لاعلان الحرب . فنفضنا أيدينا من الغنائم الدموية والمجد والنصر ومن الشاطيء الايسر لنهر (الرين) بل ومن (بلجيكا) ، فكان مثل ذلك كمثل العجل والبقرة والدجاجة الرقاء

في قصة (الفتاة الحلاّبة) من قصص (لافونتن) . ولما كان ذلك من الخسائر المؤلمة فقد اقتضت الحال بذل المساعي مرة أخرى لاقتناص الفرصة ، فانبرت لذلك الصحف المتعصبة المتحزبة للكنيسة حتى وجدت المخرج الآتي:

ندب وزير خارجيتنا (غرامون) سفيرنا (بنديتي) لمقابلة الملك (ولهلم) الذي كان يبدل الهواء في (ايمس) والحصول منه على تعهد كتابي بأن البرنس (ليوبولد) اذا عدل عن قرار التنازل عن حقه فان الملك (ولهلم) يعارض في ذلك بصفته كبير الاسرة

ولقد وافقت اسپانيا بصورة رسمية أكيدة على تنازل (ليوبولد) بحيث لم يكن سبيل الى الاشتباه في ذلك . وبالرغم من كل شيء فان صحف (باريس) كانت كلها تحرّض على الحرب ، حتى أن (روبر ميتسل) أهين لما كتب في جريدة (كونستيتوسيون) مستبشراً بامكان الصلح ، وحتى كان (غامبتا) يقول :

— انكم تستبشرون ، أليس كذلك ؟ ان عملكم هذا جناية...

فغمسوا جريدة (روبر ميتسل) في الماء وضربوا بها وجهه

وكتب (اميل دوجيرار دين) يقول : « هذه فرصة لم تكن مأمولة ، فاذا أضاعتها الامبراطورية فانها تشرف على الاضمحلال »

ان هذه الاصوات يجب أن لا تبيد في زوايا النسيان لأنها شهادات لألمانيا ببراءتها

لقد ارتكبت ألمانيا غلطات سياسية

ولكن غلطاتها ليست جرائم

واني لا أزعم أن ألمانيا كانت بريئة من الخطأ في تصرّفاتها السياسية خلال السنوات العشر الأخيرة ، ولكن هذا الخطأ كان ناشئاً عن رغبتنا في المحافظة على السلام ، فهو ليس بجريمة . مثال ذلك أنني أعتبر (مؤتمر برلين)

غلطة كما ذكرت ذلك من قبل [1] لأن هذا المؤتمر زاد علاقاتنا بروسيا تراخياً ، وانما كان مؤتمر برلين فوزاً أحرزه (دزرائيلي) لانكلترا والنمسا على روسيا فأدّى الى سخط روسيا على ألمانيا . وبالرغم من ذلك فاننا بذلنا فيما بعد كل الوسائل لاستمالة روسيا الينا ثانيةً . وقد ذكرت (في اوائل الكتاب) أن البرنس (بسمرك) انما كان يقصد من الدعوة الى مؤتمر برلين أن يحول دون نشوب حرب عامة

ولما تلقى المستشار فون (بتمن هولويغ) الاوامر القطعية في عام ١٩١٤ بالمحافظة على السلم ارتكب بعض الغلطات فدل على أنه لا يصلح - بوجه من الوجوه - لأن يكون رجل حكومة في خلال ازمة كونية . ولكن اعداءنا مع استفادتهم من غلطاتنا يريدون أن يحملونا تبعة الحرب

ان (بتمن هولويغ) أراد - مثلنا جميعاً - أن يحول دون وقوع الحرب ، وقد ثبتَ - من أطواره وحركاته السياسية ، ومن اصراره حتى ٤ اغسطس على مفاوضة الانكليز الى النهاية - أنه كان يؤمل عبثاً بأن يجعل الانكليز خارجين عن دائرة الحلفاء

وبهذه المناسبة أريد أن اذكر القاريء بالغلطة التي ارتكبها البرنس (ليشنوفسكي) سفير المانيا في (لندن) . فانه لما وصل الى منصبه الجديد دعاه الملك (جورج) الى مائدته فاقتدت أندية (لندن) بالملك واستقبلت السفير وقرينته استقبالاً حسناً ، فاستدل البرنس (ليشنوفسكي) من ذلك على أن علاقاتنا بانكلترا تحسنت . وظل مصرّاً على اعتقاده هذا الى أن نبهه السر (ادورد غراي) بلهجة باردة قبيل اعلان الحرب الى أن ما يقابل به من مظاهر اللطف والود يجب أن لا يستنتج منه نتائج سياسية . وهذه الحادثة تدل على الفرق الذي بين الانكليز والالمان في العواطف والشعور . فسفيرنا فهم من المجاملات التي يبدونها له أن ذلك من مظاهر الميول السياسية ، لأن من عادة

الالمان ان يعربوا عن رغبتهم وعن نفرتهم بالمقابلات التي تعرض لهم في الاندية والمجامع ، وأما الانكليز فيفرقون بين المعاملات الشخصية والمعاملات العامة

* * *

ان عدم تجديد الاتفاقيات القديمة التي كانت تربطنا بروسيا لم يكن ليؤثر على الحرب أو السلم . وقد كثر الكلام على هذا الاتفاق ، لكني أعتقد بأن « معاهدة الضمانات المتقابلة [١] » لم تكن لتمنع القيصر من الالتحاق بالحلفاء ، وعلى عكس ذلك (اسكندر الثالث) فان ذلك مما لا لزوم له بالنسبة اليه

وكان (بسمرك) يقول ان الكونت (شوالوف) شقيق سفير روسيا مستعد لتجديد المعاهدة معه [٢] ولكنه لا يميل الى تجديدها مع خلفه ، وتلك مسألة شخصية محضة فلا علاقة لها بموقف الدولتين • بل ان الكونت (برشام) مستشار البرنس قال في أحد تقاريره ان المعاهدة لا يمكن تجديدها حتى ولا بواسطة (شوالوف) . وأنا أرى انه كان يجب ـ بدلاً من تجديد المعاهدة القديمة ـ عقد اتفاقيات جديدة مبنية على أغراض أخرى وأن تكون النمسا أيضاً داخلة فيها ، أي ان تعقد معاهدة تشابه « اتفاق الامبراطرة الثلاثة » غير ان الاتفاق مع (نقولا الثاني) لم يكن ممكناً كما تقدم ، ولا سيما بعد أن صارت الاندية الروسية النافذة الكلمة معادية لألمانيا

ان الخطة التي جرينا عليها هي أن نجعل موقف ألمانيا قوياً وان نحافظ على السلم لنضمن لبلادنا الثقة والمكانة في العالم • وكنت أنا أؤيد هذه الخطة لأسباب شخصية أيضاً ، فأنا لم أدع للغرور الحربي سبيلاً الى نفسي في وقت من الأوقات • وكان والدي قد وصف لي في أيام شبابي ميادين حرب ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ وصفاً فظيعاً مؤلماً ، فنشأت حريصاً على أن لا أدفع الأمة الالمانية

(١) انظر ص ٤٦
(٢) انظر ص ٤٧

والدنيا كلها الى مصيبة أعظم من تلك المصيبة وأشد منها فظاعة وآلاماً

وكان ذلك الشيخ الجليل المارشال الكونت (مولتكي) يقول: « ويل للرجل الذي يضرم لأوربا نار الحرب »

وكنت قد اتخذت كلمة البرنس (بسمرك) الآتية وصية سياسية منه وهي : « يجب على ألمانيا أن لا تعلن حرباً ، فنحن لسنا في حاجة قط الى الحرب »

كانت أنظار ألمانيا متجهة الى السلم فقط . وكانت خطتها تجنب الحرب والسعي لتسوية المسائل التي تؤدي اليها تسوية سلمية . وقد قضت بذلك الخطة المعينة التي نهجناها ، وطبيعتي الشخصية ، ووصايا رجلين من أعظم رجالنا هما (بسمرك) و (مولتكي)، ورغبة الشعب الالماني في ان يعمل وينمو في السلم بعيداً عن المغامرات

ان كل ما قيل في الاندية السيئة النية عن وجود حزب في ألمانيا يريد الحرب انما هو من الاكاذيب الملفقة لغاية في النفس . فقد وجدت عندنا كما فى جميع البلاد عناصر تحبذ الالتجاء الى القوة في ساعات الشدة مدفوعة الى ذلك بعوامل شريفة أو غير شريفة ، ولكن هذه العناصر لم تؤثر في سير السياسة الألمانية أقل تأثير

وقد اتهموا هيئة اركان الحرب الألمانية خاصةً بالعمل على تعكير صفو السلم ، ولكن هذه التهمة لا تستند الى أساس ، لان هيئة أركان الحرب البروسية خدمت مليكها ووطنها أجل خدمة بما بذلته من المجهودات العظيمة . فانها كانت تعنى في ابان السلم بشحذ سيف ألمانيا كما هو الواجب المفروض عليها . ولكن تأثيرها في السياسة كان عدماً لان الجيش الألماني — كما يعلم الجميع ـ قليل الاهتمام بشئون السياسة

على اننا نقول الآن ـ ونحن ننظر الى الماضي ـ ان الاندية العسكرية العليا لو تدخلت في شئوننا السياسية لكان ذلك خيراً لنا

تأثير الدعوة الانكليزية

في اسناد الفظائع الى ألمانيا

ولا ندري كيف شيد صلح (ڤرساي) على أساس تبعة ألمانيا ، بالرغم من الحقائق الساطعة التي أشرنا اليها . ولكن هذا السر ينكشف لنا تماماً اذا انعمنا النظر في الأساليب الجديدة التي ابتكرت للحرب وعادت باعظم النتائج ، وأعني بذلك الدعوة السياسية التي بثتها انكلترا ضد ألمانيا ، تلك الدعوة التي نظمت على أوسع منوال ونفذت بأعظم ما يمكن من الجرأة على تشويه الحقائق . ولا يسعني ان اقتصر في كلامي عن هذه الدعوة على اعلان الاشمئزاز الشديد منها ونعتها بالالفاظ التي تستحقها ، كالقول بانها « دناءة » مثلا . لان الفائدة التي جناها العدو منها جديرة بأن تلفت الانظار اليها مهما تكن فظيعة في حد ذاتها ، فقد كان خطرها علينا أعظم من خطر جيوش الاعداء كلها

ان مثل هذا السلاح اذا وضع في يد الخبث والرياء لا يمكننا نحن الالمان أن نقابله بشيء من الارتياح ، لأنه لا يتفق مع اخلاق شعبنا ، ولاننا لا نستخدم في سبيل الاقناع غير سلاح الحقيقة ، ولو كان ذلك في مصلحة أعدائنا

ولكن الحرب لا قلب لها ولا وجدان ، وهي تجد في النصر مبرراً لجميع الأعمال حتى أشدها فظاعة . وهل في العالم أفظع من أناس يقذفون قنابل المدافع الضخمة على رجال متمدنين ويدمرون المدن الزاهرة والآثار القديمة ؟ ان هذا ما كان يفعله الفريقان المتحاربان في ابان الحرب

على أننا لم نكن لنستطيع أن ننظم أسلوبا واسع النطاق لبث الدعوة أسوة باعدائنا ، لاننا كنا محصورين وكانوا هم احراراً . فضلا عن ان الشعب الالماني لا يملك الموهبة التي تجعله قادراً على التأثير في ذهنيات الشعوب المختلفة . فالانكليز امتازوا علينا بهذا السلاح ، سلاح الدعوة المؤثر ، كما امتازوا بدباباتهم التي ظهرت في ميدان القتال ولم يكن لدينا ما نستطيع ان نقاومها به

ولا ريب في ان حكم (ڤرساي) القائم على الخطأ لم يكن ليقرر تبعة المانيا لو لم تسبقه الدعوة الانكليزية — التي روجها دعاة السلم من الالمان أنفسهم — الى اختلاق هذه التبعة وترتيبها واقناع اكثر من مئة مليون من البشر بها ، بحيث ظهر حكم (ڤرساي) عادلاً لكثيرين من الناس

على أن الحالة تغيرت كثيراً فيما بعد . فالحواجز العظيمة التي كانت تفصل الشعوب بعضها عن بعض دكت من أساسها ، ورأت الشعوب كيف خدعت ، وكيف سيقت الى الخطأ بتأثير الكذب والرياء . وسينشأ عن ذلك رد فعل عظيم يسحق صلح (ڤرساي) سحقاً ويكون أعظم عضد لالمانيا

ولا أرى حاجة الى القول بانه ليس بين الحلفاء من قادة أمورهم الى ساستهم الى صحافييهم رجل واحد يعتقد بجناية المانيا. وذلك لانهم يعلمون كلهم كيف اتصلت الحوادث بعضها ببعض ، وكيف نشأت وتفاقمت . وبديهي انه لم يكن في العالم سرّ ابتسم له مثل هذا العدد العظيم من العرّافين الذين تآمروا فيما بينهم كما تآمرت دولهم ـ وعددها ٢٨ دولة ـ على ألمانيا

ولكن التاريخ العام لا يؤلف من ابتسامات العرافين ، فالحقيقة ستظهر للعيان كالشمس في رائعة النهار فيصدر التاريخ حكمه العادل حينئذ على ألمانيا،

واذا نظرنا الى معاهدة (ڤرساي) مادة مادة رأيناها بلا فائدة ولا جدوى لان تنفيذها يتعذر على الحلفاء وعلى ألمانيا معاً . ولقد ظهر لأقطاب الدول منذ بضعة أشهر ان هذه المعاهدة المضحكة عقبة كؤود في وجه الغالبين وفي وجه ألمانيا أيضاً ،وان معول الدول المتحالفة أخذ يعمل في صرح المعاهدة المتداعي . وذلك لانه يستحيل على ثلاثة رجال مجتمعين في أي مكان أن يدّعوا لانفسهم حق تنظيم العالم وفقاً لمباديء وضعوها على الورق . والعالم اليوم بلغ أقصى درجات الرقي ، بفضل التبادل الحر المنتظم في جميع الشئون المادية والادبية . فكيف أمكنهم والحالة هذه ان يعتقدوا في أنفسهم القوة الكافية للقيام بمثل هذا العمل ؟

ان معاهدة (ڤرساي) باعثة على القلق ، ليس لالمانيا وحدها بل لدول الحلفاء ولامريكا أيضاً . لأن المشاكل الاقتصادية لا يمكن حلها من جانب أحد الفريقين وحده ، ولا مناص من اشتراك الفريق الآخر في السعي لحلها، ولا سيما في هذا الزمان الذي تنظم فيه الشئون الحيوية بحسب حاجة الشعب لا بالقول المجرد . واذا كان في امكان جماعة أن يخالفوا سنة الكون في اتخاذ قرارات قاسية وغير معقولة ولا تنطبق على حاجات الامم فان عاقبة ذلك أن تضيق هذه الامم ذرعاً بهذه القرارات ، وذلك هو موقف العالم اليوم ، وهو موقف لا تستطيع المدافع ولا الدبابات ولا الاساطيل الجوية على ادامته .
ولو كانت معاهدة (ڤرساي) معقولة ومفيدة للعالم لما كان ثمة حاجة الى تعدد المؤتمرات وتنوع المفاوضات بعدها . وان مايشعرون بالحاجة اليه من احداث تفسيرات وتأويلات جديدة لهذه المعاهدة دليل على انهم لم يلاحظوا حاجات الامم المتمدنة الراقية عند ما وضعوها

ولو كان النصر في الحرب العظمى بجانب الالمان لوضعوا للصلح شروطاً أقرب الى العدل ليمكن احتمالها . ومع أن معاهدتي (برست ليتوفسك) و (بوخارست) لا نسبة بينهما وبين معاهدة (فرساي) بوجه من الوجوه فانه لا يجوز اتخاذهما دليلاً على شدة ألمانيا في وضع المعاهدات ، لانهماوضعتا في أثناء الحرب والغرض منهما تحقيق الضمانات لنا الى أن ينتهي القتال . وكان في العزم ـ لو كان النصر في جانبنا ـ أن نحدث في شروط تينك المعاهدتين تعديلاً جوهرياً من أنفسنا ، أما الشروط التي وضعت أثناء الحرب فقد لوحظت فيها الدواعي الحربية يومئذ

والآن فان الاغلاط التي تضمنتها معاهدة (فرساي) قد أخذت تتعدل، وان اللوازم الحيوية للامم العصرية هي التي تملي ارادتها على ضمائر الامم الغالبة والامم المغلوبة . وستأتي ـ بعد سنوات الآلام المدهشة ـ سنة يزاح فيها عن أمة كبرى قوية مخلصة ذلك النير الذي وضع في عنقها ظلماً وعدواناً ، ويومئذ يشعر الالماني بالسعادة فيفتخر بأنه ألماني !

الخاتمة

﴿ كيف يكون مستقبل ألمانيا ؟ ﴾

أنا لا أبالي بكل ما وصمني به اعدائي ، لأني لا أعتبرهم قضاتي . واذا رأيت الذين كانوا من قبل يتملقون لي يرشقونني الآن بالوحل لا أشعر نحوهم بشيء غير الرحمة . ولكني أتألم اذا رأيت بني قومي يتكلمون عني في وطني باهتمام ويشهد الله انني كنت أريد الخير دائماً لقومي ووطني ، ولذلك كنت اظن أن كل ألماني عارف بحسن نيتي هذه ومقدرها قدرها

اني لم انقطع قط عن اتباع الأوامر الالهية في سياستي وفي جميع حركاتي وسكناتي بصفتي امبراطوراً وبصفتي انساناً . وقد حدثت أمور كثيرة على خلاف ارادتي ، ولكن ضميري مطمئن وطاهر ، لأني كنت أرمي في كل أعمالي الى غاية واحدة وهي : مصلحة قومي وامبراطوريتي وجلب الخير لها

واني أحتمل ما كتبته عليّ الأقدار متوكلاً على الله ، وعالماً حكمة الله فيما قضي علي به في دور الامتحان الذي نجتازه الآن . وسأتلقى كل ما يحدث بشجاعة وصبر ، غير متألم الا من شيء واحد وهو الآلام والمحن التي يعانيها أبناء ألمانيا ، ذلك هو الجرح الحقيقي الذي أشعر به في نفسي

لا أعيش في هذه المزلة الا من أجل الشعب الألماني ، ولا افكر الا فيه . واني اتساءل على الدوام كيف أستطيع أن أساعده أو ان اخدمه بنصائحي واقتراحاتي

ان ألد أعدائي وأشدهم تحاملاً علي لايستطيعون أن ينكروا حبي العظيم لبلادي وشعبي . وسأظل مخلصاً للألمان مهما تكن خطة فريق منهم ازائي

واني اشكر الذين حافظوا على اخلاصهم لي في ابان محنتي ، لأنهم شجعوني بذلك على مواصلة الجهاد ، وخففوا عني آلام الغربة والشوق الى الوطن •

وأحترم الذين يعملون ضدي لأغراض شريفة . أما الباقون فاني أدعوهم الى محاسبة ضمائرهم ، وتقدير حكم الله والتاريخ عليهم • ولكنهم مهما فعلوا فهم

عاجزون عن حملي على كره الألمان

ان الوطن والشعب واحد في نظري . وقد أعلنت يوم ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ في القصر الأمبراطوري ببرلين ابان افتتاح مجلس الرخستاغ ما يأتي :

« لا أتعرف بالأحزاب من الآن فصاعداً ، ولا أرى أمامي الا ألمانيين »

وها أنا اعيد هذا الكلام الآن

لقد ادمت الثورة قلب الامبراطورة فساءت صحتها منذ نوفمبر سنة١٩١٨ وخارت قواها فلم تعد قادرة على تحمل المصائب . وبدأ مرضها المزمن منذ ذلك الحين مشفوعاً بآلام الغربة والشوق الشديد الى المانيا والى الشعب الألماني ، ومع ذلك فهي تحاول ان تعزيني وتسليني

ان الثورة التي شبت في ألمانيا في الوقت الذي اشرف فيه الألمان على الانتهاء من جهاد قام في سبيل حياتهم ، وفي الوقت الذي كان يجب ان يتفرغوا فيه لحصر جميع القوى في تجديد ما تخرب من الكيان القومي ، قد قضت على جميع مافي الامة من نشاط وأمل ، ولذلك كانت جناية على المانيا لا تغتفر

انا اعلم بأن كثيرين من المنضوين تحت لواء الاشتراكية امتنعوا من ايقاد نار الثورة ، واعلم ان بعض رؤساء الاشتراكيين الدمقراطيين لم يرغبوا في الثورة ، وكان كثيرون منهم مستعدين لأن يعملوا معي . ولكن الاشتراكيين يقع عليهم بعض تبعة الموقف الحاضر لأنهم لم يهتدوا السبيل الى منع نشوب الثورة ؛ بل ان نصيبهم من التبعة اعظم من نصيب الزعماء الملكيين لأنهم كانوا اعظم نفوذاً واشد تأثيراً على الجماعات الثائرة

ومع ذلك فان زعماء الاشتراكية عندنا كانوا يبثون الدعوة الى الثورة من قبل الحرب . وكان الاشتراكيون الدمقراطيون اعداء للحكومة الملكية يعملون على اسقاطها . وهم الذين زرعوا الهواء ليحصدوا العاصفة

أن كثيرين من الزعماء لم يسرهم الوقت الذي وقع عليه الاختيار لاعلان الثورة ولا الشكل الذي ظهرت به . ولكنهم جميعاً مسئولون وملومون لأنهم

تركوا دفة المملكة للمتطرفين في أشد الاوقات حرجاً ، ولم يستعملوا نفوذهم في الدفاع عن الحكومة

وكان في امكان حكومة البرنس (ماكس دي بادن) أن تحمي كيان الحكومة القديمة . ولكنها اعتمدت على زعماء الاشتراكية الذين كانوا قد فقدوا مالهم من النفوذ في الجماعات المتطرفة ، فأهملت وظيفتها المقدسة . اذن فالخطأ الأعظم هو الذي ارتكبه الزعماء ، وان التاريخ سيلعن الفاعلين الحقيقيين للثورة ، ولست أعني جماهير العامة بل أولئك الرؤساء الذين لم يمنعوهم ، وأعني أيضاً حكومة البرنس (ماكس دي بادن)

أما العمال الألمانيون فانهم قاتلوا أصدق قتال في خلال الحرب عند ما كنت لا أزال على عرشي . وهم الذين كانوا يصنعون الذخائر وراء جبهة الحرب . هذه حقائق يجب أن لا ننساها أبداً . أما ما أصيب به جماعات العمال من كارثة التفرقة فيما بعد فتقع تبعته على المحرّضين والمسببين للثورة . ويجب أن لا يدخل في غمار هؤلاء أولئك العمال الذين ظلوا مخلصين ووطنيين حتى النهاية ، لان المسئولين عن اضمحلال ألمانيا هم المحرضون الذين لا ضمير لهم ، وسوف يأتي يوم تفهم فيه طبقة العمال هذه الحقيقة

والآن فان ألمانيا تجتاز دور الآلام . وبالرغم من ذلك فانى لا أخشى قط على مستقبل أمة قوية صحيحة البنية . فالامة الالمانية ـ التى ما برحت تتقدم وترتقي من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٩١٤ حتى بلغت من القوة مبلغاً وقفت فيه امام ٢٨ حكومة متحالفة ـ لا يمكن أن تمحى من الوجود . وان نظام البشر الحاضر لا يستغني عنا

وعلى كل حال فيجب على ألمانيا أن لا تنتظر معونة من الخارج لتستعيد مكانتها في العالم ، فهي لن تلقى معونة من أحد ، وكل ما ينتظر أن يجيئها من الخارج انما هو الاستعباد . . .

أين المعونة التي كان ينتظرها الاشتراكيون الدمقراطيون من

« اللاقومية » ؟ لقد اتضح الآن أن برنامج « اللاقومية » كان غلطة عظمى

ان طبقة العمال في دول الحلفاء زحفت على الأمة الألمانية اثناء الحرب العظمى بقصد ابادتها ؛ فلم يظهر يومئذ على وجه الارض تضامن « عام » بين جماعات العامة ، وكان ذلك سبباً من اسباب انتهاء الحرب بالضرر على المانيا، لأن طبقة العمال في انكلترا وفرنسا قد احسن زعماؤها قيادتها فساروا بها في الطريق القويم ؛ اعني به « طريق القومية » بينما كان العمال الألمانيون منحرفين الى طريق الضلالة اعني طريق « اللاقومية »

يجب على الأمة الالمانية ان لا تعتمد على معونة اية امة من الامم . ومتى استيقظ الضمير القومي في جميع طبقات الشعب فيومئذ نعود الى مكانتنا في العلاء .فعلى جميع صنوف الامة ان ينضووا حول العاطفة القومية وحدها مهما اختلفت آراؤهم في الشئون الاخرى من شئون الحياة الاجتماعية

ان العاطفة التي بثت القوة في انكلترا وفرنسا بل وفي پولونيا هي « عاطفة القومية » ولن يكون التعاضد بين جميع أبناء وطننا الا اذا نما فيهم حس الافتخار بأنهم ألمان فأدركوا به الكرامة القومية حق الادراك . وما الذي رفع ألمانيا الى تلك الدرجة من القوة التي كانت فيها من قبل الا « قوة العاطفة القومية » . فاذا استعادت ألمانيا هـذه العاطفة فانها تستطيع حينئذ أن تمثل دور النشاط الذي لا مثيل له في مجموع الامم ، وأن تتفوق على جميع شعوب الارض في الفنون والصناعات

وبعـد فاني مقتنع بأن احكام (ڤرساى) ستنقض ؛ وأعتمد في اقتناعي هذا على المانيا نفسها وعلى آراء الجماعات التي تفكر تفكيراً معقولاً في البلاد الاجنبية · ولى الثقة التامة بأن المانيا ستعود الى عملها السلمي الذي انقطع موقتاً بسبب الحرب المدهشة

ان المانيا لم تطلب هذه الحرب ، ولذلك لن تقع عليها تبعتها

(انتهى)

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة